

دَفعُ الشُّبُهَاتِ عَنِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

تأليف

أ. د/عبد المُهدى عبد القادر عبد الهادى

أستاذ الحديث بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر

ضياء سعيدة

مكتبة الإيمان

دفع الشبهات
عن السنة النبوية

تأليف

أ.د/ عبد المهدى عبد القادر عبد الهادى
أستاذ الحديث بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

مكتبة الإيمان
٤ ش أحمد سوكارنو ـ العجوزة
ت: ٣٤٥٢٣٠٢

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

رقم الإيداع

٢٠٠١/٣٦٢٢

مكتبة الإيمان

٤ ش أحمد سوكارنو - العجوزة

ت: ٣٤٥٢٣٠٢

مطبعة المدني

المؤسسة السعودية بمصر

٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: ٨٢٩٧٨٥١

قال الله تعالى:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾

[سورة النساء: الآية ١١٥]

وقال تعالى:

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢١]

وقال رسول الله ﷺ:

«أَلاَ هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُه الحديثُ عَنِّي وهو مُتَّكِئٌ على أَرِيكَتِه، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم كِتَابُ الله، فَمَا وَجَدْنَا فيه حَلاَلاً اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ، وإِنَّ مَا حَرَّمَ رسولُ الله كَمَا حَرَّمَ اللهُ»

[أخرجه الترمذي وأبو داود وغيرهما، وهو حديث صحيح]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا كتاب فى دفع الشبهات عن السنة النبوية:

● رددت فيه على الشبهات التى تثار ضد السنة النبوية، وحليته بفوائد فى التعريف بالسنة، ومدى ثبوتها، وأصالتها.

* ففنّدت فيه شبهات أعداء السنة التى يفترونها على علم السنة النبوية[١]، تلك التى أمرنا الله تباركْ وتعالى باتباعها، وأمرنا رسول الله ﷺ بالعمل بها.

* وفندت شبهاتهم على الأحاديث[٢] كل حديث على انفراد، هذه الأحاديث التى حرصت الأمة على الحفاظ عليها والعمل بها، وذلك على مدى حياة هذه الأمة.

* وفندت شبهاتهم التى يفترونها على أصحاب رسول الله ﷺ، هؤلاء الصحابة الذين أثنى عليهم ربنا فى كتابه، وزكاهم رسول الله ﷺ فى أحاديثه، وعلماء الأمة سلفًا وخلفًا على إكبارهم وإجلال دورهم الذى قاموا به فى نصرة الإسلام فى عهده الأول.

* وفندت شبهاتهم التى يختلقونها على أئمة الحديث، هؤلاء الأئمة الذين اعترفت لهم الأمة بقدرهم العالى، وباستقامة طريقهم، وبعظمة العلم الذى يعملون فى ساحته، ألا وهو السنة النبوية.

(١، ٢) السنة النبوية والأحاديث النبوية بمعنى واحد هنا.

* وبينت قدر الصحابة وأئمة الحديث، وقدر السنة وثبوتها، والجهود التى بذلت فى خدمتها.

وهذا الكتاب سميته: «دفع الشبهات عن السنة النبوية» مراعاة لما يشيع على ألسنة الناس من أن هذه شبهات، أما حقيقة الأمر فإن كلامهم هذا محض افتراءات وأباطيل، كما سيتضح من الرد عليهم.

إن الشبهة أمر اختلطت معالمه فأشكل على البعض، فراح يبحث عن المعنى بفكر معتدل، فإذا بُيِّن له الأمر قبله. ومنكرو السنة ليسوا هكذا فليس فى السنة أمر يشكل، فهى علم خُدم بكل أنواع الخدمة العلمية الجليلة، وإنما هم يختلقون أشياء يعيبون بها السنة للقضاء عليها، وهم فى هذا مفترون كاذبون كما سيتضح من الرد عليهم، وهم يعادون السنة بغرض القضاء على الإسلام!!

وأعداء الإسلام تاريخهم طويل، فهم منذ أعلنها رسول الله ﷺ «لا إله إلا الله» وهم فى عداء شديد للإسلام.

• وأعداء السنة من هذا القبيل، ولقد رد عليهم كثير من الأئمة منهم:

* الإمام الشافعى المتوفى ٢٠٤هـ وبخاصة فى كتابيه «الرسالة» و «اختلاف الحديث».

* وابن قتيبة المتوفى ٢٧٦هـ فى كتابه «تأويل مختلف الحديث».

* والطحاوى المتوفى ٣٢١ فى كتابه «مشكل الآثار».

* والسيوطى المتوفى ٩١١ فى كتابه «مفتاح الجنة فى التمسك بالسنة».

* والشيخ محمد أبو شهبة المتوفى قريبًا فى كتابه «دفاع عن السنة» وغير هؤلاء كثير.

وسبق لى أن رددت على منكرى السنة فى بحث من بحوث كتابى «المدخل إلى السنة النبوية» وفى ثلاث رسائل فى الرد على شبههم التى نشرها د/ مصطفى محمود فى جريدة الأهرام، ثم طبعوها كتابًا بعنوان «الشفاعة».

وكتابى هذا ركزت فيه على دفع أحدث شبهاتهم، وبينت فيه منهجهم وأصولهم[1]، وأسأل الله أن يجعله زاداً لأهل السنة المحبين لها، يسعد الله به صدورهم، ويردون به على الشبه التى تثار أمامهم. وأسأله سبحانه أن يجعله سبب هداية للمعرضين عن السنة المعادين لها، وأن يجعله فى ميزان حسناتى، وهو سبحانه حسبنا ونعم الوكيل.

أ.د/ عبد المهدى عبد القادر

المعادى فى ١٥ رمضان ١٤٢١

١١ديسمبر ٢٠٠٠

(١) أما أشخاصهم والصفحات من كتبهم فتركتها خشية الطول بما لا فائدة منه.

ولقد أعد الأخ/ عماد السيد محمد إسماعيل الشربينى رسالة نال بها درجة التخصص «الماجستير» فى الحديث وعلومه من كلية أصول الدين بعنوان «السنة النبوية فى كتابات أعداء الإسلام، ذكر فيها الشبهة وقائليها، والصفحات من كتبهم. ورسالته هذه فى حوزة مكتبة دار السلام لطبعها. وددت أنها طبعت بشكلها التى نوقشت عليه.

كما أن الأخ د/ طه الدسوقى حبيش له كتب فى الرد عليهم، ودون فيها بعض حواراته معهم مع ذكر أشخاصهم والتعريف بهم.

وللأخ أبو إسلام أحمد عبد الله كتاب بعنوان «شبهات وشطحات منكرى السنة» ذكر فيه الكثيرين منهم، وحواراته وحوارات غيره معهم.

تمهيد

آيات قرآنية فى وجوب العمل بالسنة

● كثير من آيات القرآن الكريم تأمرنا باتباع السنة النبوية:

* يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [١].

ففى الآية الأولى يعلمنا ربنا أن علامة حب العبد لله تعالى أن يتبع رسول الله ﷺ، فإن اتبع رسول الله ﷺ أحبه الله وغفر له ذنبه.

وقد أخرج الطبرى عن الحسن البصرى[٢] فى تفسير هذه الآية قال: قال قوم على عهد النبى ﷺ: يا محمد، إنا نُحبُّ ربنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ فجعل اتباع نبيه محمد ﷺ عَلَمًا[٣] لحبه وعذابًا لمن خالفه[٤].

وفى الآية الثانية يبين ربنا سبحانه وتعالى أن علينا أن نطيع الله ورسوله، ومن لم يطع فإنه كافر، والله لا يحبه، لأنه سبحانه لا يحب الكافرين.

وهكذا تفيد الآيتان أن اتباع رسول الله طريق حب الله تعالى، وأن عدم اتباعه كفر. فمن أراد حب الله فليعرف هَدْىَ رسول الله ﷺ، وليتبعه، فإذا لم يفعل فلا نصيب له فى الحب، وإنما هو كافر بالله وبرسوله.

* ويقول سبحانه وتعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [٥].

---

(١) سورة آل عمران آية ٣١، ٣٢.

(٢) أحد أئمة التابعين، إمام كبير، ومتعبد بصير، ولد سنة ٢١، وتوفى سنة ١١٠.

(٣) أى دليلاً على حبه سبحانه وتعالى.

(٤) تفسير الطبرى ٣/ ٢٣٢.

(٥) سورة الأعراف آية ٣.

يأمرنا سبحانه وتعالى باتباع ما أنزل على رسوله ﷺ، من القرآن الكريم والسنة النبوية، كما فى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (١).

وقوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ (٢).

فهاتان الآيتان تفيدان أن الله أنزل على رسوله القرآن والسنة، فجاءت الآية ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ دالة على وجوب العمل بالكتاب والسنة، وحاثة على اتباعهما.

وغير هاتين الآيتين كثير فى وجوب اتباع سنته ﷺ(٣).

● **وكثير من آيات القرآن الكريم تأمرنا بطاعة رسول الله ﷺ:**

* يقول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤).

* ويقول سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (٥).

ليس هناك أبلغ من هذا، فقد جعل الله تبارك وتعالى طاعة رسوله طاعة له سبحانه وتعالى، وهذا أمر بدهى، فرسول الله إنما هو مبلغ عن الله، لا يتكلم إلا بوحى الله، وبإلهام الله سبحانه وتعالى.

● **وكثير من آيات القرآن الكريم تحذر من مخالفته ﷺ:**

* يقول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦).

يقول الحافظ ابن كثير فى تفسير هذه الآية: يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكِّم الرسول ﷺ فى جميع الأمور. فما حكم به

---

(١) سورة النساء آية ١١٣.

(٢) سورة البقرة آية ٢٣١.

(٣) إذا أردت المزيد فراجع كتابى «المدخل إلى السنة النبوية» ص٧٧ طبع دار الاعتصام.

(٤) سورة آل عمران آية ١٣٢.

(٥) سورة النساء آية ٨٠.

(٦) الآية ٦٥ من سورة النساء.

فهو الحق الذى يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أى إذا حكَّموك يطيعونك فى بواطنهم، فلا يجدون فى أنفسهم حرجًا مما حكمت به، وينقادون له فى الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة[١].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٢].

فليحذر الذين يخالفون عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه، وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنًا من كان، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ» أى مردود عليه، ولا عبرة به.

ولقد ساق ابن العربى فى تفسير هذه الآية عن سفيان بن عيينة قال: سمعت مالك بن أنس، وأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله، من أين أُحْرِم؟

قال: من ذى الحليفة[٣] من حيث أحرم رسول الله ﷺ.

فقال: إنى أريد أن أحرم من المسجد.

فقال مالك: لا تفعل، فإنى أخشى عليك الفتنة.

قال الرجل: وأى فتنة فى هذا؟ إنما هى أميال أزيدها.

قال مالك: وأى فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصّر عنها رسول الله ﷺ!! إنى سمعت الله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٤].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥١٨ - ٥٢٠ بتصرف.

(٢) سورة النور آية ٦٣.

(٣) المكان الذى يُحْرِم منه أهل المدينة المنورة بالحج، وبه بئر يسمى بئر على، وهو الآن يعرف بـ«آبار على» وبه مسجد كبير.

(٤) أحكام القرآن لابن العربى ٣/ ١٤٠٠، ١٤٠١.

● وعلى الرغم من كثرة الآيات القرآنية فى:

* الحث على اتباعه ﷺ.

* والأمر بطاعته ﷺ.

* والتحذير من مخالفته ﷺ.

على الرغم من كثرة الآيات فى هذه الأمور وما يعضدها، إلا أننا نجد أناسًا يتنكرون لسنته ﷺ!!

سبحان الله!!

* ماذا بعد أن نجد فى القرآن الكريم الأمر باتباعه ﷺ؟!

* ماذا بعد أن نجد فى القرآن الكريم الأمر بطاعته ﷺ؟!

* ماذا بعد أن نجد فى القرآن الكريم التحذير من مخالفته ﷺ؟!

● وكثير من الأحاديث النبوية توجب العمل بالسنة، وكثير منها يحذر من مخالفة السنة[١].

* وأقوال الصحابة والتابعين كثيرة فى الحث على اتباع السنة.

* وأفعالهم منضبطة على السنة[٢].

* والعقل يحتم العمل بالسنة، فكثير من آيات القرآن الكريم تحتاج إلى بيان، والعقل يحتم أن يكون هذا البيان من عند الله، وعلى لسان رسول الله ﷺ[٣].

ما دام فى القرآن إجمال فإنه لابد من السنة النبوية تبينه، العقل يحتم هذا، لا يبين القرآن إلا رسول الله المبلغ عن الله؟ بدهى هو ﷺ وحده.

أبعد هذا كله يتنكر متنكر للسنة؟

إنها طبيعة البشر التى قال الله فيها: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[٤]، ﴿فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ﴾[٥].

(١ - ٣) راجع كتابى «المدخل إلى السنة النبوية» طبع دار الاعتصام ففيه تفصيل لذلك وغيره.

(٤) سورة هود آية ١٠٥.

(٥) سورة الشورى آية ٧.

منكرو السنة فى ضوء القرآن والسنة

• الناس فى الحق فريقان:

(١) من البشرية أناس فطرهم سليمة، وأفكارهم قويمة، وطبائعهم مستقيمة، يبحثون عن الحق بكل الصدق، فإذا وجدوه اتبعوه بكل حزم، وهؤلاء يمثلهم الصنف الذين طال حديثى عنهم، من السلف ومن تبعهم الذين أعظموا الله الخالق الرزاق، سبحانه وتعالى، وآمنوا بكتبه التى أنزلها، وبرسله الذين أرسلهم، آمنوا برسول الله محمد ﷺ، فاقتدوا به فى كل ما كان منه، وعرفوا قدره، وأعظموا منزلته.

عرفوا هديه ﷺ فاتبعوه، لم يحيدوا عنه قيد أنملة، ولم يتأولوا، ولم يترددوا، إنما اتبعوه بكل صدق وحزم.

أحيانًا يكلفهم اتباعه حياتهم فيجودون بها، وأحيانًا يكلفهم أموالهم فتطيب بها نفوسهم، ضحوا فى سبيل اتباعه بكل مرتخص وغال، ولم يبالوا بترك قريب أو حبيب. كان اتباعه ﷺ أغلى من كل شىء، وكان حبه يفوق كل حب.

إنه الذى اصطفاه الله.

إنه المبلِّغ عن الله.

إنه الذى يرسم صراط الله.

إنه الرحمة المهداة.

إنه النعمة المسداة.

إنه السراج المنير.

هذا الصنف هم الذين قال الله فيهم:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

(١) أول سورة البقرة من آية ٢ إلى آية ٥.

هذا الصنف هم الذين قال الله فيهم:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

هم الذين قال الله فيهم:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

(٢) ومن البشرية أناس آخرون أفكارهم سقيمة، وطبائعهم لئيمة. ينفرون من الحق، ويقفون مع الباطل، يصدون عن سبيل الله، ويتمنون أن لو استطاعوا أن يطفئوا نور الله.

يعادون أهل الحق بكل وسيلة، ويكيدون لهم بكل حيلة.

يحرصون على إبعاد القرآن الكريم عن حياة الأمة، ويفسرونه بأهوائهم المضلة، ويحملونه على أفكارهم المختلة.

أما سنة المصطفى ﷺ فيحرصون على تشويهها وإبعادها، يعيبونها بما ليس فيها، ويتنكرون لسموها ومعاليها.

لا يحبون هديه ﷺ، ولا يقبلون ما بلغ به عن الله تعالى، وهو الذى زكاه الله وأعلاه، ومدحه فى غير ما آية وأسماه.

عرّف الله بهم فى القرآن الكريم، وحذر منهم ومن زيغهم، فقال سبحانه:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا

(١) سورة النور آية ٥١

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٧.

قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [١].

ومما يلفت النظر أن يعرف الله بهذا الصنف ـ وبالصنف الذى قبله ـ فى مطلع القرآن الكريم، ليَحْذر كلُّ إنسان أن يُخْدَع، يخدعه شيطانه أو نفسه أو هواه. وحتى لا يظن ظان أن كل قول يقبل، أو أن كل فكر يعتبر، لا وإنما يُقبل ما كان من عند الله تعالى، يقبل ما وافق الكتاب والسنة.

إن من الناس ناسًا لا يقبلون الهدى، وإنما يحرصون على الردى!!

يستميتون فى محاربة الحق، ويجتهدون فى التعمية على الخلق، عرّفنا بهم ربنا سبحانه وتعالى فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٢]

يقول الحافظ ابن كثير ـ فى تفسير هذه الآية وما بعدها ـ نزلت هذه الآيات الكريمات فى المسارعين فى الكفر الخارجين عن طاعة الله ورسوله المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل: ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ أى أظهروا الإيمان بألسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه وهؤلاء هم المنافقون ﴿ومن الذين هادوا﴾ أعداء الإسلام وأهله، وهؤلاء كلهم ﴿سمّاعون للكذب﴾ أى مستجيبون له، منفعلون عنه ﴿سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ أى

(١) سورة البقرة الآيات ٨ ـ ١٦.

(٢) سورة المائدة آية ٤١.

يستجيبون لأقوام آخرين، لا يأتون مجلسك يا محمد. أو أنهم يتسمعون الكلام وينهونه إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك: ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ أى يتأوّلونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون[١].

سبحان الله!! فى كثير من الأزمنة من يحرفون الكلم من بعد مواضعه، يتأولون كلام الله على غير تأويله، ويحرصون على حمل الآيات على غير معناها، همّهم التضليل، وغايتهم صرف الناس عن الإيمان بالله.

إنهم أناس قلوبهم مريضة، يظهرون غير ما يبطنون، يبذلون الحيل لإقناع الناس بباطلهم، ويتلوّنون لإضفاء القبول على باطلهم، يجتهدون فى إذاعة أفكارهم ويداومون على معاداة الحق الناطق بعكس ضلالهم.

ولم يقف الأمر عند حد بيان القرآن الكريم صنفى الناس، وإنما بيّن ربنا مؤامرات الأبالسة، ومحاولاته إضلال الناس، بما معه يتضح خط منكرى السنة.

• حديث القرآن عن منكرى السنة:

يقول الله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾[٢].

والمعنى: وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك، ويعاندونك، جعلنا لكل نبى من قبلك أيضًا أعداء، فلا يحزنك ذلك. إن شياطين الإنس والجن يعاندون أهل الحق فى كل زمان ومكان، يساعد بعضهم بعضًا بالقول المزوق، وباللفظ المزخرف، الذى يفتن به من لا يعرف حقيقة الأمر.

إن الله سبحانه وتعالى لو شاء لمنعهم من ذلك، لكنه سبحانه يتركهم اختبارًا

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٨.

(٢) سورة الأنعام ١١٢، ١١٣.

وابتلاء لترتفع درجة الصادقين بثباتهم على الحق، فدعهم وما يكذبون، دعهم وافتراءاتهم، فإن الله سيكفيكهم، وسينصرك عليهم.

ثم يقول سبحانه: ﴿ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أى إن هذا الباطل الذى يتعاون فى ابتكاره شياطين الإنس والجن، هذا الباطل ستميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿وليرضوه﴾ أى وسيقبلون عليه، يحبونه ويريدونه ﴿وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ أى وليعملوا ما هم عاملون.

وهكذا تبين الآيتان الكريمتان أن هناك فى الكون شياطين من الإنس والجن، يتعاونون فى إلباس الباطل ثوبًا مزوقًا، يزخرفون القول، ويتظاهرون بالعلم، ويدّعون أنهم على الحق، ويحاولون الأخذ بيد الناس إلى ما هم عليه من الضلال، إلا أن باطلهم هذا، لا يقبله أمثالهم من أصحاب القلوب المريضة، والفطر المنكوسة.

وفى الآيتين تحذير لكل مسلم من دعوة الضلال، ومن فكر الأبالسة الذين يزينون القول، ويبهرجون المنطق[(١)].

على كل مسلم أن يحذر، فليس كل فكر يقبل، وليس كل كلام مفيدًا.

إن الله قال عن طائفة من الناس:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾[(٢)].

رفضوا أن يكون الإفساد صفة لهم فأثبته الله عليهم!

ووصفوا الصالحين بالسفه، فسجل الله السفه وصفًا لهم!

* * *

وفى آية أخرى يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ

(١) راجع تفسير ابن كثير ٢/ ١٦٦.

(٢) سورة البقرة الآيات ١١ ـ ١٣.

لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[١].

إن أتباع الشياطين تلقنهم شياطينهم الكثير من الأباطيل، يجادلون بها، ويلبسون الباطل ثوب الحق فى إشهارها. ومن اتبع هؤلاء الضلال فقد أشرك فإن الحكم والأمر والنهى إنما هو لله وحده، ومن اتبع غير حكم الله فقد أشرك[٢].

وها هو المختار بن أبى عبيد الثقفى[٣]، الكذّاب الذى ادعى النبوة، ها هو يدّعى أنه يوحى إليه، ويَبْلُغ ذلك بعض الصحابة الكرام، فيصدقون أنه يُوحى إليه، لكنه يوحى إليه من الشياطين، ويقرءون هذه الآية: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾.

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر أنه قيل له: إن المختار الثقفى يزعم أنه يوحى إليه. فقال ابن عمر: صدق، ثم تلا هذه الآية: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾[٤].

وأخرج ابن أبى حاتم أيضًا عن أبى زميل قال: كنت قاعدًا عند ابن عباس، وحج المختار بن أبى عبيد، فجاء رجل فقال: يا ابن عباس، زعم أبو إسحاق أنه أوحى إليه الليلة، فقال ابن عباس: صدق. فنفرت، وقلت: يقول ابن عباس: صدق!؟ فقال ابن عباس: هما وحيان، وحى الله، ووحى الشيطان، فوحى الله تعالى إلى محمد ﷺ، ووحى الشيطان إلى أوليائهم، ثم قرأ: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾[٥].

إن ابن عمر وابن عباس لم يستغربا أن يوحى إلى هذا الكذاب، إلا أنه يوحى إليه من الشياطين، ونحن أيضًا لا نستغرب أن يدعى بعض منكرى السنة، أنه نبى!! لقد ادعى أحدهم أنه نبى، وكان اسمه الأول «محمد» فحذفه، وتسمّى بالاسم الثانى والثالث، وحينما زاره شخص آخر من منكرى السنة، اختلفا فى ادعاء النبوة، ولدىّ خطاب أرسله مدعى النبوة هذا إلى عدد من علماء الأزهر

(١) سورة الأنعام الآية ١٢١.

(٢) راجع تفسير ابن كثير ٢/ ١٧٠.

(٣) ترجمته فى سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٣٨.

(٤، ٥) تفسير ابن أبى حاتم ٤/ ١٣٧٩ رقم ٧٨٤٠، ٧٨٤١.

يهددهم بحلول نقمته عليهم إن لم يسلموا له بما ادعاه، ولقد رحل عن الدنيا على ضلاله هذا، نسأل الله حسن الختام.

كما أننا لا نستغرب أن يدعى أحدهم أنه وحده القادر على تفسير القرآن الكريم!! فلقد ادعى أحدهم، وهو حاصل على دكتوراه فى الدراسات الاقتصادية، ادعى أنه ليس فى طوق رسول الله ﷺ أن يفسر القرآن، ولا فى طوق أبى بكر وعمر، ولا فى طوق الطبرى والقرطبى، ولا فى طوق ابن كثير والآلوسى، ليس فى طوق هؤلاء وأمثالهم تفسير القرآن، وإنما هو وحده الذى يفسر القرآن الكريم!.

كما أننا لا نستغرب أن يدعو بعضهم إلى ترك هَدْى رسول الله ﷺ.

إننا لا نستغرب من كل ذلك، فلقد أعلمنا ربنا ذلك فى كتابه، فلا نستغرب وإنما نحتاط ونحذر.

* * *

ويقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[1].

والمعنى: إن الأنبياء والمرسلين يدعون الناس إلى صراط الله، وإن الشياطين تعارض ذلك، فيدعون الناس إلى الضلال والردى، ولا يقبل ما تلقيه الشياطين إلا المنافقون أصحاب القلوب المريضة، والكافرون أصحاب القلوب القاسية. أما أهل الإيمان فيعلمون أن ما جاءهم به الرسول فإنما هو الحق، فيؤمنون به، وتطمئن له قلوبهم، والله يوفقهم إلى الصراط المستقيم.

وهكذا تبين الآية بجلاء أن الشياطين أعداء الرسل، وأعداء الدين الحق، وأعداء الدعاة إلى الله تعالى، يعارضون دعوتهم، ويحاولون صرف الناس عنهم،

(١) سورة الحج ٥٢، ٥٣.

فيستجيب لهم المنافقون والكفار، ويقبلون ضلالهم. أما المؤمنون فهم المتبعون لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

ويقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

يقول الحافظ ابن كثير - فى تفسير الآية وما بعدها - نزلت هذه الآيات الكريمات فى المسارعين فى الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ أى أظهروا الإيمان بألسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون ﴿ومن الذين هادوا﴾ أعداء الإسلام وأهله، وهؤلاء كلهم ﴿سمّاعون للكذب﴾ أى: مستجيبون له، منفعلون به ﴿سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ أى: يستجيبون لأقوام آخرين، لا يأتون مجلسك يا محمد. أو أنهم يستمعون الكلام، وينهونه إلى قوم آخرين، ممن لا يحضر عندك من أعدائك ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ أى: يتأوّلونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون (٢).

تخبر الآيات الكريمات عن وجود أناس يقولون آمنّا، لكنهم يقولون ذلك بأفواهم، أما قلوبهم فلم تؤمن. هؤلاء يحذر القرآن منهم، فهم لا يفهمون كلام الله بقلوب خاشعة، وأفكار متزنة، وإنما دفعهم نفاقهم إلى تأوّل كلام الله على غير حقيقته، وأدّت بهم قساوة قلوبهم إلى حمل كلام الله على ما تميل إليه طباعهم السقيمة.

أناس يحرصون على حمل الآيات القرآنية على غير معناها، همّهم التضليل،

(١) سورة المائدة الآية ٤١.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٨.

وغايتهم صرف الناس عن الإيمان بالله تعالى.

إنهم أناس قلوبهم مريضة، يُظهرون غير ما يبطنون، يبذلون الحيل لإقناع الناس بباطلهم، ويتلوّنون لإضفاء القبول على باطلهم، يجتهدون فى إذاعة أفكارهم، ويداومون على معاداة الحق الناطق بعكس ضلالتهم.

وحسبنا أن الله تعالى عَرّف بهم، وحذّر من طريقهم، ويكرر المسلم فاتحة القرآن الكريم فى كل ركعة، داعيًا ربه جل جلاله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

إنه بقراءة هاتين الآيتين يقرر أن هناك طرقًا متعددة، منها ﴿الصراط المستقيم﴾ أى: الطريق القويم، وهو طريق الذين أنعم الله عليهم، ورضى عنهم. وهناك طرق أخرى تختلف عنه تمامًا، إنها طرق المغضوب عليهم، والضالين؛ أما المغضوب عليهم فهم الذين يعرفون الحق ويبتعدون عنه، وأما الضالون فهم الذين لا يعرفون الحق ولا يتبعونه.

إن وجود هاتين الآيتين فى سورة الفاتحة، التى تقرأ فى كل ركعة، دليل على أهمية أن يعرف المسلم أن الطرق متعددة، والطريق السليم منها هو طريق المرسلين، طريق الصالحين، أما غير هذا الطريق فإنها ليست موصلة إلى رضوان الله، وإنما غضب الله وسخطه على من سلكها.

ومن هنا فلا غرابة أن يظهر أناس ينكرون السنة النبوية، إن العيب فيهم، والداء فى قلوبهم، وقد عرّفنا اللهُ بهم. إنهم يعادون الحق، ويكرهون الصدق، ومن هنا يعادون القرآن والسنة. ويكرهون طرق المؤمنين، ويبغضون عباد الله الصالحين.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[1] إن سبيل المؤمنين واضح، كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ومن بعدهم استقام عليه التابعون، والأمة خلفًا بعد سلف، فمن حاد عن هذا الطريق كبه الله فى النار، وأصلاه جهنم وبئس القرار.

(١) سورة النساء الآية: ١١٥.

• الرسول ﷺ يخبر عن منكرى السنة:

ومن ضلال هؤلاء المنحرفين عن صراط الله المستقيم إنكار السنة النبوية، وهؤلاء أخبر رسول الله ﷺ أنهم سيظهرون، وحذّر منهم:

* فعن أبى رافع عن النبى ﷺ قال: «لا أُلْفِيَنَّ أحدكم متكئًا على أريكته، يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا ندرى، ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه»[(١)].

وقوله ﷺ: «لا أُلفين» أى لا أجدن. وهذا نهى عن تلك الحالة على سبيل المبالغة. و «أريكته» أى سريره المزين بأنواع الزينات، وفيه إشارة إلى أن إنكار الحديث إنما يأتى من المترفين، وهؤلاء شأنهم حب الشهوات، وعدم المبالاة بأحكام الشريعة، وشأنهم أيضًا عدم الاهتمام بالعلم.

إنه ﷺ ينهى عن هذه الحالة، يعنى حالة عدم قبول السنة، وترك العمل بها، ينهى عن هذه الحالة نهيًا شديدًا، واضحًا فيه الغضب منه ﷺ على من فعل هذا.

* وعن المقدام بن معد يكرب قال: «قال رسول الله ﷺ: ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عنى وهو متكئ على أريكته، فيقول بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حرامًا حرمناه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله»[(٢)].

إنه ﷺ يبين أنه سيظهر من ينكر السنة النبوية، ويتعلل بأنه يتبع القرآن، ثم يبين ﷺ بأن ما حرمه رسول الله حكمه حكم ما حرمه الله، فإنه ﷺ ما حرمه إلا بأمر الله سبحانه وتعالى، وكذلك ما أحله، فإنه ما أحله إلا بأمر الله تعالى،

---

(١) أخرجه الشافعى فى الرسالة ص٨٩ فقرة ٢٩٥ طبعة دار التراث تحقيق شاكر. وأخرجه أبو داود فى السنة باب فى لزوم السنة ٣٥٦/١٢، وأخرجه الترمذى فى العلم باب ما نُهى عنه أن يقال عند حديث رسول الله ﷺ ٤٢٤/٧، وأخرجه ابن حبان فى المقدمة باب الاعتصام بالسنة ١٩٠/١، وأخرجه الحاكم ١٠٨/١، والخطيب فى الفقيه ٢٦٢/١، والآجرى فى الشريعة ١٧٧/١ - ١٧٩، وابن عبد البر فى التمهيد فى شرح أول حديث لإسماعيل بن أبى حكيم ١٥٠/١.

(٢) أخرجه الأئمة فى تخريج الحديث السابق.

اكتفى بذكر أحد المتقابلين عن الآخر.

إن إخباره ﷺ بهذه الحال عَلَمٌ من أعلام نبوته، ودليل من أدلة وحى الله إليه وعصمته.

ولذا يورد البيهقى هذين الحديثين فى كتابه «دلائل النبوة» تحت عنوان «باب ما جاء فى إخباره بشبعان على أريكته يحتال فى رد سنته بالحوالة على ما فى القرآن من الحلال والحرام دون السنة فكان كما أخبر، وبه ابتدع من ابتدع، وظهر الضرر»[١].

* وعن جابر بن سمرة قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن بين يدى الساعة كذابين فاحذروهم»[٢].

* وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينبعث دجّالون كذابون، قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله»[٣].

إنه ﷺ يصفهم وصفًا فى غاية الدقة فهم:

١ ـ مترفون منعمون، تأتيهم الأموال من جهات متعددة.

٢ ـ دجالون كذابون، وهذا واضح فى كتاباتهم وأقوالهم، وسأوضح ذلك إن شاء الله تعالى من واقع دراساتى عنهم ومناقشاتى لهم.

٣ ـ يزعم كل منهم أنه رسول الله، يصرح بعضهم بهذا، ومقالات بعض آخر تفيد هذا بكل وضوح.

لقد بيّن لنا ﷺ ووضح، فوصفهم، فكانوا كما وصف، وحذرناهم فوجب علينا أن نحذرهم.

* * *

(١) جـ٦ ص٥٤٩.

(٢) أخرجه مسلم فى الإمارة الباب الأول ٣/ ١٤٥٣، ١٤٥٤ رقم ١٠.

(٣) أخرجه مسلم فى الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ٤/ ٢٢٣٩، ٢٢٤٠ رقم ٨٤. وأحمد ٢/ ٤٢٩.

• السلف ومنكرى السنة:

ولقد تكلم السلف عن منكرى السنة، وأبانوا أنهم ضلال، وأنهم ليسوا على ملة الإسلام.

إنهم سيتركون الكثير من الدين، فسيتركون الصلاة وأحكامها، وسيعجزون عن امتثال أمر الله سبحانه ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ، وسيهجرون الكثير مما هو معلوم من الدين بالضرورة.

يقول أيوب السختيانى[1]: إذا حدثت الرجل بالسُّنَّة فقال: دعنا من هذا، وحدثنا من القرآن، فاعلم أنه ضالٌّ مُضِلٌّ[2].

قال الأوزاعى[3] ـ معلقًا على كلام أيوب السابق ـ: يقول الله تعالى: ﴿وما آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ و ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ويدعوه إلى تأويل القرآن برأيه[4]!

وعن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: «من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب»[5] إن رجم الزانى المتزوّج أمر ثبت بالسنة، ولقد أمر القرآن بالعمل بالسنة، فمن أنكر الرجم كفر.

وقال ابن حزم: ولو أن امرءًا قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا فى القرآن لكان كافرًا بإجماع الأمة[6].

ويقول عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ: «إن رسول الله ﷺ رجم، ورجم

---

(١) أيوب بن كيسان السختيانى إمام كبير من أئمة الإسلام الأوائل، رأى أنس بن مالك، وحفظ كثيرًا مع الدين والورع، قال عنه الإمام مالك: كان من العالمين العاملين الخاشعين توفى ١٣١ تهذيب التهذيب ١/ ٣٩٧.

(٢) الكفاية ص٤٩.

(٣) عبد الرحمن بن عمرو الشامى، شيخ الإمام مالك وشعبة والثورى فقيه الشام، ومن كبار المحدثين وكان أفضل أهل زمانه علمًا وعملاً. توفى ١٥٨ تهذيب التهذيب ٦/ ٢٤٠.

(٤) الكفاية ص٤٩.

(٥) أخرجه الحاكم فى الحدود باب من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن ٤/ ٣٥٩.

(٦) الإحكام ٢/ ٨٠.

أبو بكر، ورجمتُ، وسيكون قوم يكذبون بالرجم، والدجال، والحوض، والشفاعة، وبعذاب القبر، وبقوم يخرجون من النار»[1].

وهكذا يتضح أن الله تبارك وتعالى بيّن لنا أن للحق أعداءً، وأن للباطل دعاة!!

وبيّن رسول الله ﷺ أن من الناس من سيتنكّر لسنته ﷺ.

وثبت السلف على كتاب الله وسنة نبيه، وحكموا على من أنكر السنة بالخروج عن الملة، وتعجبوا منهم كيف لا يقبلون بيان القرآن من رسول الله ﷺ، ويقبلون بيانه من عند أنفسهم؟!!

* * *

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٣ وعبد الرزاق ١١/ ٤١٢، ٣/ ٥٨٨ والبيهقى فى البعث ص١٢٩.

معلوماتى عن منكرى السنة

ظهر فى هذه الآونة عدد من الحريصين على إنكار السنة، وعلى الرغم من قلتهم إلا أنهم يكتبون كثيرًا، ولقد حرصت على جمع معلومات عنهم، فكانت صورتهم كما يأتى:

١ ـ ليسوا من علماء الإسلام:

فليس هناك عالم من علماء الإسلام ينكر السنة، وإنما هم جميعًا يعرفون قدرها، ويعملون بها، أما منكرو السنة فإنهم ليسوا من علماء الإسلام، ولم نعرف لهم مؤلفات فى خدمة الدعوة الإسلامية، ولا فى أى فرع من فروع الدراسات الإسلامية.

بل إنهم بعيدون كل البعد عن ذلك، فمنهم من هو كاتب أمام محكمة، ومنهم مَنْ دراسته فى الهندسة، ومن دراسته فى التجارة، ومن دراسته فى الفلسفة، ومن يعمل بالقانون، ومن كان يعمل فى العسكر.

وباحترام التخصص فهؤلاء لا قيمة لرأيهم، بل الأحرى بهم أن لا يكتبوا، فإن كل علم يؤخذ من أهله، يعرف ذلك كل عاقل.

ويبدو أنهم يُختارون بعناية، بحيث تتوافر فيهم صفات تُعَمِّى على المسلم العامى، أو الذى لا يعرفهم. فهذا ابن شيخ كبير، وآخر شقيق داعية فاضل.

ويحملون ألقابًا تتفق مع ألقاب العلماء، فيكون أحدهم حاصلاً على دكتوراه فى علم غير علوم الإسلام، أو يحمل لقب أستاذ، فيلقب نفسه بـ«دكتور» أو «أستاذ» مما يجعل البعض يظن أنه يحمل الدكتوراه أو الأستاذية فى علوم الإسلام.

ولو أنصفت الجامعات لمنعت استعمال الألقاب العلمية إلا إذا كتب الأستاذ فى تخصصه.

وعليه فاستعمال «دكتور» أو «أستاذ» لا قيمة لها فى مؤلفاتهم، فإنهم كتبوا فى غير تخصصاتهم.

فكيف يقبل قول قسيس فى القرآن والسنة.

وكيف يقبل كلام مهندس لا يحفظ القرآن الكريم كيف يقبل قوله فى مسائل فى غاية الدقة فى الإسلام.

وكيف يقبل كلام رجل أمضى عمره فى خدمة القوانين، ولم يعرف عنه فى الإسلام علم ولا عمل كيف يقبل قوله حينما يعيب علماء الإسلام السابقين واللاحقين، إن عمله بالقانون لا علاقة له بالدراسات الإسلامية «اللهم إلا أنه زاده جرأة على الحق، وتعاليًا على الخلق، مع ما فيه من قدرة على الهمز واللمز. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

إن كتابة ألقاب كهذه نوع من التضليل، تنطق بكذبهم، وهى دليل كامل على افترائهم وتزويرهم.

وليت أحدهم حينما كتب «دكتور» أو «أستاذ» بجامعة كذا» كتب تخصصه ليعرف الناس تخصصه، وليعرف الناس أنه لا علاقة له بالتخصص فى العلوم الإسلامية.

إن الألقاب لا تؤهل فى حد ذاتها، فالأستاذ فى الهندسة لا يستطيع أن يفتح عيادة لاستقبال المرضى، ولو فعلها ما ذهب إليه عاقل، ولو ذهب إليه جاهل فإنه يضره ولا ينفعه.

إن أنظمة الدنيا لا تسمح بفتح عيادة لأستاذ فى الهندسة، ولا دكتور فى الاقتصاد، لكن لست أدرى كيف يتكلم هؤلاء فى دين الله!!

إن رجل القانون حسبه القانون، أما أن يذهب فيكتب فى دين الله، ويعيب الأئمة الأعلام فهذا ضلال، وبُعد عن الفكر السليم، والمنهج القويم.

وفى هذه الأيام ظهرت ألقاب لا أصل لها، قصد بها التعمية على المسلمين مثل «الكاتب الإسلامى» و «المفكر الإسلامى» وهذه ليست مستندًا يؤهل للكتابة فى أمور الدين.

أما لقب «صحفى» فتطاول به البعض لينتقد الصحابة الأخيار، والأئمة الأبرار، فتحت ستار عنوان «كاتب صحفى» ينتقد أحدهم أئمة الإسلام الأجلاء، أمثال الإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل. ولست أدرى كيف صار لقب «كاتب

صحفى» مؤهلاً لأن ينصب صاحبه ناقداً وحكمًا على فكر الأئمة الأخيار، فيعترض على هذا، ويعيب هذا، بل غالى أحدهم فعاب الأمة بأسرها، وانتقد أهل السنة والجماعة!!

ألا ليت كل إنسان يعرف قدره، ويخاف سيئاته ووزره!!

٢ ـ فى كتاباتهم تلبيس على غير المتخصص فى السنة:

فيوهمون القارئ بأنهم سيتبعون «الأسلوب العلمى» و «الفكر الحر» و «النظر الثاقب» و «تحرير المسائل» و «التدقيق فى كل أمر» و «الحيدة» و «النزاهة» إلى غير ذلك من الكلمات البراقة، والتى توهم القارئ أنهم سيحققون فى المسائل تحقيقًا لم يسبقهم إليه أحد.

وإنك لتعجب حينما تسمع لحامل دكتوراه فى علوم التجارة يتحدث أنه لا يستطيع رسول الله ﷺ أنْ يفسر القرآن، ولا أبو بكر الصديق، ولا عمر الفاروق، ولا الطبرى، ولا ابن كثير.

وإنما هذا الدكتور وحده هو الذى يستطيع أن يفسر القرآن الكريم.

سبحان الله!!

هل هذا فكر؟ هل هذا احترام التخصص؟

بل هل هذا عقل؟

أَرَجُلِ التجارة يفسر القرآن ورسول الله ﷺ لا يفسره؟

وفى هذه الأيام ظهر نوع آخر من التلبيس، فيستعملون النظريات التى درسوها فى كتاباتهم لتكون فوق أسلوب القارئ فيظن أنهم من العلماء، وأن تفسيرهم للقرآن برأيهم له قيمته.

إلا أن هذا التلبيس وهذا الخداع لا ينطلى على من درس السنة النبوية، فإنه بادئ ذى بدء يتجلى له زيف كلامهم، وباطل مدعاهم.

٣ ـ شبهاتهم مزورة:

إن أعداء الإسلام قديمًا قد افتروا وكذبوا على الإسلام، فجاء منكرو السنة المعاصرون فأخذوا أقوال أعداء الإسلام السابقين، وراحوا يرددونها على أنها

طعنات للإسلام عامة، وللسنة خاصة، وينسبونها لأنفسهم زوراً.

يدرك ذلك من قرأ كتاب «الرسالة» للإمام الشافعى، والذى أجاب فيه على فرية إنكار السنة، والتى كانت قد ظهرت بمصر كجزء من الحملة المعادية للإسلام.

إن الفرية هى هى يرددها المعاصرون من منكرى السنة لم تتغير منذ زمن الشافعى والذى عاش فى القرن الثانى الهجرى وتوفى ٢٠٤هـ. ومن راجع الكتاب عرف الجواب.

ومن مصادر افتراءاتهم أيضًا أن يقرؤا كتب أئمة الإسلام، فإذا صور الأئمة إشكالاً وأجابوا عليه أخذ هؤلاء الإشكال وردده فى كتبهم، وقد تنكروا للجواب.

ومن زورهم أنهم يكذبون فى إيراد الحقائق، قرأت لأحدهم خبرًا نقله من كتاب الإحكام لابن حزم مفاده أن عمر بن الخطاب حبس ابن مسعود وأبا موسى وأبا الدرداء فى المدينة على الإكثار من الحديث، فلما راجعت الإحكام جـ٢ ص٢٤٩، ٢٥٠ طبعة العاصمة وجدت عجبًا، وجدت ابن حزم ذكر الخبر وحكم عليه بالكذب، فإذ بِعَدِّو السنة يأخذه ليستدل به[١]!! وهذا يدل على أنهم يتعمدون الكذب فى سبيل بلوغ غايتهم!!

٤ ـ افتراءاتهم لا تنطلى إلا على السذج:

وافتراءات أعداء السنة هزيلة، تزول بقراءة موضوعها فى كتب السنة، شأنها شأن الافتراءات على الإسلام عمومًا، فإنها لا تقبل إلا عند من ليست عنده دراية، ولا فطانة.

أما الدارسون للإسلام، أو حتى مَنْ عندهم ذكاء ودربة فكرية فإن افتراءات أعداء الإسلام لا تجد عندهم قبولاً.

فمثلاً:

يكثرون الكلام عن كتابة السنة، ويقولون إنها لم تدوّن إلا على رأس المائة الأولى وإن علمًا ظل مائة عام بدون كتابة لا بد أن يدخله الزيادة والنقص.

---

(١) فصلت القول فى هذا فى بحث نشر فى مجلة منبر الإسلام العدد ١١ لسنة ٤٥ ١١/١٤٠٧ـ ٧/ ١٩٨٧ ص٤١ العمود الأول.

هذا كلام ينطلى على من ليس عنده دراية بتاريخ السنة، وليس عنده دربة فكرية.

أما من عنده مجرد دربة فكرية فإنه لا يقبل إذ يقول بادئ ذى بدء: إن السنة النبوية مصدر الإسلام مع القرآن الكريم فلا بد أن تحافظ عليها الأمة، وأمة الإسلام بحمد الله كثيرة، والحفظ كان قويًا فلا بد أن السنة وجدت من يحفظها ويصونها، ومحال أن تفرط الأمة فى مصدر دينها.

أما الدارس لتاريخ السنة فيقول: نعم إن السنة لم تدون إلا على رأس المائة الأولى الهجرية إلا أن هذا لا يفيد أنها لم تكتب طيلة هذا القرن، فالتدوين شيء والكتابة شيء آخر.

فالتدوين: ترتيب المعلومات، بمعنى أن ترتب الأحاديث على موضوعاتها أو بحسب الراوى الأعلى، وكل ديوان فمعناه الكتاب الذى رتبت مادته.

أما الكتابة فهى: مطلق خط الشيء[1].

وعليه فقول العلماء: إن السنة لم تدون إلا على رأس المائة الأولى. معناه أنه لم تظهر الكتب المرتبة، والمراجع المصنفة.

أما مطلق الكتابة يعنى دون ترتيب على الأبواب فهذا موجود ومتوفر للسنة فى مجالس رسول الله ﷺ. فلقد كتب ﷺ كتبًا وأرسلها إلى حكام البلاد المجاورة. وكتب كتبًا لعمّاله بيّن فيها الكثير من الأحكام. وكتب الصحابة أمامه وأقرهم ﷺ، وأمر بالكتابة لبعضهم.

إن افتراءهم هذا يزول سريعًا أمام التعقل أو العلم، كما أن النور يزيل الظلام، والشمس تملأ الوجود ضياء.

٥ ـ منهجهم مختل:

لاحظت كثيرًا على أعداء السنة اختلال منهجهم، واعوجاج خطهم:

* فتجدهم يطلبون الشيء من غير بابه، يدرسون الإسلام من كتب أعداء

---

(١) راجع كتابى «السنة النبوية مكانتها وعوامل بقائها وتدوينها» راجع فيه باب «كتابة السنة وتدوينها وتصنيفها» ص٩٣ فقد أعطيت هذا الموضوع شيئًا من حقه.

الإسلام!!

إن دراسة الشيء كلما اقتربت من مصدره عظمت ووثق بها، وكلما بعدت ضعفت وقلت الثقة بها. فمن أراد دراسة الإسلام فعليه بالقرآن والسنة وعلومهم، فالقرآن فى قراءته يؤخذ من أهل الدراية بقراءات القرآن، وفى فهمه من علماء التفسير، الذين جمعوا علومًا متعددة حتى استطاعوا أن يفسروا القرآن الكريم. والسنة تؤخذ من علمائها، إنْ دراية: فمن علماء الدراية الذين يعرفون كلمات كل حديث، بل وحروف كل حديث، وإنْ رواية: فمن علماء الرواية الذين يعرفون روايات كل حديث، ومعنى كل حديث، وما يستفاد من الحديث.

هذا هو المنهج السليم، أما أعداء السنة فهم عكس ذلك تمامًا، لا يقرؤن كتب أئمة الإسلام، وإنما يقرؤن الإسلام من خلال كتب أعدائه!!

* وتجد فكر الواحد منهم فى أول الكتاب يختلف عنه فى آخر الكتاب، قرأت كتابًا لأحدهم ففى أول الكتاب أنكر السنة تمامًا، وفى وسط الكتاب يثنى على أئمة السنة ويعترف بقدرهم!!

* أما دراسة المسائل فحدث عن اعتلال منهجهم فيها ولا حرج.

فيقولون: هذا خاص بنساء النبى. ولا دليل لهم على الخصوصية.

ويخصصون آية بدون مخصص.

ويخطئون فى فهم النصوص.

وينكرون حجية الإجماع.

ويفترون العلل للآيات، لتفسر فى ضوء ما افتروه.

يعلقون الحكم على شيء، ثم يلغون المعلق عليه.

يتضح هذا كثيرًا لمن قرأ كتبهم.

* وجهلهم بأصول الكتابة والتأليف واضح، فيقتبسون من تعليق ويعزون إلى الكتاب الأصل.

ويسوقون الدعوى والدليل، إلا أن الدليل لا يؤيد الدعوى!!

ويسوقون الدعوى، ولا دليل!!

ويسوقون الدعوى والدليل ضدها!!

* والخروج عن وقار العلم شائع فيهم، فما بين تجريح ودس، وما بين وقيعة وخبث.

لا يعرفون أدب طالب العلم ولا أخلاق العلماء، بل إن بينهم وبين ذلك بونًا شاسعًا.

٦ ـ ليسوا طلاب حق:

أعداء السنة ليسوا طلاب حق، وإنما هم مقيمون على عداء السنة والكيد لأهلها. يرددون فكرهم كأنهم ببغاوات، مهما أقمت لهم من حجج وبراهين لا يقبلون. جُنِّدوا لذلك وعليه حريصون. ناقشت أحدهم رجاء أن يتضح له الحق، لكنه على الرغم من وضوح الحق باعتراف الحاضرين لم يُسَلِّم، وإنما أصر على باطله، وظهر منه أنه لا يستطيع إلا ذلك فأعرضت عنه.

يجعلون فكرهم هو الأساس وله تطوى كل الحقائق. وتقصف أعناق النصوص.

فإذا كان المجال مجال لغة لا يهمه ماذا تقول كتب اللغة، وإنما المهم أن يفسر الشيء حسبما يقتضيه فكره.

وإذا كان المجال مجال حكم شرعى فليس يعنيه أن يرجع إلى كتب الفقه، وإنما يعنيه أول ما يعنيه أن يفرض باطله وإن خالف الكثير من النصوص. وهذا واضح مما سبق أن سقته، وسيتضح من المبحث الآتى.

• جرءاء على القرآن الكريم:

ومنكرو السنة يتسترون بعباءة القرآن، إنهم أعداء الإسلام وأهله، والساعون فى هدمه ونقضه، لكنهم لا يهدمونه جهارًا، وإنما تحت ستار، حتى لا يشعر المسلمون ولا ينتبهوا!! ولقد اتخذوا لأنفسهم شعار «القرآنيون» يوهمون الناس أنهم يريدون العمل بالقرآن فقط، وأنه الكتاب الكافى للأمة فى دينها ودنياها، ويتظاهرون بأنهم يعلون شأن القرآن، لكننا حينما نقرأ لهم، أو نحاورهم نجد عكس ذلك تمامًا، فهم لا يريدون العمل بالقرآن، وإنما يريدون الاستتار بهذا الاسم «القرآنيون» حتى

يقبل المسلمون كلامهم، إنهم لا يقبلون العمل بالقرآن، وإنما يحرصون على إبعاد الأمة عن القرآن!!

يأمرهم ربنا فى القرآن الكريم باتباع رسوله ﷺ فى كثير من الآيات[١] فلا يتبعونه!!

ويأمرهم سبحانه فى القرآن الكريم بطاعة رسوله ﷺ[٢] فلا يطيعونه!!

يتكلمون عن القرآن الكريم كلام العدو الماكر، ينتقصون قدره! وينالون من مكانته! يتحدث أحدهم عن القرآن الكريم فيقول: وكلام القرآن تحصيل حاصل... يدور بنا فى حلقة مفرغة.

ولو قيلت كلمة من هاتين الكلمتين له لاشتاط غضبًا، ولامتلأ غيظًا، لكنه يقبل أن يقول هذا على كلام الله سبحانه وتعالى، وأنصاره ورفاقه يؤيدونه فى هذا، ويدعون أنهم «قرآنيون»!!

ولست أريد أن أكثر من هذا القبيل، فالكتابة فيه ثقيلة على النفس.

ونوع آخر من الجرأة، وهو أنهم يفسرون آيات القرآن الكريم، تفسيرًا يخرجها عن معناها تمامًا، دون الالتزام بقواعد التفسير، وأصول الفكر الإسلامى.

وأسوق لذلك مثالين من جرءتهم فى تفسير القرآن الكريم:

المثال الأول:

فى قول الله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾[٣] قال علماء الأمة على مدى تاريخها منذ نزول هذه الآية إلى الآن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ـ إن الولد يرث ضعف البنت، هذا حكم الله فلا محيد عنه، وقالوا إن الله سبحانه وتعالى أعطى الولد ضعف البنت لما عليه من مسئوليات تجاه الكثيرين من أم وأخوات، وخالات، وعمات.

وجاء منكرو السنة فعارضوا هذا تمامًا، يقول أحدهم: إن الذكرَ يرث ٦٦,٦

(١) راجع ص ٨ وراجع كتاب «المدخل إلى السنة النبوية» ص ٧٧.

(٢) راجع ص ٩ وراجع كتاب «المدخل إلى السنة النبوية» ص ٨٠.

(٣) سورة النساء الآية ١١.

بحد أقصى وإن الأنثى ترث ٣,٣٣ بحد أدنى.

وواضح من كلامه أن يحكم هواه فى تفسير الآية، فيضع من أفكاره فى جانب الولد بحد أقصى، وفى جانب البنت بحد أدنى، هذا من عنده هو، وهو تحكم على الآية، فالآية، ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ ليس فيها حد أقصى فى جانب الولد، ولا حد أدنى فى جانب البنت!!

ثم راح هذا المؤلف يقول: ويجوز لنا أن نقربهما من بعضهما، فلو أعطينا الذكر ٦٠٪ والبنت ٤٠٪ فهذا جائز.

وأقول له: لا، ليس هذا بجائز، فإننا لو أخذنا بفهمك هذا يكون قد أخذ ثلاثة أخماس والبنت أخذت الخُمُسَيْن وهذا غير ما فى الآية تمامًا.

إن الملاحظ أنه يريد البعد عن الآية بكل حيلة، ويريد إبطال القرآن بكل وسيلة، ويدّعون أنهم «قرآنيون»!!

إنهم بذلك يخالفون القرآن مخالفة صريحة، ويجعلون هواهم حكَمًا على القرآن الكريم، إنهم بذلك صيّروا هواهم المصدر الأعلى للدين!!

إن رسول الله ﷺ طبق الآية كما هى، فأعطى الولد مثل البنتين، وسار على هذا الصحابة، ومن بعدهم جيلاً بعد جيل، ولا يعرف لأحد ممن يعتد بقوله ـ قول بغير هذا ـ حتى جاء منكرو السنة من أهل زماننا فافتروا هذه الفرية.

المثال الثانى:

وآخر منهم يقول نترك هذه الآية: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ [١] ونأخذ بالآية الأخرى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [٢].

يقول هذا الكاتب: فَنسوِّى بين الذكر والأنثى فى الميراث.

إنّه يُعْمِل آية ويترك الآيات التى بينتها، فالآية السابقة ﴿للرجال نصيب...﴾ وهى الآية السابعة من سورة النساء ذكرت إجمالاً أن الرجال يرثون، وأن النساء

(١) سورة النساء الآية ١١.

(٢) سورة النساء الآية ٧.

يرثن، ثم جاءت الآيتان الحادية عشرة، والثانية عشرة ففصلت هذا الميراث:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ...﴾.

فلا يعقل أن نُعْمِل الآية المجملة، ونترك الآيات المفصلة لها.

إن الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة حددتا الأنصبة بدقة، وبشروط، فكيف نعرض عنها إلى الآية التى أثبتت أصل الميراث؟

أى فهم هذا؟

إنه على قول هذا المنكر للسنة، المحرف للقرآن عن مواضعه، المتبع غير سبيل المؤمنين، إنه على قوله باتباع الآية ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ فى الميراث دون بقية الآيات يصبح كل الرجال من الأبناء والأقارب وكل النساء من البنات والأقارب يصبح الجميع سواسية فى الميراث من الأبوين والأقربين، فإذا مات الرجل ورثه أبناؤه، وأبناء أخيه، وأبناء أخته، كل على درجة سواء، كما أن المرأة إذا ماتت ورثها أولادها، وأولاد أخيها، وأولاد أختها، كل على درجة سواء.

إنه على قول هذا ترث البنت من أمها كما يرث خالها، وكما ترث خالتها، وكما ترث بنت خالتها، الجميع على درجة سواء، فهل هذا يعقل؟!

هل يعقل حينما نورث تركة سيدة ماتت أن نعطى ابنتها نصيبًا يعادل النصيب الذى نعطيه لبنت أخت المتوفاة؟!

وهل يعقل حينما نوزع تركة رجل توفى أن نعطى ابنته مثلما نعطى بنت أخته؟!

إن القرآن الكريم قد بيّن الورثة، ونصيب كل وارث، وورث رسول الله ﷺ، ونحن وسلف الأمة من قبلنا نسير كما جاء الميراث فى القرآن والسنة، ملتزمين بهذا الحق، مؤمنين بأن غيره هو الضلال.

إن هؤلاء فيهم من الجرأة على القرآن ما به يخرجون القرآن عن دائرة الاقتداء الحق، وصدق العمل به!!

وجرءاء على السنة النبوية حتى إنهم يتنكرون لها!!

وجرءاء على المنهج الذى سلكته الأمة وعاشته أربعة عشر قرنًا!!

والعجيب أنهم يسمون أنفسهم «القرآنيون».

والذى أحب التركيز عليه أن لا ينخدع المسلم بهذه التسمية، وأن يعلم حقيقتهم حتى يعرفهم، وأنهم ليسوا على الحق.

• ينكرون علومًا بكاملها:

من عجيب أمر منكرى السنة أنهم ينكرون علومًا بكاملها!!

فينكرون علم القراءات، فإذا حدثتهم عن قاعدة من قواعد هذا العلم أنكروها، ووجدوا كلامًا يغالطون به! سبحان الله! عندهم قدرة على الجدل والسفسطة وإنكار العقول فاقت المحتمل.

قرأ أحدهم أمامى بعض آيات من القرآن الكريم فأخطأ فيها، فصوبت له، فوجدته يعيب على المسلمين وضع علم كامل لقراءة القرآن الكريم، وكيف أنهم يقعدون لنطق لفظ الجلالة ﴿الله﴾ وأنه إذا جاء قبله حرف مكسور فإنه يرقق، أما غير ذلك فيفخم، ففى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يرقق لفظ الجلالة ﴿الله﴾ لأن الميم قبله مكسورة. أما فى ﴿الله لا إله إلا هو﴾ فلفظ الجلالة يفخم لأنه بداية كلام. وفى ﴿هو الله الذى لا إله إلا هو﴾ فيفخم لفظ الجلالة لأنه سبقه حرف مفتوح، هذه قاعدة عند علماء القرآن الكريم، إلا أن منكرى السنة لا يعترفون بهذا.

وينكرون الكثير من قواعد علم النحو: ينكر أحدهم أن يقتضى العطف[1] المغايرة، ينكر هذا تمامًا، ولست أدرى إذا قلنا: جاء محمد وعلى. أليس محمد غير على؟ إن أى عاقل يحكم بالمغايرة. وإذا قلت: أكلت بطيخًا وعنبًا. أليس البطيخ غير العنب؟ بدهى الأول غير الثانى فى المثالين. لكنهم ينكرون البدهيات!!

إن هذه العلوم قد أقرتها الأمة، وحُقِّقت ودُرِست بكل عناية ودقة، فلا يليق بمن يحترم عقله أن يتنكر لها.

ولقد اتضح لى أن من مبادئهم إنكار ما يعارضهم، ولقد كان هذا واردًا بعد معرفة أهدافهم، فهم يريدون إنكار السنة لهدم الإسلام، فتنكروا لكل ما يثبت السنة. ولكل ما يخدم الإسلام هذا وارد منهم، أما إنكار ما يجهلون فهذا الذى زاد عن الحد، فكم من علوم يجهلها المتخصص، لكنه لا ينكرها، بل بدافع التخصص واحترامه الفكر البشرى، فإنه يحترمها، ويستفيد بها، أما هؤلاء فإنهم يتنكرون للعلوم التى يجهلونها، وبخاصة العلوم الإسلامية!!

إنهم ينكرون ما يجهلون، وتبقى بقية قد تعلموا أساليب معينة لقلب الحقائق فيها، وتشويه صورتها. وهكذا يهدمون الإسلام هكذا يتصورون. والإسلام أقوى من كل من عاداه، وهو دين محفوظ بحفظ الله، يهيئ الله له أهلاً يتمسكون به، ويدافعون عنه، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

٧ ـ مصادر بحوثهم مصطنعة:

ومنكرو السنة يكتبون ويضعون لكتاباتهم مصادر، إلا أنه يلاحظ أن مصادرهم لا تُوَثِّق بحوثهم بل تشهد بخطئها:

* فما قيمة كتاب يأخذون منه ويعتبرونه مصدرًا لدراساتهم الإسلامية بينما مؤلف هذا الكتاب غير مسلم؟!!

ما قيمة كتاب كتبه عدو للإسلام؟

ما قيمة كتاب كتبه إنسان لا يعرف الإنصاف؟

---

(١) العطف: كلمة عند علماء النحو ويقصدون بها جمع شىء إلى شىء، مثل جاء محمد وعلى، فعلىّ معطوف على محمد، أى أنك جمعت عليًا مع محمد فى المجىء.

* إن مصادرهم الكثير منها المستشرقون، والنصارى، واليهود.

* وكثير منها لفرق تحسب على الإسلام ظلمًا.

* وكثير لمؤلفين معروفين بالضلال والزيغ.

ومنكرو السنة فى هذه الآونة جعلوا من أنفسهم مصادر لهم، فهذا يأخذ عن هذا وهذا وهذا، وذاك يأخذ عن هذا وهذا وهذا. وهكذا يؤيد كل منهم كلامه بكلام مثاله، وهم جميعًا لا قيمة لكلامهم من المنظور الشرعى، فليس كل من تكلم يقبل كلامه، ولا كل من كتب يقبل كتابه، وإنما يقبل علم التقى الورع الملتزم بالقرآن والسنة الذى يشهد له علماء الأمة بالاستقامة والفضل قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[1].

* وإنى لأجد أكبر مصدر لهم لمستشرق معروف بعدائه الشديد للإسلام فأتعجب.

وأجد مصادر لهم مؤلفها ادعى النبوة فى زماننا هذا.

وأجد مصادر لهم مؤلفها حُكم بردته.

وكثير من مصادرهم حكم علماء الإسلام بضلال مؤلفيها.

وهم ـ منكرو السنة ـ يقبلون على هذه المصادر بكل حرص، مما أفقد مؤلفاتهم وزنها، وأبان عوار كتبهم وزيفها، وأظهر بطلان أفكارهم وضلالها.

* * *

(١) سورة الحجرات آية ٦.

الرد على شبههم

إن الكلام الذى يثرثر به أعداء السنة حول السنة ليس شُبَهًا عند المتخصصين فى دراسة السنة، وإنما هو شبه قد تنطلى على من لم يدرس السنة النبوية.

وهم يدندنون بهذا الكلام فى هذه الأيام معتمدين على قلة دراية الناس بسنة رسول الله ﷺ.

وأنا أورد هنا عددًا من شبههم على السنة عمومًا، وعددًا من شبههم على أحاديث معينة وأبين بفضل الله ضحالة هذه الشبه وزيفها، هادفًا من ذلك أن لا تنطلى على القارئ بعد ذلك أى شبهة، إذ تتربى عنده ملكة، يتحصن بها فكره ضد الشبهات.

فمن ذلك:

الشبه العامة

الشبهة الأولى: القرآن يستغنى به عن السنة

هذه الشبهة تنطلى على الكثيرين، لما للقرآن الكريم من منزلة فى نفوس الناس، فيُكثر أعداء السنة من القول بأن القرآن كافٍ، وافٍ، شافٍ، وأنهم ليسوا بحاجة للسنة، ويدللون على ذلك بقول الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ﴾ [١]، وقوله عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [٢].

الرد: وأقول لهم كيف يُسْتغنى بالقرآن عن السنة وقد قال الله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [٣]؟ أى قدوة حسنة.

كيف يُسْتغنى بالقرآن عن السنة، وفى القرآن من المجمل ما يحتم أن يكون بيانه من السنة؟:

---

(١) سورة الأنعام آية ٣٨.

(٢) سورة النحل آية ٨٩.

(٣) سورة الأحزاب آية ٢١.

ففيه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [(١)].

وفيه: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [(٢)].

وفيه: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ...﴾ [(٣)].

وفيه: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [(٤)].

وفيه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [(٥)].

فى القرآن الكريم كلام من عدة أوجه عن الصلاة، صلاة الأمن، وصلاة الخوف، وفيه الحديث عن القبلة والاتجاه إلى البيت الحرام، وفيه الكلام عن المساجد وعمارتها، وأنها لعبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [(٦)].

وفيه الأمر بالمحافظة على الصلاة فى أوقاتها: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [(٧)].

وفيه الحث على الخشوع فى الصلاة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [(٨)].

---

(١) سورة البقرة آية ٤٣.

(٢) سورة البقرة آية ٢٣٨.

(٣) سورة النساء آية ١٠٢.

(٤) سورة البقرة الآية ١٤٤.

(٥) سورة التوبة آية ١٨.

(٦) سورة الجن آية ١٨.

(٧) سورة النساء آية ١٠٣.

(٨) أول سورة «المؤمنون».

وفيه التحذير من تأخيرها عن وقتها: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[١].

وفيه الأمر بالتطهر لها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾[٢].

وهنا يتساءل الإنسان عن هذه الصلاة التى لها أوقات، ولها قبلة، وتصلى فى جماعة ولو فى المعركة مع المشركين، وتبنى لها مساجد، ويتطهر لها، يتساءل الإنسان: أين التوصيف الدقيق لها؟ فما عددها، وما أوقاتها وكيف تؤدى؟ بل يتساءل عن دقائقها فما معنى ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ يتساءل أسئلة كثيرة ناشئة عن آيات القرآن الكريم، فيجد إجابتها فى السنة النبوية، فيجد فيها توصيفًا دقيقًا يتناغم مع القرآن الكريم بكل دقة، ويتوافق مع الكتاب العزيز بكل عظمة، حتى إن القارئ للكتاب والسنة لا بد أن يقول: إنهما من مشكاة واحدة.

فحينما نقرأ فى القرآن الكريم: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[٣] نجد فى السنة النبوية بيان هذا المجمل بكل توضيح، فالصلوات خمس فى اليوم والليلة، صلاة الصبح ركعتان، والظهر أربع، والعصر أربع، والمغرب ثلاث، والعشاء أربع. نجد فى السنة حقيقة **الركعة،** وأنها مؤلفة من قراءة الفاتحة، وركوع، ورفع، وسجود أول، وجلوس، **وسجود،** مع اطمئنان فى تأدية الأركان، وأمور تستحب، وهيئات تستحسن.

نجد فى السنة توضيحًا كاملاً لقوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ففيها أحكام صلاة الجماعة، ومن أَوْلى بالإمامة، ومتى يجهر الإمام ومتى يسر. هذا وغيره

---

(١) سورة الماعون آية ٤، ٥.

(٢) سورة المائدة آية ٦.

(٣) سورة البقرة آية ٤٣.

كثير، حتى إن الإنسان لا يحتاج بعد توضيح السنة شيئًا قط. فقد وضح الأمر كل الوضوح.

وهكذا فى كثير وكثير جدًا من المسائل، تجدها مجملة فى القرآن الكريم فيبينها المصطفى المعصوم ﷺ. ويتناقلها المسلمون واقعًا عمليًا، ولفظًا محفوظًا فى الصدور وفى السطور.

قرأت لأحد منكرى السنة: إن الصلاة التى أمرنا الله بها فى القرآن الكريم هى الدعاء، فإذا دعوت بعض دعوات فقد صليت[١]!!

وعجبت كثيرًا، كيف يقول هذا عاقل؟ إن القرآن قد وضح ملامح الصلاة المفروضة بما معه لا يمكن أن تكون هى الدعاء، لقد وضح أنها فيها ركوع وسجود، ولها قبلة، ومساجد، ولها أذان، وفيها صلاة جمعة، إلى آخر الملامح القرآنية للصلاة.

فكيف يقول إنسان يدعى أنه يتبع القرآن الكريم، كيف يقول إن الصلاة التى أمرنا الله بها فى القرآن الكريم إنما هى مجرد دعاء؟ إن هذا تضليل بلغ من الوضوح درجة لا يحتاج إلى أن يرد عليه، فإنه يرفضه كل سليم الفطرة معتدل التفكير، أما من فى قلبه مرض، أو لوثت فطرته، أو اختل عقله لتعصب أو هوى أو غير ذلك فمثل هذا ليذهب إلى الجحيم فلا عبرة بما يرى.

● الجزء القرآنى من شبهتهم:

أما استدلالهم بقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[٢] يستدلون بها على أن القرآن الكريم قد حوى كل العلوم ولا حاجة للسنة فأتساءل معهم: هل بيّن القرآن الكريم عدد الصلوات المفروضة؟

هل بيّن القرآن الكريم كيفية الصلاة؟

هل بيّن القرآن الكريم كيفية صلاة الجماعة... إلى آخر ما ذكرت قبل ذلك.

وأقول لهم: قال الله تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فهل بين القرآن الكريم الأموال

(١) نشرت هذا جريدة معارضة مطمورة مصرية، وكم للجرائد والمجلات من طامات.

(٢) سورة النحل آية ٨٩.

التى يجب فيها الزكاة، والمدة التى تجب فيها الزكاة، والمقدار الذى تجب فيه الزكاة، والمقدار الذى يجب أن يخرجه صاحب المال، إن القرآن لم يبين ذلك، فكيف تستدلون بالآية على أن القرآن يكفى عن السنة؟!

وما قلته عن الصلاة والزكاة يقال عن الصيام، والحج، والجهاد، والبيوع، والنكاح، والطلاق، والرضاع، والنفقات، جاءت التشريعات فى هذه الأمور وغيرها مجملة فى القرآن الكريم[١]، فأين ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ؟ وأين الاستغناء بالقرآن الكريم عن السنة؟

نعم: أنزل الله الكتاب تبيانًا لكل شيء، لكن ليس تفصيلاً، وإنما باشتماله على كليات الإسلام وأصوله، وباشتماله على المصادر التى تبين وتفصل، والأمر باتباع هذه المصادر، وهى:

السنة: لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [٢] وقد قدمت الكثير من الأدلة على حجية السنة عند الكلام على «وجوب العمل بالسنة»[٣].

الإجماع: لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [٤].

القياس: لقوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ .

إن القرآن الكريم قد حوى الكثير من أمور الدين، وأمر باتباع السنة، واتباع الإجماع، والاعتماد على القياس عند الحاجة، فأصبح متضمنًا العلوم، وعلوم السنة والإجماع والقياس، لأنه لما أمر باتباع هذه الأشياء كان العمل بها عملاً

(١) لقد اختصرت هذا بذكر الموضوعات فقط، أما المروزى فإنه قد وضح ذلك وأجاد فليراجع كتابه «السنة» موضوع: ذكر السنن التى هى تفسير لما افترضه الله مجملاً مما لا يعرف معناه بلفظ التنزيل دون بيان النبى ﷺ وترجمته ص٣٦ ـ ٦٨. وراجع ما بعده.

(٢) سورة الحشر آية ٧.

(٣) تقدم هذا البحث باستفاضة ص ٨.

(٤) سورة النساء آية ١١٥.

بالقرآن الكريم، فبذا أصبح تبيانًا لكل شيء

إننى أتساءل مع القائلين بأن القرآن قد بيّن كل شىء، ما بال الصحابة كانوا يسألون رسول الله عن بعض أمور الإسلام كالذى أرسل امرأته إلى بيت رسول الله ﷺ تسأل عن تقبيل الرجل زوجته وهو صائم(١).

وأكثر من ذلك لماذا سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن معانى القرآن، فسألوا حينما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (٢) سألوا قائلين: أينا لا يظلم نفسه؟

لقد فهموا: أن الظلم فى الآية مطلق ظلم، فبين لهم ﷺ أن الظلم فى الآية إنما المراد به الشرك. مستدلاً بآية آخرى من الكتاب العزيز ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٣).

إن تساؤلات الصحابة دليل على أن البيان موكول إليه ﷺ، ومن هنا جاء الأمر بطاعته، وجاء التحذير من مخالفته.

وسؤال آخر: هل العموم فى الآيتين ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ ، ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ .

هل هذا العموم على إطلاقه؟

لو كان كذلك لكانت علوم الدنيا والآخرة فى القرآن الكريم، ولما فكر مفكر.

فلم يبق إلا تخصيص هذا العموم، وأنه تبيان لكل شىء من أمور الدين، وما دام العام قد خص، فقد ضعف عمومه.

وأيضًا ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ هل الكتاب هنا هو القرآن؟

إن سياق الآية: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ لو كان الكتاب هو القرآن لكان القرآن مشتملاً على

---

(١) يراجع كتاب «المدخل إلى السنة» ص ٢٨٦، بحث: الاستدلال من السنة على حجية الآحاد.

(٢) سورة الأنعام آية ٨٢.

(٣) هذا الحديث أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء باب قول الله: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ ٦/ ٤٦٥ رقم ٣٤٢٩ وقول الله ﴿لا تشرك بالله... ﴾ والآية من سورة لقمان رقم ١٣.

شئون جميع المخلوقات، ومقدراتها، وأرزاقها، الطيور فى الهواء، وأمم البحر من أسماك وغيرها، وأمم أكبر من وحوش وغيرها، ولما لم يكن القرآن مشتملاً على ذلك، ثبت أن المراد بالكتاب فى قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ إنما هو اللوح المحفوظ، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (١).

لقد أطلت فى الرد على هذه الشبهة بعض الإطالة نظرًا لأنها قد تنطلى على العامة.

أما الذين يثيرونها فلا أظن أن الرد يخفى عليهم، لكنه الباطل الذى يُعمى حبُّه بعض الخلق نسأل الله العفو والعافية.

ولست بالحريص أن أكتب لهؤلاء، فإنهم ينكرون السنة فى أول كتبهم ويدّعون العمل بالقرآن، وبعد قليل من كتاب أحدهم تجده ينكر القرآن تمامًا.

إنهم يتشدقون بالقرآن تعمية على الناس، وترويجًا لباطلهم، لكنك إذا قرأت لهم وجدتهم ينكرون القرآن، ويحتالون على تغيير أحكامه.

وختامًا للحديث على هذه الدعوى ـ دعوى أن القرآن يُسْتَغْنَى به عن السنة ـ أتساءل: إذا كان القرآن يُغنى عن السنة، فما معنى الآيات الآمرة:

١ ـ باتباع رسول الله ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢).

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٣).

٢ ـ وما معنى الآيات المفيدة لنزول السنة عليه ﷺ، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ

---

(١) سورة هود آية ٦.

(٢) سورة آل عمران آية ٣١.

(٣) سورة الأحزاب آية ٢١.

اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (١).

وقوله تعالى لنساء رسول الله ﷺ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (٢).

٣ ـ وما معنى الآيات الآمرة بطاعته ﷺ، مثل قوله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (٣).

٤ ـ إذا كان القرآن يغنى عن السنة فما معنى الآيات المحذرة من مخالفته ﷺ، ومنها قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤).

إن الذين يدعون اتباع القرآن وأنه يغنى عن السنة يتناقضون مع القرآن الكريم، فإن القرآن يشتمل على الكثير من الآيات الدالة على وجوب العمل بسنته ﷺ(٥).

وعليه فلا يخدعون أنفسهم بأنهم «قرآنيون» ولا ينخدع بهم غيرهم لجلال كلمة «قرآن» فإنهم ليسوا بقرآنيين، لأنهم لا يعملون بهذه الآيات الآمرة باتباع رسول الله ﷺ والموجبة لطاعته. إنما «القرآنيون» هم الذين يتبعون رسول الله ﷺ فى كل ما جاء به عن الله، من قرآن، ومن سنة. وهو ﷺ القائل: «إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا كتاب وسنة نبيه»(٦).

* * *

(١) سورة النساء آية ١١٣.
(٢) سورة الأحزاب آية ٣٤.
(٣) سورة النساء آية ٨٠.
(٤) سورة النور آية ٦٣.
(٥) راجع باب وجوب العمل بالسنة فصل «القرآن الكريم يوجب العمل بالسنة» ص ٧٧ من كتابى «المدخل إلى السنة النبوية».
(٦) أخرجه الحاكم فى العلم باب خطبته ﷺ فى حجة الوداع ١/ ٩٣، وأخرجه البيهقى فى السنن الكبرى فى آداب القاضى باب ما يقضى به القاضى ١٠/ ١١٤.

الشبهة الثانية: السنة فيها الصحيح والموضوع

هذه شبهة من شبه منكرى السنة، وهم من أدرى الناس ببطلان هذه الشبهة، وقائلها لا أجد له شبهًا إلا من قرأ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ثم سكت ولم يكمل، ولو أكمل فقرأ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ لتغير المعنى تمامًا، فما قرأه أولاً يثبت أن من صلى عذب، وما قرأه ثانيًا يثبت أن من سها عن الصلاة عذب، والفرق بين المعنيين كبير.

كذلك هنا: إن من قال السنة فيها الصحيح والموضوع وسكت، أفاد أن صحيح السنة مختلط بموضوعها، ولا يميز بين الغث والثمين، وهذا تجنٍّ على الحقيقة، ومجانبة للصواب، ولو أن قائله أنصف لأكمل الكلام فقال: السنة فيها الصحيح والموضوع، والصحيح معلوم والموضوع معلوم.

إنه لو قال الحقيقة كلها هكذا لأنصف، إلا أن هذا القول يصبح على غير هواه، ولا يبلغه مقصوده.

إن السنة لها رجالها وعلماؤها، ولقد بينوا حال كل حديث، وحكموا على الصحيح بالصحة، وعلى الحسن بالحسن، وعلى الضعيف بالضعف، وعلى الموضوع بالوضع.

* وألف بعضهم كتبًا فى الأحاديث الصحيحة، كصحيح البخارى، وصحيح مسلم.

* وألف بعضهم كتبًا فى الأحاديث الصحيحة والحسنة، كسنن أبى داود، وبقية السنن.

* وألف بعضهم كتبًا فى الأحاديث الضعيفة، كالعلل المتناهية فى الأحاديث الواهية.

* وألف بعضهم كتبًا فى بيان حال أحاديث كتب معينة، كنصب الراية فى تخريج أحاديث الهداية، بين فيه الزيلعى حال الكثير من أحاديث الأحكام، حتى كاد أن يستوعبها.

* وألف بعضهم كتبًا فى الأحاديث الموضوعة. كتنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة لابن عراق.

بل إن لعلماء الحديث جهودًا فى التعريف بحال الرواة، ومعرفة ما لكل راو من الأحاديث ما يبهر القارئ، ويستولى على لب المنصف، لقد عرفوا كل حديث وسلسلة رواته، وأنه يرويه فلان عن فلان عن فلان بلفظ كذا، وأنه يروى من طريق آخر يرويه فلان عن شيخه فلان عن فلان بلفظ يختلف فى كلمة كذا، أوفى حرف كذا.

إن الدارس لعلم السنة يجد أن مدرسة الحديث لها رجالها الذين قاموا بخدمة حديث رسول الله ﷺ من كل ناحية، فلا تجد ناحية تقول ليتهم خدموا السنة من هذه الناحية.

لقد جمعوا الأحاديث على كل نحو.

وشرحوها شروحًا مطولة مستوعبة.

ودرسوها دراسة عامة، ودراسة تحليلية، فأبانوا فقهها وما يستفاد منها، واستنبطوا واستخرجوا.

ولهم كتب فى الغريب، شرحوا فيها الألفاظ التى تخفى معانيها.

ولهم كتب فى أسباب ورود الحديث ، بينوا فيها القصة التى حدثت فقال رسول الله ﷺ الحديث.

ولهم كتب فى ضبط أسماء أعلام الحديث، من الرواة وغيرهم، وهو علم من خصوصيات مدرسة الحديث «مدرسة السنة».

لقد خدمت السنة خدمة لم يحظ به علم آخر، حتى قال أحد المستشرقين ـ مارجليوث ـ: ليفتخر المسلمون ما شاءوا بعلم حديثهم[1].

إن وجود الحديث الموضوع فى السنة لا يمثل عيبًا، وإنما يمثل ميزة عظيمة للسنة، لأنه يدل على أنه كان للسنة رجال يميزون الحديث المقبول من المردود،

(١) مقدمة محقق الجرح والتعديل، نقلاً عن المقالات العلمية ص٢٣٤، ٢٣٥. وبمشيئة الله تعالى سأفرد هذا الموضوع بمؤلف مستقل «جهود المحدثين ومنهجهم فى الحفاظ على السنة».

ويعرفون الثابت من الموضوع، ولقد دونوا كل ذلك فى مؤلفات تنطق بين أيدينا بعمق النظرة، ودقة الفكرة.

إن وجود كتب جامعة للأحاديث المقبولة (الصحيحة، والحسنة، والضعيفة ضعفًا يحتمل) وكتب للأحاديث المردودة (شديدة الضعف، والموضوعة) ظاهرة طيبة وصحية فى شأن السنة النبوية، فمن أراد الأحاديث المقبولة فلها كتبها الكثيرة الشهيرة مثل الكتب الستة:

١ ـ صحيح البخارى.

٢ ـ صحيح مسلم.

٣ ـ سنن أبى داود.

٤ ـ سنن الترمذى.

٥ ـ سنن النسائى.

٦ ـ سنن ابن ماجه.

ومعها:

٧ ـ موطأ الإمام مالك.

٨ ـ صحيح ابن خزيمة.

٩ ـ صحيح ابن حبان.

١٠ ـ مستدرك الحاكم.

١١ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل.

١٢ ـ مسند الشافعى.

١٣ ـ السنن للشافعى.

١٤ ـ مسانيد الإمام أبى حنيفة[١].

(١) إذا أردت المزيد من كتب السنة فراجع مقدمة موسوعة الحديث النبوى للدكتور/عبد الملك بكر عبد الله قاضى، فلقد أقام موسوعته على أكثر من مائتى كتاب من كتب السنة، ذكرها فى مقدمة كل باب من أبواب موسوعته، أسأل الله أن تتم على خير. وراجع أيضًا كتاب: الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة للكتانى.

ومن أراد الاحتياط، ومعرفة الأحاديث المردودة حتى لا يُحَدِّث بها، فليراجع:

١ ـ تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة لابن عراق.

٢ ـ العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية لابن الجوزى.

٣ ـ الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة للشوكانى.

٤ ـ اللالئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للسيوطى.

٥ ـ الكشف الإلهى عن شديد الضعف والموضوع والواهى للسندروسى.

إن علماء السنة حينما جمعوا الأحاديث المقبولة، كان يمكنهم أن يكتفوا بذلك، بناء على أنهم قد جمعوا المقبول فما عداه مردود، لم يكتفوا بذلك، فلربما ورد على المسلم حديث لم يتسع الوقت للبحث عنه فى كتب المقبول وهى كثيرة فيظنه مقبولاً. وإنما ألفوا فى الأحاديث المردودة، مصرحين ببيان حالها حتى إذا بحث المسلم عن حديث مردود وجد التصريح ببيان حاله، والنطق بأنه مردود.

وعليه فلا يصح أن يقال: إن السنة فيها الصحيح والموضوع. ويسكت على ذلك فهذه خيانة لا يقول بها إلا عدو للحق، عدو للسنة النبوية، عدو للإسلام وإنما إذا قيل ذلك، فلا بد من الصدع بالحق كله، فيقال: السنة لها كتبها المشتملة على الأحاديث الصحيحة والمقبولة، فإذا أردت حديثًا أو أحاديث فى موضوع ما فراجع هذه الكتب.

أما إذا عرض لك حديث لا تعرف حاله فراجعه فى كتب الموضوعات، فإذا وجدته فلا تحدث به، فإنه ليس من كلام رسول الله ﷺ.

إن السنة لها كتبها المستوعبة للكثير من أحاديثها، وهى أحاديث كلها فى درجة القبول، مرتبة على أوجه متعددة؛ وهذه ليس فيها حديث موضوع، مما يجعل القول بأن السنة فيها الصحيح والموضوع مغالطة واضحة.

* * *

الشبهة الثالثة:

السنة أخبار آحاد [(١)]، تفيد الظن [(٢)]، وهو ليس حجة [(٣)]!!

هذه الشبهة جملة مغالطات ركبت على بعضها، فأنتجت هذه النتيجة عند من يغالط، وعند من لا علم له بحقيقة الأمر.

فالقول بأن السنة أخبار آحاد هذه مغالطة من عدة أوجه:

الأول: فالسنة علم تتناقله الأمة جيلاً عن جيل بأعداد تفوق أى تواتر.

فالمسلمون يأخذ الخلف عقيدته عن السلف، ويتعلمها الأبناء عن الآباء، فأى آحاد هنا.

والمسلمون يأخذون عباداتهم الخلف عن السلف، وكذلك الأخلاق، وكل أمور الإسلام تأخذها الأمة جيلاً عن جيل، بأعداد تفوق أى تواتر.

إن السنة النبوية ليست علمًا محبوسًا فى بطون المؤلفات، وإنما هى علم يُعْمل به، ويحْكم حياة الأمة، فُيتَحدث به ويتناقش فيه، وهذا يجعله محفوظًا فى نصوصه، مطبقًا بفكر أمة، وعقلية تطبيق.

وهذا الذى جعل بعض منكرى السنة يقول بحجية السنة العملية، وأتساءل: أليست السنة فى جملتها عملية؟

فالإسلام دين عمل.

ماذا بقى بعد العمليات؟

---

(١) خبر الآحاد يقصدون به أن الأحاديث يرويها عدد قليل عن عدد آخر. و«الآحاد» عندهم مقابل المتواتر، والمتواتر يرويه عدد كثير يحيل العقل اتفاقهم على الكذب فى كل طبقة، ولا يشترط فيهم إسلام ولا ضبط.

(٢) أهل هذه الشبهة يفسرون الظن بالشك بينما له معان ذكرتها فى باب حجية الآحاد، مبحث خبر الآحاد يفيد العلم والظن ص ٣١٣ من كتابى «المدخل إلى السنة النبوية».

(٣) رددت هذه الشبهة على أنها ترد على خبر الآحاد فى «المدخل إلى السنة النبوية» ص ٣١٨. أما هنا فأَرُدُّها على أنها تَرِدُ على السنة النبوية.

١ ـ بقى القسم التاريخى، من سيرة رسول الله ﷺ، والغزوات، وفضائل الصحابة.

وهذا أوثق من تاريخ أى أمة، فلقد نقل برواية العدل الضابط عن العدل الضابط إلى آخر السند، وهذا لا يوجد فى تاريخ أى أمة.

٢ ـ بقى القسم الاجتماعى أو الأخلاقى.

وهذا يعترف الجميع بفضله ورقيه وسموه، فما من فضيلة إلا وحث الإسلام عليها، وما من رذيلة إلا ونهى الإسلام عنها.

ومع ذلك، فهذا من السنة العملية، فلقد تناقلت الأمة جيلاً عن جيل احترام الجار، ومراعاة حقوق الأقارب، وبر الوالدين.

ثانيها: وهذه الشبهة مغالطة فى وصف الأحاديث بأنها آحاد، فهذا المصطلح لم يستعمله المحدثون، وإنما أطلقه من أرادوا إبطال الأحكام.

ومن راجع كتب المصطلح لا يجد هذا المصطلح عند المتقدمين، ومن راجع كتب الأصول لم يجد هذه الدعوى عند المتقدمين منهم أيضًا.

وهذه الشبهة مغالطة من جهة ادعاء أن السنة أخبار آحاد، فهناك فرق كبير بين الأخبار الشائعة فى حياة الناس برواية الصادق والكاذب، وبرواية الذكى والغبى، وبرواية المبالى وغير المبالى فرق بين هذه الأخبار ورواية الأحاديث النبوية التى اشترط الإسلام لها شروطًا، وأقام لها أصولاً، مما يجعل الخبر الإسلامى له من الخصائص ما يميزه عن بقية الأخبار[1].

إن السنة كعلم ينقل بالرواية قد تنوقل بأساليب تفيد العلم، ويطمئن لها القلب. والأمة الإسلامية أمة لها منهجها العلمى الأصيل مما يجعل السنة مصونة محفوظة.

والقول بأن خبر الآحاد يفيد الظن فيه مغالطة فوق مغالطة، فبعد أن أبنت أن إطلاق خبر الآحاد على السنة مغالطة، أبين أيضًا أن دعوى خبر الآحاد يفيد الظن الذى ليس بحجة مغالطة أخرى، ذلك أنهم يفسرون «الظن» بالشك، بينما لم يقل

(١) راجع خصائص الخبر الشرعى ص ٣٠٠ من كتابى «المدخل إلى السنة النبوية».

بذلك أحد من أهل العلم، ومن استعمل من المحدثين لفظ «الظن» فإنما عنى به ما هو أقل من العلم بقليل، ولذا أضاف: إنه إذا احتف بقرينة أفاد العلم، والقرائن عندهم كثيرة، مما يعنى أن أكثر الأحاديث تفيد العلم بمضمونها، إلا أن المنكرين للسنة، يجعلون إفادة العلم حكرًا على التواتر، بينما الناس مع المحدثين، يقبلون ما ليس متواترًا، ويعتبرونه مفيدًا العلم(١).

وخير رد على هذه الشبهة أن الإسلام اعتبر خبر ما تسمونه الآحاد، وأقام به كل حجة، بعد أن اشترط له شروطًا. وعليه فالمسلمون يحتجون بخبر الآحاد، وأحاديث السنة كلها حجة عندهم ما دام المحدثون قد قبلوها.

فالمحدثون هم أهل الاختصاص، وكل علم يؤخذ من أهله.

على أن واقع الناس قائم على خبر الآحاد، فالرجل يخبر الخبر فيصدقه الآخرون، والطبيب يشخص المرض فيصدقه المريض وأهله، ونقرأ الكثير من المعلومات لمؤلف ما فنصدقه، ولا نسمع أن مجتمعًا من المجتمعات فى أى ناحية لا يقبل خبر الآحاد، أما المتواتر فليس فى طاقة الناس. مما يدل على واقعية الإسلام، إذ يقبل الواحد ما دام عدلاً ضابطًا.

والله الموفق والمعين.

❊ ❊ ❊

(١) فى كتابى «المدخل إلى السنة النبوية» بينت كثرة المتواتر فى السنة ص ٣٣١ وبينت الظن الذى يفيده خبر الآحاد ص ٣١١.

الشبهة الرابعة: السنة لم تكتب من أول الأمر، وإنما ظلت فى الصدور مائة عام فلحقها ما لحقها

الرد: مُرَوِّجُوا هذه الشبهة أدرى الناس بكذبها، ولا يستطيع أحد منهم أن يذكر على ذلك دليلاً.

وأسوق للقارئ رداً على هذه الشبهة عدة حقائق:

الأولى: كتابة العلم مبدأ إسلامى، جاء به القرآن الكريم، والسنة النبوية، وعمل به السلف، ولا زالت الأمة عليه إلى يومنا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أما القرآن الكريم فوردت فيه آيات كثيرة فى كتابة العلم منها:

١ ـ قالوا لقتادة بن دعامة السدوسىّ التابعى الحافظ الفقيه[١] ـ نكتب ما نسمع منك؟ قال: وما يمنعك أن تكتب وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [٢].

ولقد آثرت أن أسوق الآية ضمن الأثر لأدلل على أن السلف كانوا يدركون ذلك، وأنه إذا كانت العلوم عند الله الذى لا ينسى ولا تلتبس عليه الأمور، سبحانه هو اللطيف الخبير، لا يشغله شأن عن شأن، إذا كانت العلوم عنده فى كتاب، فما ذلك إلا لنعلم قدر الكتاب، ونحفظ أمورنا به.

٢ ـ قال الله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [٣].

---

(١) راجع ترجمته فى تذكرة الحفاظ ١/ ١٢٢ رقم ١٠٧ ١٢/ ٤ والتاريخ الكبير ٧/ ١٥٨ والتاريخ الصغير ١/ ١٨٢ وميزان الاعتدال ٣/ ٣٨٥، ومسند ابن الجعد ١/ ٥١٩.

(٢) مسند ابن الجعد ١/ ٥٢٥ أثر رقم ١٠٧٨ والمحدث الفاصل ص٣٧٢ وتقييد العلم ص١٠٣ وما استدل به قتادة جزء من الآية رقم ٥٢ من سورة طه.

(٣) سورة ق آية ٤.

٣ ـ قال الله تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [(١)] يقسم سبحانه وتعالى بالقلم وما يُكتب به، وما ذلك إلا إعلامًا بمكانة القلم والكتابة.

٤ ـ وأمرنا ربنا بكتابة الحقوق المالية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [(٢)] وفى نفس الآية: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ وفى نفس الآية: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.

وهكذا يتضح من القرآن الكريم أن كتابة العلم مبدأ إسلامى، وأن القرآن الكريم كان يُكتب فور نزوله على رسول الله ﷺ، وكان للوحى كُتَّابٌ مهيؤون حاضرون.

وفى السنة النبوية الكثير والكثير من كتابة العلم، فلقد كتب رسول الله ﷺ كتبًا[(٣)] وأرسلها إلى حكام الدول يدعوهم إلى الإسلام.

وكتب كتبًا أرسلها إلى عماله على الأمصار، بين فيها دقائق الأشياء المالية، من أنصبة الزكاة، والديات وما إلى ذلك.

وأذن لكثير من الصحابة بالكتابة، بل بكتابة السنة النبوية، من ذلك:

* ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتنى قريش، وقالوا: تكتب كل شىء سمعته من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم فى الغضب والرضا؟ فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأومأ بأصبعه إلى فيه، وقال: اكتب، فوالذى نفسى بيده ما يخرج منه إلا حق»[(٤)].

وعبد الله بن عمرو هو الذى قال: ما يرغبنى فى الحياة إلا الصادقة والوهط،

---

(١) أول سورة القلم.

(٢) هذه تسمى آية الدَّين وهى أطول آية فى القرآن الكريم، وهى من آخر سورة البقرة رقم ٢٨٢.

(٣) أى أمر من يكتب له فكتب.

(٤) أخرجه الحاكم ١/ ١٠٤، ١٠٥ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأخرجه أبو داود فى العلم باب كتابة العلم ١٠/ ٧٩، والدارمى باب من رخص فى كتابة العلم ١/ ١٠٣، والرامهرمزى فى المحدث الفاصل ص١٦٤، وهو فى تقييد العلم ص٧٤، ٨٢ جامع بيان العلم ١/ ٨٥.

فأما الصادقة فصحيفة كتبتها من فى[١] رسول الله ﷺ، وأما الوهط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها[٢].

* وحينما فتح الله مكة على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين خطب رسول الله ﷺ خطبة، فقال أحد الحاضرين: اكتب لى يا رسول الله، أى هذه الخطبة، فقال ﷺ اكتبوا لأبى شاه[٣].

وعلى هذا سار السلف فكانوا يكتبون العلم، ويكتبون حديث رسول ﷺ، فعن حسن بن عمرو بن أمية الضمرى قال: تحدثت عند أبى هريرة بحديث فأنكره فقلت: إنى قد سمعته منك فقال: إن كنت سمعته منى فهو مكتوب عندى، فأخذنى بيدى إلى بيته فأرانا كتبًا من حديث رسول الله ﷺ، فوجد ذلك الحديث، فقال: قد أخبرتك أنى إن كنت حدثتك به فهو مكتوب عندى[٤].

وهكذا فكتابة العلم مبدأ إسلامى، وهكذا أيضًا اتضح أن رسول الله ﷺ أمر بكتابة العديد من الكتب، وأمر أن يكتب لأحد الصحابة، وكتب الصحابة أحاديثه ﷺ فأقرهم.

الحقيقة الثانية: امتثل الرسول ﷺ والصحابة التوجيه الربانى بكتابة العلم فكتبوا الكثير والكثير، وكُتُب رسول الله ﷺ موجودة فى كتب السنة، ومنها ما هو موجود بذاته فى بعض المكتبات.

وكتب الصحابة الكثير والكثير، فكتب جابر بن عبد الله، وكتب أبو هريرة ـ كما تقدم ـ وكتب عبد الله بن عمرو ـ كما تقدم ـ وكتب أبو بكر، وكتب عمر[٥].

الحقيقة الثالثة: من أصول البحث العلمى أن كل موضوع يدرس، فلا بد من

(١) فى بمعنى فم، تحذف الميم عند الإضافة.
(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة باب من رخص فى كتابة العلم ١/ ١٠٥ والرامهرمزى فى المحدث الفاصل ص٣٦٦، والخطيب فى تقييد العلم ص٨٥.
(٣) راجع البخارى كتاب العلم باب كتابة العلم ١/ ٢٠٥ حديث ١١٢.
(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٣/ ٥١١، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم ١/ ٨٩.
(٥) راجع كتابى «السنة النبوية مكانتها، وعوامل بقائها، وتدوينها» وكتاب «مكاتيب الرسول ﷺ» لحسين على الأحمدى. والرسائل النبوية للدكتور/ على السبكى.

مراعاة كل المؤثرات، وعليه فمن يدرس تاريخ السنة فى العصر النبوى وعصر الصحابة عليه أن يراعى منهجهم فى حفظ العلم وقدراتهم، فلذلك أثر كبير فى إصابة الحقيقة. والدارس لهذه الفترة يجد أن الأمة كانت تعتمد على ذاكرتها كثيرًا، وتعتبرها الأصل، والكتابة تابعة.

إن ذاكرة الأمة فى العصر النبوى وعصر الصحابة كانت قوية جدًا، حتى كانوا يعتمدون على ذاكرتهم فى حفظ الأنساب، ولا شك أن حفظ السنة أيسر بكثير من حفظ الأنساب، لقد قال رسول الله ﷺ فى وصف أمتنا: «أناجيلهم فى صدورهم»[1] أى أن صدورهم هى السجلات التى يدونّون فيها المعلومات.

وقال الله تعالى لنبيه ﷺ فى وصف القرآن: «وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء»[2]. ذلك أنه تحفظه الأمة فى صدورها، مع كتابته، وعليه فلو جمعت نسخه وألقيت فى المحيط فإنه لا يضيع، وإنما يظل فى الصدور، يكتب منها، ويفهم فيها. وهذا يدل على قوة حفظ هذه الأمة، وأنها تعتمد على الصدور لا على السطور. بل إنهم كانوا يعيبون الاعتماد على الكتابة، كما قال الخليل:

ليس بعلم مـا حوى القمطر ما العلم إلا ما حواه الصدر

وقال آخر:

استـودع العلم قرطاسًا فضيعـه لبئس مستودع العلم القراطيس

ونحن إلى زماننا هذا لا نعتمد فى حفظ القرآن على أخذه من المصحف وإنما لا بد من أخذه عن شيخ، ثم يستعان بالمصحف أثناء الحفظ، وعند التأكد من حرف.

وهكذا كانت الذاكرة قوية، وكانوا يعرفون قدر الذاكرة فى حفظ العلم، ومن ثم فلا يشد يديه من يقول: إن السنة لم تكن فى الزمن الأول. لأنا نقول له كُتبت، وحفظت.

---

(١) ذكره فى الدر المنثور ٢/ ١٣٢ وعزاه للزبير بن بكار فى أخبار المدينة، وأبى نعيم فى دلائل النبوة عن ابن مسعود. وذكره فى فتح البارى ١/ ٢٥. وهو فى منتخب دلائل النبوة لأبى نعيم لكن عن أبى هريرة ـ لا عن ابن مسعود ـ فى الفصل الرابع إقسام الله بحياة رسوله ﷺ... » ص٦٨ رقم ٣١.

(٢) أخرجه مسلم فى الجنة باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة، وأهل النار ٤/ ٢١٩٧ رقم ٦٣، وهو حديث قدسى.

الحقيقة الرابعة: لم يقل أحد من الأئمة المحققين إن السنة كان ينقصها شيء من التوثيق فى الزمن الأول. وإنما الذى قالوه: إن السنة لم تدوّن فى المائة الأولى. فأخذ أعداء السنة هذا القول، وحملوه على غير معناه، وقالوا: لم تكتب السنة إلا بعد مائة سنة. وهكذا جعلوا التدوين بمعنى الكتابة، وهذا تحريف عجيب، فالفرق كبير بين الكتابة والتدوين.

فالكتابة: خط الشيء، فلو كتبت معلومة من هنا ومعلومة من هناك فى ورقة فقد كتبت. أما التدوين فهو: ترتيب المعلومات فى كتاب، فلو أخذت المعلومات السابقة ورتبتها، فهذا ديوان.

ولقد كانت السنة فى القرن الأول مكتوبة، فكان الصحابى يكتب ما يسمع من رسول الله ﷺ، فلما جاء القرن الثانى بدأ ترتيب الأحاديث على وجه من الأوجه المعروفة الآن: الترتيب على الموضوعات، كموطأ مالك.

والترتيب على الشيوخ «المعاجم» كصحيفة همام بن منبه.

والترتيب على الصحابة «المسانيد» كمسند أحمد بن حنبل.

إلا أن القرن الأول لم يخل من هذه الصفة، أعنى ترتيب الأحاديث على نحو ما، فلقد كان لجابر بن عبد الله منسك فى الحج. بل إننى لا أذهب بعيدًا، فكتاب رسول الله ﷺ فى الصدقات الذى أرسله إلى عمرو بن حزم، هو ترتيب موضوعى، فهو فى الأنصبة التى تجب فيها الزكاة، والقدر الواجب. وكذلك كتاب عمر بن الخطاب إلى عماله(١).

وهكذا كانت السمة الغالبة على السنة فى القرن الأول الكتابة مطلق كتابة، والمرتب منها قليل، فلما كان القرن الثانى بدأ جمع الأحاديث وترتيبها.

وعليه فلا يقول منصف إن السنة لم تكتب طيلة القرن الأول، ثم يرتب على ذلك أنه اعتراها الزيادة والنقصان، لا، فإنها كانت مكتوبة فى جملتها، وكانت محفوظة فى الصدور، ثم زاد الأمر تدقيقًا فرتبت فى القرن الثانى، واستنبط، وكتب ما استنبط، واجتهد الأئمة فى خدمتها، مراعاة لظروف اتساع دولة الإسلام.

---

(١) راجع نص الكتابين فى الأموال لأبى عبيد ص٤٤٧، ٤٤٨ وغيرهما.

الشبهة الخامسة

عاشت الأمة أكثر من مائتى عام بدون السنّة، وكانت الأمة فى هذه الحقبة عزيزة قوية، وحينما جاء البخارى، ومسلم، الترمذى، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، والدارمى، ووفاة أغلبهم بين ٢٥٠ إلى ٣٠٠هـ ووضعوا السنّة، هانت الأمة وانهزمت!!

والرد على هذه الشبهة فى عدة نقاط:

١ ـ الرد على ادعاء تأخر السنة:

هذا الادعاء يبطله ما تقدم، فلقد بينت فيما مضى أن السنة قد كتبت أمام رسول الله ﷺ، وأن الصحابة كتبوا كثيراً.

وأضيف: إن مَنْ له أدنى معرفة بالسنة يهزأ بهذا الكلام، ذلك أن الكتب التى قبل البخارى تملأ المكتبات، كتب ألفت قبل البخارى ومسلم... إلخ هى الآن فى أيدى طلاب العلم، خذ مثلاً:

١ ـ موطأ الإمام مالك، هذا أشهر من أن يُعرّف به، والإمام مالك لا أقول إنه شيخ البخارى، وإنما شيخ شيوخ البخارى، إنه توفى قبل أن يولد البخارى بزمان، توفى مالك ١٧٩ ولد البخارى ١٩٦.

٢ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، أشهر من نار على رأس جبل، وللإمام أحمد كثير من المؤلفات، وكل ذلك قبل البخارى، فالإمام أحمد شيخ البخارى.

٣ ـ مسانيد أبى حنيفة، مشهورة منثورة، وتوفى أبو حنيفة سنة ١٥٠هـ، وله عشرون كتابًا، جمع فيها ما يحفظه من الأحاديث كل كتاب منها يسمى «المسند» وأبو حنيفة قبل البخارى بزمن، فلقد توفى قبل أن يولد البخارى بنصف قرن تقريبًا، أو بالتحديد [٤٦سنة].

لقد بدأ أبو حنيفة التأليف، وبعض الصحابة موجود.

٤ ـ كتب الشافعى: الشافعى الإمام الفقيه ولد سنة ١٥٠ وتوفى ٢٠٤ وله كثير من المؤلفات، فيها الأحاديث مروية بإسنادها، وبين أيادينا الآن «مسند الشافعى» و

«سنن الشافعى» و «الأم» للشافعى، وهو كتاب فقه بأحاديث مسندة، وبين أيدينا «اختلاف الحديث» للشافعى، و «الرسالة» للشافعى.

إن كتب الأئمة الأربعة الفقهاء، كتبهم فى الحديث شائعة ذائعة، ولو لم يأت البخارى وأصحاب الستة، فلقد كانت هذه الكتب كافية للسنة النبوية!!

أضف إلى ذلك:

٥ ـ مسند الطيالسى أبو داود المتوفى ٢٠٤، وقد بدأ فى جمعه سنة ١٣٥ وهو مطبوع شائع.

٦ ـ بين أيدينا من كتب السنة التى كانت أسبق من البخارى بكثير: «مصنف عبد الرزاق الصنعانى المتوفى ٢١١.

٧ ـ ومصنف ابن أبى شيبة المتوفى ٢٣٥.

٨ ـ ومسند ابن الجعد ـ شيخ البخارى ـ وقد كان رسالتى لنيل درجة الدكتوراه، وهو مطبوع شائع.

٩ ـ ومسند الحميدى ـ شيخ البخارى ـ وهو مطبوع متداول.

١٠ ـ وجامع معمر بن راشد المتوفى ١٥٣، وهو محقق، لكن حبيس فى مطبعته.

١١ ـ وكتاب «الآثار» لمحمد بن الحسن الشيبانى المتوفى ١٨٩.

١٢ ـ وكتاب «الآثار» لأبى يوسف المتوفى ١٨٢ وهما صاحبا أبى حنيفة.

١٣ ـ وكتب ابن المبارك المتوفى ١٨١ كتابه «المسند» بين أيدينا، وله أيضًا «الزهد والرقائق» و «الجهاد» و «البر والصلة» وكلها مطبوعة متداولة. وهو قبل أن يولد البخارى ومسلم وأبو داود. . . . إلخ.

أَبَعْدَ هذا يقول قائل: إن السنة جمعت بعد وفاة الرسول ﷺ بمائتى عام حينما جاء البخارى وأصحاب الكتب الستة؟

بل إننى لا أقول: السنة جمعت قبل البخارى، بل أقول إنه قبل البخارى ومسلم. . إلخ كان قد ظهرت علوم وكتب فى غاية الدقة فى السنة النبوية. كتب ليست فى جمع الأحاديث، وإنما فى دراسة الأحاديث، من ذلك:

١ ـ الرسالة للإمام الشافعى، وهى فى مصطلح الحديث، وأصول الفقه، وحجية السنة، وبخاصة خبر الآحاد.

٢ ـ اختلاف الحديث للشافعى.

٣ ـ العلل للإمام أحمد بن حنبل.

٤ ـ غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام.

فهل بعد هذا يقال إن السنة لم تظهر إلا بالبخارى؟

لقد جاء البخارى فى زمن التكميل أو التجميل فى المؤلفات الحديثية، فى زمن كانت المؤلفات قد كثرت، والسنة قد جمعت، ورتبت، وخدمت خير خدمة، فجاء البخارى فوضع نفسه فى زمنه، فألف الصحيح، وهو نوع تجميل، نوع رفاهية فى خدمة السنة.

لقد جاء البخارى وفى العالم الإسلامى مذاهب فقهية كاملة، منها المذهب الحنفى، والمالكى، والشافعى، والحنبلى، وغيرهم كثير، والفقه لا يتأتى إلا بعد اكتمال علم السنة، فإن الفقه خلاصة التفسير والحديث مع كثير من العلوم الأخرى.

وكتب الأصول كلها مجمعة على أن السنة هى الأصل الثانى بعد القرآن الكريم، وليس عندهم خلاف فى وجوب الاحتكام إلى السنة، وهم الذين استقصوا كتب السابقين ومذاهبهم، وتتبعوا الاختلافات حتى الشاذة منهم، واعتنوا بالرد عليها.

٢ ـ الرد على ادعاء تأخر الأمة بسبب السنة!!

يدعى منكرو السنة أن الأمة الإسلامية خلال القرن الأول والثانى من الهجرة كانت أمة قوية، لأنها كانت تعمل بالقرآن وحده، فلما عملت بالسنة ضاعت وانحدرت!!

وأقول: هذا خطأ من عدة نواح:

أ ـ فالأمة تعمل بالسنة منذ البعثة النبوية، رسول الله ﷺ يُعلِّم ويعمل، والأمة تمتثل وتقتدى.

إن السنة ليست شيئًا يختلف عن القرآن حتى يقال إن الأمة عملت بالقرآن دون السنة، لا، وإنما السنة بيان للقرآن، تدور فى فلكه، ولا تختلف عنه.

كيف صلى المسلمون خلال القرن الأول والثانى ؟ إنهم صلوا على هـدى رسول الله ﷺ، وعلى سنته.

وكيف زكّى المسلمـون خلال القرن الأول والثانى ؟ إنهم زكوا وفق هَـدْى رسول الله ﷺ، وفق كتابه الذى كتبه فى موضوع الزكاة، وهو شائع فى كتب السنة.

إنه لا يُتَصور أبدًا أن الأمة عملت بالقرآن دون السنة.

ومنكرو السنة يستشعرون هذا المعنى، ولذلك يضطرون إلى استثناء السنة الفعلية، فيقولون بها؟ لكنى أقول لهم: لا فرق بين السنة القولية والسنة الفعلية، فالرواة الذين نقلوا الفعلية هم الذين نقلوا القولية، والحديث الواحد قد يشتمل على سنة قولية، وسنة فعلية.

ب ـ السنة والقرآن من مشكاة واحدة، مصدرهما الوحى، فكيف تدعون أن العمل بالسنة هو الذى أخّر الأمة؟ ماذا فى السنة يوخِّر؟ يأمر القرآن بالأمر فتبينه السنة، وينهى عن الشىء فتبينه السنة، فمن أين يأتى التأخر؟

جـ ـ السنة منهج واضح نعمل به فى كل أمورنا، لا نجد فى أى شىء منها غضاضة، وإنما نجد فيها كل سمو وخير، فهل هناك أرقى وأسمى اجتماعيًا من قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(١)؟

هل هناك أرقى منهجًا من قوله ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»(٢).

لقد أجهدتم أنفسكم كثيراً من أجل أن تجدوا شيئًا يعيب السنة، فما استطعتم، فَرُحْتم تعيبونها بأمور تزيدها جمالاً:

---

(١) أخرجه البخارى.

(٢) أخرجه أبو يعلى رقم ٤٣٨٦ ص٧ ص٣٤٩، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٤/ ٩٨ رواه أبو يعلى، وفيه مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة.

الشبهة السادسة:
لقد تكفل الله بحفظ القرآن، ولم يتكفل بحفظ السنة؟!

سبق أن وضحت أن السنة بيان القرآن الكريم، واستدللت على ذلك بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية وأقوال السلف. ولا يعقل أن تكون السنة مبينة للقرآن، ويحفظ القرآن دونها[١].

هذا رد مبدئى لهذه الشبهة، فالسنة مع القرآن هما مصدر الإسلام، السنة تبين القرآن، والقرآن يبين السنة، ولا يتأتى حفظ أحدهما دون الآخر، ذلك أن ضياع أحدهما ضياع للآخر.

إن أعداء السنة يستدلون على هذه الشبهة بقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [٢] ويفسرون الذكر بالقرآن، ويقولون: إن الله تكفل بحفظه، أما السنة فلا، والجواب عليهم من ناحيتين:

الأولى: سلمنا جدلاً أن «الذكر» هو القرآن، إلا أن الآية تفيد حفظ الله سبحانه وتعالى السنة، فإن حفظ المبيَّن يقتضى حفظ المبيِّن، فما دامت السنة بيان القرآن الكريم، فإن حفظ القرآن يقتضى حفظ السنة، وإلا لبقى القرآن دون بيان فلا يكون قد حفظ.

وهكذا يستلزم حفظُ القرآن الكريم حفظَ السنة النبوية.

الثانية: نص الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فما هو الذكر المنزل؟ نراجع الكتب المتخصصة فى ذلك فنجد صاحب كتاب «بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز» ينقل عن أحد العلماء قوله: ذكر الله الذكر فى القرآن على عشرين وجهًا، وفيها الذكر بمعنى رسالة الرسول[٣]. هذا التفسير هو المتعين هنا، فإنه يجعل الآيات متوافقة.

---

(١) وذلك فى كتابى «المدخل إلى السنة النبوية» ص ١٢٥.

(٢) سورة الحجر آية ٩.

(٣) جـ٣ ص١٤.

ففى آية: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [(١)].

وهنا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فتفسير الذكر بمعنى الرسالة، والتى تشمل الكتاب والسنة هو الذى يجعل الآيات متوافقة، أنزل الله الكتاب والحكمة، ونزل الله الكتاب والحكمة وحفظهما، فتتفق المعانى.

وعليه فالآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ تفيد أن الله تبارك وتعالى تكفل بحفظ القرآن والسنة معًا، سواء قلنا بأنه سبحانه تكفل بحفظ القرآن، وهذا يستلزم حفظ السنة التى هى بيانه، أو أنه سبحانه تكفل بحفظ ما أنزل على رسوله من كتاب وسنة.

على أن حفظ القرآن وحفظ السنة كلاهما واقع ملموس، فأما القرآن فالأمة متوافرة بفضل الله على حفظه توافرًا عجيبًا، وقد يسره الله تيسيرًا كريمًا، يحفظه العربى وغير العربى يحفظه الصغير ويحفظه ويتقنه الكبير يحفظه المبصر والأعمى، وربما كان الأعمى فى حفظه أقوى!!

يحفظونه ويحفظون قواعد قراءته، ويؤلفون فى ذلك، ويطبقونه، مع ما فى الأمة من توافر بحمد الله على تفسيره، وتقريبه، حال يسر الخاطر ويسعد البال.

أما السنة فلقد أعطتها الأمة بسخاء، فارتحلوا فى سماعها، واجتهدوا فى جمعها، وتفانوا فى خدمتها والحفاظ عليها.

لقد خدموها من كل جانب، فجمعوا الأحاديث بأسانيدها، وترجموا لكل راو من رواتها، وشرحوا غريبها، وبينوا ناسخها من منسوخها، واستنبطوا أحكامها.

لقد رتبت الأحاديث على كل وجه، وقربت للعمل بكل حيلة. مع الصيانة التامة عن الضياع أو الزيادة.

وهذا يورث اليقين من أن الله تبارك وتعالى حفظ كتابه وسنة نبيه، وأنه سبحانه الذى أرسل محمدًا خاتم النبيين حفظ أصول دينه، لتظل الحجة قائمة على الخلق إلى قيام الساعة.

* * *

(١) سورة النساء آية ١١٣.

الشبهة السابعة

السنة ضاع منها الكثير، فأين خطب الجمعة التى خطبها رسول الله ﷺ طوال إقامته فى المدينة، إنها تقارب خمسمائة خطبة، أين هى؟

والجواب أولا بإيجاز[1]: نعم خطب رسول الله ﷺ الجمعة كثيرًا، وكانت خُطَبُه قصيرة ولقد حفظها الصحابة، وتناقلتها الأجيال إما بنصها، وإما جملة جملة[2]، أو جملتين، أو ثلاث حسبما يتم به المعنى، وأخرجها علماء الحديث فى كتبهم أيضًا إما بنصِّها، وإما مقطعة، ولو أردنا جمع خُطَبِه ﷺ لجمعناها.

والجواب بالتفصيل: هذا الاعتراض خطأ، وهذه الشبهة من الزيف بمكان، فإن منكرى السنة لم يقوموا بالدراسات التى تؤهلهم للكلام فى ذلك، إنهم لم يدرسوا منهجه ﷺ فى خطبه، ولم يدرسوا منهج الصحابة والأجيال اللاحقة فى تناقل خطبه، ومن هنا فلا يحق لهم أن يشوشوا ولا أن يشتبهوا.

لكنى أكتب فى ذلك بإيجاز حفاظًا على فكر المسلم، لا احترامًا لاعتراضهم أو استشكالهم.

وألخص الجواب فى الآتى:

أولاً: إن قولهم بأنه ﷺ له ٥٠٠ خطبة هذا قول مصدره أن السَّنَة الهجرية فيها ٥٠ أسبوع ومكث ﷺ فى المدينة عشر سنوات، فيكون خطب ٥٠٠ خطبة، ومن هنا يريدون منا أن نحضر لهم كتابًا فيه ٥٠٠ خطبة.

وهذا خطأ من جهتين:

أ ـ لم تكن خطبه ﷺ كلها مبتكرة، وإنما كان ﷺ أحيانًا يخطب بالسورة من القرآن الكريم، فخطب بسورة «ق»، وخطب بسورة «ص»، وتكرر هذا فى عدد

(١) يمكننى دفع هذه الشبهة بأن أقول: إن كتاب «خطب الرسول ﷺ» للشيخ محمد خليل الخطيب يحتوى على ٥٧٤ خطبة، وهو مطبوع شائع، وتاريخ تأليفه فى ٢٥ ربيع الثانى ١٣٧٣هـ، أى أنه قبل إيراد شبهتهم هذه بثمان وأربعين سنة.

(٢) الجملة: كلمة أو كلمات تفيد معنى، مثل «لا تغضب» ومثل «اتق الله حيثما كنت».

من خطبه.

فعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: «ما حفظت (ق) إلا من في[١] رسول الله ﷺ يخطب بها كل جمعة، وكان تَنُّورنا[٢] وتنور رسول الله ﷺ واحدًا»[٣].

إن هذه الصحابية بنت الصحابي كان بيتها قريبًا من بيت رسول الله ﷺ حتى كان الفرن الذي يصنع فيه الخبز واحدًا، وبالتالي فلقد كانت قريبة من مسجد النبي ﷺ، فمكنها هدا من حضور الصلوات في مسجده ﷺ، ولقد حضرت صلاة الجمعة معه ﷺ، وسمعته وهو يخطب بسورة «ق» فحفظتها منه ﷺ.

وهذا هو أبو سعيد الخدري يقول: «خطبنا رسول الله ﷺ يومًا، فقرأ «ص» فلما مر بالسجدة نزل فسجد وسجدنا، وقرأها مرة أخرى، فلما مر بالسجدة تبشرنا بالسجود، فلما رآنا قال: إنما هي توبة نبي، ولكني أراكم قد استعددتم للسجود، فنزل فسجد وسجدنا»[٤].

ب ـ وكان ﷺ يكرر الخطبة أحيانًا، فليست كل خطبه مبتكرة تمامًا، ذلك أن الموقف موقف تذكير، فلربما ذكرهم بما ذكرهم به قبل ذلك. واضح ذلك من الحديثين السابقين، فلقد كرر ﷺ الخطبة بسورة «ق» وبسورة «ص».

وبناء على هاتين الحقيقتين:

أ ـ أنه كان يخطب أحيانًا بالسورة من القرآن.

ب ـ أنه كان يكرر الخطبة.

فإن خطبه ﷺ ليست بعدد أسابيع حياته في المدينة، أي أنها ليست ٥٠٠ خطبة.

ثانيًا: كانت خطبته ﷺ عدة جمل، تعطي الجملة معنى مستقلاً في الكثير

---

(١) فم.

(٢) الفرن الذي يخبز فيه.

(٣) أخرجه مسلم في الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢/ ٥٩٥ رقم ٨٧٣.

(٤) أخرجه الحاكم في الجمعة باب قراءة سورة «ص» في الجمعة والسجود فيها ١/ ٢٨٤ وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

الغالب، وربما أعطت المعنى جملتان أو ثلاث، لم يكن ﷺ يطيل الخطبة، وهو ﷺ القائل: «إن طول صلاة الرجل، وقصر خطبته مَئِنَّةٌ من فقهه، فأطيلوا الصلاة، واقصروا الخطبة، وإن من البيان سحرًا»[١] ومعنى «مَئِنَّة»: علامة.

وعن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ «لا يطيل الموعظة يوم الجمعة إنما هن كلمات يسيرات»[٢].

وكان الصحابة يسمعون خطبته ﷺ فيحفظونها، لكنهم لا يتحدثون بها كاملة، ولا يتعاملون معها كوحدة واحدة، وكخطبة تلازمت جملها ببعض، وإنما كانوا يهتمون بما تفيده من معانى. ومن هنا يهتمون بالجملة أو الجمل التى تفيد معنى مستقلاً، يذكرون الجملة أو الجمل فى مناسبتها.

ولقد حُفظت هذه الخطب فى كتب السنة، سواء منها ما صرح فيه بأنه خطبة وسيقت كاملة وما التقى منها يخص الموضوع الذى يتحدث فيه.

وأسلوب خطبه ﷺ واضح، يعرفه المتخصصون.

وأذكر خطبة من خطبه ﷺ أوضح بها ذلك، أى أوضح بها أن خطبته ﷺ كانت قصيرة، ومكونة من جمل، وأن الأمة تناقلت جملها، وشاعت فى كتب السنة، وهذا هو الكثير، وأحيانًا تنقلها كاملة:

فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يخطب الناس، فيحمد الله، ويثنى عليه بما هو أهله، ثم يقول:

من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له.

وخير الحديث كتاب الله، وخير الهَدى هَدْى محمد.

وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

وكان إذا ذكر الساعة علا صوته، واحمّرت وجنتاه، واشتد غضبه، كأنه منذر جيش يقول: صبّحكم ومسّاكم.

---

(١) أخرجه مسلم فى الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢/ ٥٩٤ رقم ٨٦٩.

(٢) أخرجه الحاكم فى كتاب الجمعة باب الأمر بإقصار الخطب ١/ ٢٨٩ وصححه، وأقره الذهبى.

من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك دَيْنًا أو ضَيَاعًا[١] فإلىّ وعلىّ، أنا أولى بالمؤمنين»[٢].

إن هذه الخطبة شائعة فى كتب السنة، لكن ليس بكاملها، وإنما كما قسمتها هنا، فكل جملتين أو ثلاث تناقلهم المحدثون فى الباب الذى يناسبهم فقوله ﷺ: «شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» هذا فى كتاب «الإيمان» خرّجه كثير من المحدثين.

أما قوله ﷺ: «من ترك مالا فلورثته، ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإلىّ وعلىّ، أنا أولى بالمؤمنين» فهذا فى كتاب التفسير عند تفسير قوله تعالى: ﴿النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٣] ذكره كثير من المحدثين بأسانيدهم.

وهكذا عالجت الخطبة عدة موضوعات، فتناقل المحدثون أحيانًا جملاً حسب ما تقتضيه منهجية البحث العلمى عندهم، من ترتيب الأحاديث على الأبواب. وأحيانًا بنصها.

إن المحدثين من صحابة وتابعين وغيرهم لم يذكروا الخطبة كاملة كلما احتاجوا جملة منها فإنهم لو فعلوا ذلك لطال الأمر وشق، وإنما يذكرون منها ما يدل على مسألتهم.

وأرى أن إيراد النموذج الآتى يزيد الأمر وضوحًا:

فعن البراء بن عازب قال: «خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر بعد الصلاة، ثم قال: من صلى صلاتنا، ونسك نسكنا[٤]، فقد أصاب النسك، ومن نسك[٥] قبل الصلاة، فتلك شاة لحم. قال أبو بردة بن نيار: يا رسول الله، لقد نسكت قبل أن

---

(١) الضياع: الأشخاص الضعفاء من والدين كبيرين، وزوجة أو زوجات، وأولاد صغار، فهؤلاء يقوم ﷺ برعايتهم، وتوفير أسباب الحياة لهم.

(٢) أخرجه البيهقى فى الجمعة باب كيف يستحب أن تكون الخطبة ٣/ ٢١٣، وهو عند مسلم فى الجمعة أيضًا باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢/ ٥٩٢ رقم ٨٦٧ وإنما خرجته من البيهقى لكثرة ما فيه من خطبه ﷺ عما عند مسلم.

(٣) سورة الأحزاب الآيات الأولى.

(٤) النسك: العبادة، والمراد بها هنا ذبح الأضحية.

(٥) أى ذبح أضحيته.

أخرج إلى الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب، فتعجلتُ، فأكلت، وأطعمت أهلى وجيرانى، فقال رسول الله ﷺ: تلك شاة لحم. قال: فإن عندى عناقًا جذعة خير من شاتى لحم، فهل تُجزئ عنى؟ قال: نعم، تُجزئ عنك، ولن تجزئ عن أحد بعدك»(١).

لقد صرح الصحابى الجليل أن توقيت ذبح الأضحية بعد صلاة عيد الأضحى إنما كان فى خطبة من خطب رسول الله ﷺ، لكنا نجد الصحابى الجليل جابر بن عبد الله يقول: «إن رجلاً ذبح قبل أن يصلى النبى ﷺ: فقال النبى ﷺ: لا يجزئ عن أحد بعدك أن يذبح حتى يصلى»(٢).

لقد اقتصر جابر بن عبد الله على الحكم، وأن ذبح الأضحية يكون بعد صلاة عيد الأضحى، اقتصر هذا الصحابى على الحكم فقط من الخطبة، ودون أن يصرح بأن هذا كان فى خطبة من خطبه ﷺ، ولم يصرح باسم الرجل الذى ذبح قبل الصلاة.

إن اهتمامهم كان منصبًا على كلامه ﷺ، ومركزًا على أصول الدين، بأوجز عبارة، وبأقل الكلمات.

وهكذا شاعت خطبه ﷺ فى كتب السنة، إما على صورتها كخُطب، وإما بعباراتها وجملها.

ولو أراد باحث أن يجمع خطبه ﷺ لجمع الكثير والكثير، وأمامى وأنا أكتب عدد كثير من خطبه ﷺ، ولولا مخافة الطول لذكرته. لكن المقام لا يسمح بذلك.

وخطبته ﷺ فى حجة الوداع توضح بجلاء كل ما ذكرته(٣).

* * *

(١) أخرجه ابن حبان فى الأضحية ١٦/ ٢٣١ رقم ٥٩١٠.

(٢) أخرجه ابن حبان قبل الحديث السابق برقم ٥٩٠٩.

(٣) راجع خطبة حجة الوداع فى البخارى رقم ٦٧، ١٥٠، ١٧٤١، ٣١٩٧، ٤٤٠٦، ٤٦٦٢، ٥٥٥٠، ٧٠٧٨، ٧٤٤٧. وفى مسلم رقم ١٦٧٩ وفى أبى داود رقم ١٩٣١، ١٩٣٢ وفى المستدرك ١/ ٩٣ وفى الطبرانى ٢٥/ ٣١٩.

وهكذا يتضح أن قول منكرى السنة بأن ٥٠٠ خطبة جمعة من خطب رسول الله ﷺ قد ضاعت قول باطل، وذلك من وجهين:

١ ـ خطبه ﷺ ليست بهذا العدد، فلقد كان يخطب بالسورة من القرآن الكريم، وأحيانًا تكون الخطبة مكررة.

٢ ـ خطبه ﷺ قصيرة ومركزة، تشتمل على عدة جمل، تناقلتها الأمة جملاً، لا على شكل خطبة، وتناقلها المحدثون فى كتبهم أحيانًا بنصها، وأحيانًا جملاً حسب موضوع الباب الواردة فيه.

ولو أراد باحث جمع خطبه ﷺ لجمعها.

من مصادر خطبه ﷺ:

سبق أن ذكرت شيئًا من مصادر خطبه ﷺ[1]، وأضيف قدرًا آخر، لكن أذكره على سبيل الإيجاز، فذلك الذى يقتضيه المقام:

١ ـ ذكر القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣هـ عددًا من خطبه ﷺ، وذلك فى كتابه «إعجاز القرآن».

٢ ـ جاء فى كتب السنة النبوية عدد من خطبه ﷺ.

ففى: «السيرة النبوية» لابن هشام عدد من خطبه ﷺ[2].

وفى كتاب «سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد» لابن يوسف الصالحى عدد من خطبه ﷺ[3].

وفى البداية والنهاية **لابن كثير** أيضًا عدد من خطبه ﷺ[4].

وفى «دلائل النبوة» **للبيهقى عدد** من خطبه ﷺ[5].

وغير ذلك من كتب السيرة **كثير،** فيه كثير من خطبه ﷺ.

---

(١) وذلك من كتاب صحيح مسلم، والسنن الكبرى للبيهقى.

(٢) المجلد الأول ص ٥٠٠.

(٣) جـ٣ ص٤٧٧.

(٤) جـ٣ ص٢١٣.

(٥) راجع جـ٢ ص٥٢٤ وغير ذلك.

٣ ـ اشتمل كثير من كتب السنة على كثير من خطبه ﷺ، أذكر من ذلك:

أ ـ صحيح البخارى، يراجع فيه:

كتاب الجمعة باب رقم ٢٩.

كتاب العيدين باب رقم ٥ ورقم ٢٣.

كتاب الكسوف باب رقم ٥.

كتاب بدء الخلق باب رقم ١٤.

كتاب المناقب باب رقم ٢٥.

كتاب الحج باب رقم ١٣٢.

كتاب الصلاة باب رقم ٨٤.

كتاب فضائل القرآن الباب الأول.

ب ـ صحيح مسلم، يراجع فيه:

كتاب الصيام حديث رقم ٢١٢.

كتاب الجمعة حديث رقم ٤٣ ـ ٥٢.

كتاب الإمارة حديث رقم ٣٦.

جـ ـ سنن أبى داود، ويراجع فيه:

كتاب الديات باب رقم ١٧.

كتاب المناسك باب رقم ٦٩ ـ ٧١.

كتاب اللباس باب ١٨.

د ـ سنن النسائى، ويراجع فيه:

كتاب الحج باب ١٨٧.

كتاب الجهاد باب رقم ٨.

هـ ـ سنن ابن ماجه، ويراجع فيه:

المقدمة باب رقم ٦، ٧.

كتاب المناسك باب رقم ١٠٣.

و ـ مسند أحمد:

جـ٢ صـ٧٢، ٨٨ وجـ٤ صـ٧٦، ٨٠، ١٠٠، ١٠١.

ز ـ مستدرك الحاكم:

جـ١ صـ٨٧، ٩٣، ٢٨٤ فما بعدها.

ح ـ صحيح ابن حبان:

جـ٧ حديث رقم ٢٧٩٩ وجـ١٣ حديث رقم ٥٩١٠ وجـ١٦ حديث رقم ٧٤٧٩، ٧٤٥٨.

ط ـ مسند أبى يعلى:

جـ٢ حديث رقم ١١٨٢، وجـ٣ حديث رقم ١٤٦٠ وجـ٤ حديث رقم ٢١١٣. وجـ٥ حديث رقم ٢٧٠١.

ى ـ معاجم الطبرانى، وفيها كثير من خطبه ﷺ، ولقد أفرد الطبرانى مؤلفًا بعنوان «الأحاديث الطوال» مما ذكر فيه عدد من خطب رسول الله ﷺ، وهذا المؤلف مطبوع فى نهاية المعجم الكبير جـ٢٥ ص١٨٩.

ك ـ سنن البيهقى الكبرى:

جـ٢ صـ٩٠، ١٧١ ـ وجـ٣ ص٢١٣.

ويراجع أيضًا:

ل ـ كتاب «مجمع الزوائد» لنور الدين الهيثمى، يراجع فيه:

جـ٢ ص١٩١، ٢٢٦ وجـ٧ ص١٨٧ وجـ١٠ ص٢٢٨.

م ـ و«جامع الأصول» لابن الأثير:

جـ٣ ص٤٢٧، وجـ٦ ص١٤١، ٢٨٢، ٤٥٧، وجـ٨ صـ٥٨٦.

هذه بعض المراجع التى يمكن الرجوع إليها للاستزادة من خطبه ﷺ، تراجع فيها المواضع التى ذكرتها، وقبلها وبعدها وإحالاتها، ولولا خشية الطول لذكرت خطبه ﷺ التى فيها، ولجمعت أيضًا من غيرها.

وفى زماننا خدمت خطبه ﷺ:

وسبحان من أحاط بكل شىء علمًا، سبحان الله العظيم، إنهم قبل أن يثيروا هذه الشبهة وفق الله بعض العاملين فى حقل السنة فقاموا بخدمة خطبه ﷺ، حتى إنه ليتضح للباحث أن خطب رسول الله ﷺ اجتُهد فى خدمتها فى الفترة الأخيرة، وقبل أن يثيروا شبهتهم هذه بقرابة نصف قرن من الزمان.

ـ فألف محمد خليل كتابه «خطب الرسول ﷺ» جمع فيه ٥٧٤ خطبة مع ذكر مصادرها وشرح غريبها، والكتاب مطبوع شائع.

ـ وألف إبراهيم محمد الجمل كتابه «جامع الأصول من خطب الرسول ﷺ».

ـ وألف عمرو عبد المنعم سليم كتابه «صفة خطبة النبى ﷺ».

ـ وجمع الشيخ محمود خطاب السبكى رحمه الله تعالى كثيرًا من خطبه ﷺ وذلك فى كتابه «الدين الخالص».

ـ وفى كتاب ابن طولون «إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين» قدر من خطبه ﷺ.

وغير هذا كثير بما معه يمكن جمع خطبه كلمة كلمة.

* * *

الشبهة الثامنة

لم تعتن الأمة بنقد الأحاديث النبوية، والبحث فى صوابها أو خطئها!!

إن أعداء السنة يريدون من المسلمين إذا سمعوا حديث رسول الله أن يبحثوه، ليتبين أخطأ هو أو صواب!!

سبحان الله!! لقد آمن الصحابة أنه رسول الله، وقال الله فى حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [1]. لقد آمنّا أنه يبلغنا عن الله خالق الكون، فهل نبحث وراءه!!

فإذا قال رسول الله ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه»[2] هل يبحث الصحابة وراءه؟

أما نحن المسلمين فنتلقى أحاديثه ﷺ بالسمع والطاعة، أما الكفرة، أما المنافقون فيدرسونها ليستفيدوا منها، ولم يقفوا إلا على صحة كل ما قال ﷺ، ليبحثوا هم لأنهم غير مؤمنين، أما نحن المؤمنين فنمتثل كل ما جاءنا به ﷺ.

أما منْ بعد الصحابة فإنهم يدرسون الحديث وفق قواعد جاءت فى الكتاب والسنة[3] قواعد اعترف بعظمتها القاصى والدانى ـ فإذا ثبت أنه ﷺ قال الحديث فنحن نتلقاه بكل رضا وطواعية، ونؤمن أنه من عند الله الخالق سبحانه وتعالى، وأن السعادة كل السعادة فى العمل به.

إن الذين يريدون فتح باب عرض السنة على آرائهم، إنما يريدون فتح باب الهوى، يريدون إبطال الإسلام، وتحكم الآراء فى الدين. وإلا فإن أئمة الحديث قد درسوا الحديث من كل جانب قبل الحكم بصحته، فعرضوه على الآيات القرآنية، وعلى الأحاديث الأخرى، وعلى العقل، وذلك بعد دراسة رواته،

---

(١) أول سورة النجم.

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل ٧/ ٥١ وقال: حسن صحيح. وابن ماجه فى الأطعمة باب الاقتصاد فى الأكل ٢/ ١١١ وأحمد ٤/ ١٣٢.

(٣) راجع كتب مصطلح الحديث، ففيها هذه القواعد التى سار عليها المحدثون قديمًا وحديثًا، وليس ذلك عند أى أمة أخرى لنصوص دينها، أو لتاريخها.

ومعرفة أحوالهم، فلِمَ ينادى أعداء السنة فى هذا الزمان بهذا النداء؟

لا أرى مبررًا لذلك إلا فتح الباب لأغراضهم فى تشويه الإسلام، وإلا فما من كلمة قالها ﷺ إلا تزيدها الأيام جدة، وتشهد البحوث العلمية بكل صدق فالحديث المتقدم ـ «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه» ـ يعترف العلم بصحته تمامًا، وينحنى الطب أمامه، ومن عمل به فاز صحيًا، وفكريًا، واجتماعيًا.

ماذا يقول علماء الاجتماع والإنسانيات فى قوله ﷺ ـ لمن جاء يسأله أن يوصيه ـ «لا تغضب»[١].

كم تساوى هذه الوصية!!

فكم من شرور حصلت بسبب الغضب، كم من مصائب حدثت بسبب الغضب، لقد أزاح كثيرًا من الشرور وأسعد فى كثير من الأمور بكلمة واحدة، وأحاديثه ﷺ يغذيها عقيدة الإيمان بأنه رسول الله، فيتلقاها المسلم بكل رضى وطواعية، بكل أدب وامتثال. غير محتاج لبحث وفحص، وإلا فهو متبع للبحث لا لرسول الله ﷺ.

لقد قال ﷺ: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث»[٢] وبيّن الخمر فقال «كل مسكر خمر» وحذر من المسكرات كثيرًا، فماذا تقول الدنيا الآن بعد أكثر من أربعة عشر قرنًا (أكثر من ١٤٠٠ سنة).

إن المسكرات كم دمرت من شباب وشابات، وكم دمرت من مبالغ مالية، وكم كانت سببًا فى جرائم.

وإنه لمن دلائل نبوته ﷺ هذا اللفظ «كل مسكر خمر»[٣] لقد بين بيانًا فى غاية الدقة، إننا لو بقينا لتفسير القرآن فى قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤] لو

(١) أخرجه البخارى فى الأدب باب الحذر من الغضب ١٠/ ٥١٩.
(٢) أخرجه النسائى فى الأشربة باب ذكر الآثام المتولدة عن شرب الخمر ٨/ ٢٨٢، ٢٨٣.
(٣) أخرجه مسلم فى الأشربة باب بيان أن كل مسكر خمر ٣/ ١٥٨٧.
(٤) سورة المائدة آية ٩٠.

بقينا دون بيان منه ﷺ لفسرنا «الخمر» بما يصنع من العنب، فجاء حديثه ﷺ مبيّنًا، أن الخمر هى كل ما أسكر، وكشفت الأيام عن أشياء مسكرة فى غاية الخطورة هى أبشع من الخمر المتخذ من الزبيب، وهى الداهية الدهياء.

إن أقواله ﷺ قد محصها أئمة الإسلام الأعلام، وبحثوها من كل زاوية، وحققوا ودققوا، والأيام تثبت عظمتها وجدارتها بسعادة البشرية، فماذا يريد مَنْ لا دراية لهم بالإسلام؟

يريدون تمحيص حديث رسول الله فوق عمل الأئمة الأعلام من المحدثين؟

أهم أدرى من الإمام مالك الذى ولد يوم مات الصحابى المشهور أنس بن مالك وطلب العلم فى حياة آخر الصحابة، وتعلم على يد أبناء الصحابة وتلامذتهم، أخذ العلم عن عامر بن عبد الله بن الزبير، الذى أبوه عبد الله بن الزبير الصحابى الجليل، وأخذ العلم عن نافع مولى عبد الله بن عمر، وكانت له حلقة علم فى حياة نافع.

وأخذ العلم عن ابن شهاب الزهرى، وهو مَنْ هو فى حفظه وإتقانه.

إنه يروى عن التابعين عن الصحابة، ويعيش فى المدينة المنورة، دار هجرة رسول الله ﷺ، ومدرسة الإسلام الأولى وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد تربى وسط جو علمى رائع، ووسط إسلام عملى تطبيقى تحدث عن نفسه فقال: ما أفتيت حتى شهد لى سبعون أنى أهل لذلك. وقال الشافعى: إذا ذُكر العلماء مالك النَّجْم، وما أحد أمنّ علىّ من مالك بن أنس. وقال أيضًا: إذا ذكر الأثر فمالك النجم.

أى أن الإمام مالك هو أجل العلماء، وأدراهم بحديث رسول الله ﷺ، وهو أستاذ الشافعى ومعلمه.

مالك إمام دار الهجرة فى زمانه، وصاحب المذهب الفقهى المشهور، الذى ذاع فى البلاد الإسلامية.

مالك الذى حمل الأئمة الكبار عنه العلم،وفسروا حديثًا من أحاديث رسول الله ﷺ عليه.

فلقد قال ﷺ: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل[(١)] فى طلب العلم، فلا يجدون عالمًا أعلم من عالم المدينة»[(٢)]. فقال كبار العلماء: هذه بشارة منه ﷺ تحققت بالإمام مالك.

هذه عجالة سريعة فى التعريف بالإمام مالك، فهل منكرو السنة الذين هم فى تخصصات غير إسلامية، هل هم أدرى بالإسلام من الإمام مالك حتى يطالبون بنقد السنة بعقلهم العارى عن التخصص فى الإسلام؟

ومثل الإمام مالك كثير، كالإمام الشافعى، والإمام الليث بن سعد، والإمام أحمد بن حنبل، أئمة كثيرون، توفروا على دراسة القرآن الكريم، ودراسة السنة النبوية، وهم قريبون من رسول الله ﷺ فى الزمن، واللغة العربية كانت شائعة ذائعة، وهم أهلها وحجة فيها، فهل مثل هؤلاء تبقى النصوص بعدهم فى حاجة لإعمال عقل المعاصرين فى نقدها؟

أم أن الحقائق انقلبت فأصبح من لا دراية له بالإسلام يتكلم فيه، ويريد أن يُقبل كلامه ويُرد كلام أئمة الإسلام، الذين درسوا علوم الإسلام بكل دقة، واستوعبوا نصوصه بكل إحاطة، وعندهم من العقل والقدرة على الاستنباط ما يفوق غيرهم؟

إن مَنْ عنده عقل يؤمن بأن علماء الإسلام منذ العهد النبوى، قد درسوا علوم الإسلام بما فيه الكفاية، وسعادة أهل زماننا أن يفهموا ما كتب السلف، وأن يعلموا، ويكفى المتخصصين أن يُقرِّبوا هذا التراث العظيم لغير المتخصصين، ويستنبطوا من النصوص علاج المشاكل المعاصرة.

إن الأحاديث فى زماننا لا نحتاج من ينقدها، وإنما نحتاج من يقربها للناس، ليعملوا بها، تحتاج من يذيعها وينشرها على مسامع البشرية لتسعد بها فى الدنيا والآخرة. تحتاج من يطبقها فى بيته ومجتمعه.

* * *

(١) يسافرون مسافات بعيدة.

(٢) أخرجه ابن حبان فى الحج باب فضل المدينة ذكر الخبر الدال على علماء أهل المدينة يكونون أعلم من علماء غيرهم ٩/ ٥٢ رقم ٣٧٣٦ وفيه زيادة تخريج.

الشبه الخاصة

وأعداء السنة يحاربونها من كل ناحية، فيثيرون الشبه العامة، ويثيرون الشبه الخاصة، والتى تتمثل فى:

أ - شبهات حول بعض الأحاديث.

ب - شبهات حول الرواة المشاهير.

ج - شبهات حول الأئمة الكبار.

وأسوق نماذج مختصرة، الغرض منها تنبيه القارئ ليحترز من هذه الشبهات:

أ- شبهات حول بعض الأحاديث

• حديث: «لولا حواء لم تخن أنثى زوجها»(١).

يقولون: هذا الحديث يتعارض مع العقل؛ إذ كيف تخون حواء آدم ومع مَنْ من الرجال، ولا رجال إلا هو؟

الرد: كلامهم هذا مبنى على خطأ، وما بنى على خطأ فهو خطأ، إن الحديث ليس معناه أن حواء زنت، وإنما معناه أنها خانت آدم، وذلك لأنها لم تمحص الرأى حينما وسوس لها إبليس بالأكل من الشجرة، فراحت تجتهد مع إبليس على آدم تقنعه بالأكل من الشجرة، وكل من لم يجتهد فى إظهار الصواب فى المشورة فليس بأمين، كما أن من أخلص فى المشورة، واجتهد فى معرفة الصواب فيها فهو أمين، كما فى قوله ﷺ: «المستشار مؤتمن»(٢).

وكل من لم يتق الله فى شركته مع آخر فهو خائن، ومنه الحديث القدسى: «أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه»(٣).

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى الأنبياء الباب الأول (خلق آدم وذريته) ٦/ ٣٦٣ حديث رقم ٣٣٣٠ وفى باب قول الله تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ ٦/ ٤٣٠ رقم ٣٣٩٩. وأخرجه أيضًا مسلم. وغيرهما.

(٢) أخرجه أبو داود فى الأدب باب فى المشورة ١٤/ ٣٦.

(٣) أخرجه أبو داود فى البيوع باب فى الشركة ٩/ ٢٣٦.

فحملهم الخيانة على الزنا خطأ، وما ترتب عليه من القول بأن الحديث معارض للعقل فهو أيضًا خطأ.

يقول الحافظ ابن حجر: وقوله ﷺ: «لم تخن أنثى زوجها» فيه إشارة إلى ما وقع من حواء فى تزيينها لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع فى ذلك.

فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين إبليس حتى زينته لآدم، ولما كانت هى أم بنات آدم أشبهنها بالولادة ونزع العرق، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو بالقوة، وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش، حاشا وكلا، ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة، وحسنت ذلك لآدم، عُدّ ذلك خيانة له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها، وقريب من هذا حديث «جحد آدم فجحدت ذريته»[(١)].

وفى الحديث إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أمهم الكبرى، وأن ذلك من طبعهن، فلا يفرط فى لوم من وقع منها شىء من غير قصد إليه، أو على سبيل الندور، وينبغى لهن أن لا يتمكن بهذا فى الاسترسال فى هذا النوع، بل يضبطن أنفسهن، ويجاهدن هواهن[(٢)].

وعليه فلا تعارض بين الحديث وبين العقل، فحواء أقنعها إبليس بالأكل من الشجرة، فساعدت على إقناع آدم، وذلك نوع من الخيانة، سترث قدرًا منه كل بنت من بناتها إلا من رحم ربى.

لقد درس علماء الإسلام الحديث، وبينوا الدروس التى تؤخذ منه، فجاء أعداء السنة فحملوا الحديث على معنى آخر، ثم راحوا يعترضون به على السنة عمومًا، وأن فيها أحاديث تخالف العقل!!

والحق: أنه لا مخالفة، والحديث صحيح، يسعد الأسر، ويقوى المجتمع.

* * *

---

(١) أخرجه الترمذى فى التفسير باب من سورة الأعراف ٨/ ٤٥٧، ٤٥٨ وقال حسن صحيح. وأخرجه أيضًا أحمد، وابن أبى حاتم، والحاكم.

(٢) فتح البارى شرح الحديث المتقدم «لولا حواء. . . » ٦/ ٣٦٨.

● حديث: «إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه كله، ثم ليطرحه فإن فى إحدى جناحيه داء، وفى الأُخرى شفاء»[١].

أعداء السنة قديمًا وحديثًا يدندنون بهذا الحديث، ويدّعون أنه مناقض للعقل، وأنه يأباه الطبع، سبحان الله!!

وأتساءل معهم: ألم تستعملوا البنسلين إذا مرضتم، إنه مصنوع من العفن!!

أما الستربتومايسين فإنه من طفيليات العفن وجراثيم المقابر!!

والعقرب فى لسعتها السم الناقع، وفى جسمها الدواء النافع.

إنكم تقبلون ذلك عن الطب، أما إذا جاء من رسول ﷺ فإنكم تعترضون، وتمرضون.

أما نحن المسلمين فإننا نقبل هذا الحديث، وكل الأحاديث بكل سعادة، وبكل سمع وطاعة، فإنه كلام من أرسله الله وعصمه، ﷺ وبارك عليه.

إننا استفدنا من هذا الحديث أشياء كثيرة، منها:

١ ـ أن الذباب ناقل للأمراض، فنحترز منه ما أمكن.

٢ ـ أنه يحمل الجراثيم فى أحد جناحيه.

٣ ـ أنه حينما ينزل فى طعام أو شراب فإنه يضع جناحه الحامل للمرض، كما فى رواية «وإنه يتقى بجناحيه الذى فيه الداء»[٢] وفى رواية: «إنه يقدم السم ويؤخر الشفاء»[٣]. قال بعض العلماء: تأملناه فوجدناه يتقى بجناحه الأيسر، فعلم أن الأيمن هو الذى فيه الشفاء.

٤ ـ أن الجناح الآخر فيه دواء يقضى على المرض الناتج عما فى جناحه الممرض.

* أن ضرر الذباب إنما يتقى بغمسه فى الإناء الذى وقع فيه.

---

(١) أخرجه البخارى فى بدء الخلق باب إذا وقع الذباب فى شراب أحدكم... ٦/ ٣٥٩ حديث رقم ٣٣٢٠ وفى الطب باب إذا وقع الذباب فى الإناء ١٠/ ٢٥٠ رقم ٥٧٨٢.

(٢) هذه الرواية عند أبى داود وابن حبان.

(٣) هذه الرواية عند النسائى وابن ماجه وابن حبان عن أبى سعيد.

إن الحديث يفيدنا هذه الفوائد، وأكثر منها، وجاء الطب والبحث فاعترف بهذا وسلّم به.

فمنذ أن عُرفت المعامل، وهذا الحديث أمامهم، والبحوث تفيد أن الذباب حامل جيد للجراثيم، وأجهزة الصحة فى العالم تحذر من تناول الأطعمة التى يقع عليها الذباب.

إنه من دلائل نبوته ﷺ أن يخبر فى زمنه أن الذباب حامل للأمراض. ولم تعرف البشرية هذا إلا حينما اكتشف ذلك الباحث الألمانى «بريفلد» فى سنة ١٨٧١[١].

وفى الفترة من ١٩٤٧ ـ ١٩٥٠ تمكن الباحثان الإنجليزيان «آرنشتين وكوك» والباحث السويسرى «روليوس» من عزل مادة سموها «جافا سين» استخرجوها من فصيلة الفطور التى تعيش فى الذباب، وتبيّن لهم أن هذه المادة مضادة للحيوية، تقتل جراثيم مختلفة من بينها الدوسونتاريا، والتيفود.

كما توصل غيرهم فى نفس هذه الفترة إلى هذه النتائج[٢].

وهذا أيضًا من دلائل نبوته ﷺ، أن يخبر قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام أن الذباب فى أحد جناحيه شفاء، ولم تعرف البشرية ذلك إلا بعد (١٣٧٠) سنة.

لو كان هناك إنصاف فى الفكر الإنسانى المعاصر، لاعترفت البشرية للإسلام بالسبق العظيم فى مثل هذه المسائل، وفى غيرها، فلقد تكلم ﷺ على مسائل غاية فى الأهمية، امتثلها المسلمون فاستفادوا بها، وقلدهم غيرهم مدركين عظمة الحضارة الإسلامية التى ارتقت بالإنسان فاستفادوا أيضًا بها.

إن الذى يكتشف أمرًا جزئيًا يقيمون له: براءات الاختراع!!

ويقيمون له: السبق العلمى!!

أما القرآن والسنة ففيهما الخير، كل الخير، لكنها يجدان الكثير من التلكؤ والمعارضة. من أعدائهما، ولا يجدون النصرة من أهلهما.

(١، ٢) راجع كتاب «الرسول ﷺ» للأستاذ سعيد حوى ص٣٨ ـ ٨٢.

* البحوث العلمية والذباب:

نشرت جريدة الأخبار المصرية فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٩/٦/٢٩ - /٣/ ١٤٢٠هـ خبرًا هذا عنوانه، ومفاده:

«الذباب لعلاج الجروح والقرح»:

توصل العلماء بمستشفى أميرة ويلز فى بريطانيا إلى استخدام اليرقات[1] المعقمة لذبابة لاسيليا سركاتا (Lacilia sericata) فى تنظيف وعلاج الجروح والقرح، فقد ثبت أن اليرقات تفرز إنزيمات تحلل بروتينات الخلايا الميتة المتراكمة بالجروح والقرح، تاركة الخلايا السليمة.

كما وجد أن اليرقات تزيل الرائحة الكريهة المنبعثة من القرح، لابتلاعها البكتريا المسببة لذلك.

كما ثبت أيضًا أن هذه اليرقات تخفف الألم الذى يسببه الجرح، وتنشط تكوين الأنسجة الجديدة، فتسرع إلى العلاج، والتئام الجروح والقرح.

اليرقات تعالج الجروح والحروق وقرح الفراش، وقرح ساق مريض السكر.

أقول لمنكرى السنة: من لفت الأنظار لهذه الفوائد فى الذباب؟

إنه المعصوم ﷺ، الذى علمه الله الكثير من أسرار الكون، فكان اللائق أن تعترفوا بهذه العظمة للسنة النبوية، لا أن تتنكروا لها!!

إن سنته ﷺ تقدمت بالبشرية تقدمًا عظيمًا، وقدمت للبشرية نفعًا هائلاً، مما يجعلنا نفتخر بها، بل نتيه بها على كل الأمم.

وإنه إن ظهرت فئة تتنكر لعظمتها فلن يصرفنا ذلك عنها، بل سنظل معتزين فخورين بها.

* * *

---

(١) اليرقة: طور من أطوار خلق الذبابة، تكون بيضة، ثم يرقة، ثم عذراء، ثم ذبابة. تخرج اليرقة من البيضة على شكل الدودة.

• **حديث:** «أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان».

هذا الحديث أخرجه البخارى فى عدة مواطن من صحيحه، وأخرجه مسلم أيضًا فى عدة مواطن من صحيحه أيضًا، ونص الحديث:

قال ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حَبَّةٍ من خردل من إيمان، فيُخْرَجون منها قد اسودُّوا فيلقون فى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحِبَّةُ فى جانب السيل» وفى رواية «حبة من خردل من خير»[1].

أعداء السنة غاضبون جدًا، وسر غضبهم أن الله سبحانه سيرحم أهل التوحيد فلا يتركهم فى النار.

أعداء السنة غاضبون؛ يعترضون على هذا الحديث بأنه يترتب عليه أن يدخل الكفرة الجنة، ويستدلون:

بقول الله عن اليهود: ﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[2].

وبقول الله عن اليهود أيضًا: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[3].

إنهم يرون أن الآيتين تثبتان لليهود قدرًا من الإيمان، وما دام الحديث أن أى قدر من الإيمان يدخل الجنة، فاليهود سيدخلون الجنة، بينما الآيات الأخرى تثبت أن اليهود لا يدخلون الجنة، وعليه فالحديث ـ فيما يرون يتعارض مع القرآن.

الرد: الحديث لا يتعارض مع القرآن أبدًا، فالحديث يتكلم عن أهل لا إله إلا الله، عن الموحدين، عن المؤمنين، وإن قلّت أعمالهم الصالحة.

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان باب تفاضل أهل الإيمان فى الأعمال ١/ ٧٢ رقم ٢٢ وفيه ذكر مواضع ورود الحديث، إلا أنى أخص الرواية التى فى كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار ١١/ ٤١٦ حديث رقم ٦٥٦٠. وأخرجه مسلم فى الإيمان باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ١/ ١٧٢ رقم ٣٠٤ ورقم ٣٢٥ وأخرجه غيرهما.

(٢) سورة النساء الآية ٤٦.

(٣) سورة النساء الآية ١٥٥.

وهو فى هذا متفق مع الآيات القرآنية التى فى هذا الموضوع، ومنها:

* قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ (١).

* وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٢).

إن الحديث لا يتعارض مع القرآن بل يتفق معه تمامًا.

أما الآيات التى احتجوا بها والتى تثبت لليهود إيمانًا قليلاً، فلماذا راعوا الإيمان القليل فى الآية، ولم يراعوا الكفر الذى تثبته الآية لهم؟ ففى قوله تعالى: ﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أثبتت الآية كفرهم.

وكذلك فى الآية الأخرى ـ والتى سقتها فى أول الموضوع ـ ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أثبتت الآية أيضًا أنهم كفرة. فإذا وجد شىء من الإيمان مع الكفر فإن صاحبه مخلد فى النار، هذا الذى تفيده الآيات كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (٣).

أما الحديث فيفيد أن من صح إيمانه، ومات موحدًا، مع قليل من الطاعة، فإن مصيره إلى الجنة.

فرق كبير بين ما **يفيده الحديث**، وما تفيده الآيات التى استدل بها منكرو السنة، فالحديث يتكلم عن أهل **التوحيد**، والآيات تتكلم عن الكفرة، أو عن المنافقين، ممن لا توحيد عندهم، ولم **تصح** عقيدتهم.

ثم أقول لهؤلاء المنكرين: **ألم** تقرؤوا أن القلة قد تأتى بمعنى النفى المحض؟

إن كنتم لم تقرؤوا فكان الواجب عليكم البحث فى ذلك قبل أن تكتبوا، فإن

(١) آخر سورة الكهف.

(٢) آخر سورة البينة.

(٣) سورة النساء آية ٤٨.

أصول البحث العلمى تحتم هذا.

* يقول ابن منظور(١) - فى شرح مادة قَلَلَ -: وفى الحديث: «أنه كان يُقِلُّ اللغو» أى لا يلغوا أصلاً.

ثم نقل عن ابن الأثير قوله: وهذا اللفظ - قلّ - يستعمل فى نفى أصل الشىء كقوله تعالى ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾(٢).

سبحان الله، نص الآية التى تحتجون بها، يبين ابن الأثير، وهو من هو فى اللغة، ويوافقه ابن منظور، أن القلة تستعمل بمعنى النفى، فالمعنى: لا يؤمنون بتاتًا.

* ويقول الزبيدى(٣): وقُلُّ رجل يقول ذلك إلا زيد بالضم أى بضم القاف، وأقل رجل يقول ذلك إلا زيد معناهما: ما رجل يقوله إلا هو. فالقلة فيه بمعنى النفى المحض(٤).

* ويقول ابن كثير(٥): تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط. تريد ما رأيت مثل هذا قط. وقال الكسائى: تقول العرب: من زنى بأرض قلما تنبت أى لا تنبت شيئًا(٦).

وهكذا فالآيتان لا تثبتان لليهود إيمانًا، إذ القلة بمعنى النفى، وعليه فلن يدخلوا الجنة، ولن يشملهم الحديث، ولن يتعارض الحديث، مع الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾(٧).

على أن المفسرين يفسرون هاتين الآيتين ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ و ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ على:

* أن القلة على حقيقتها وأنهم يؤمنون بأشياء مما جاءهم به موسى، ويكفرون

(١) مؤلف كتاب لسان العرب.
(٢) لسان العرب ٥/ ٣٧٢٦ العمود الثالث.
(٣) مؤلف كتاب «تاج العروس شرح القاموس».
(٤) تاج العروس ٨/ ٨٥.
(٥) الإمام الحافظ المفسر، الحجة فى اللغة.
(٦) تفسير ابن كثير ١/ ١٢٤.
(٧) سورة البينة آية ٦.

بأشياء، ويكفرون برسالة محمد ﷺ فلم ينفعهم هذا الإيمان الجزئى مع الكفر كما قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١].

* وعلى أن القلة بمعنى النفى، وأنهم غير مؤمنين والآيات المفيدة قلة إيمانهم وما بعدها تفيد هذا، ففى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [٢] تقرأ بعدها ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [٣] إن هذه الآية صريحة فى كفرهم، ولم تُبق له شيئًا من إيمان، وكفى ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ ففيها حكم بكفرهم وطردهم من رحمة الله تعالى.

إننى بكل إنصاف لا أظن أن أحدًا يلتبس عليه هذا الحديث «أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» مع الآية فى اليهود ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ مع الآيات فى خلود الكفرة فى النار أبدًا. إن الحديث فى شأن المؤمنين الذين صح توحيدهم، فمهما قلت حسناتهم أو زادت سيئاتهم فنهايتهم فى الآخرة إلى جنة الله سبحانه.

وفى ذلك آيات من القرآن الكريم منها: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٤].

ولا أظن أصحاب هذا الاعتراض إلا يدركون هذا، إلا إن كان التعصب قد أعماهم عن الحق، أو أضلتهم الشياطين عن الصراط المستقيم.

نسأل الله الهداية والتوفيق.

---

(١) سورة البقرة الآية ٨٥.

(٢) سورة البقرة الآية ٨٨.

(٣) سورة البقرة الآية ٨٩.

(٤) سورة الزمر الآية ٥٣.

● **حديث: أن النبى ﷺ سحره لبيد بن الأعصم.**

يعترض أعداء السنة على هذا الحديث، ويحاولون الاعتراض به على السنة، يصوِّرون أنه لا يمكن القول بأن النبى ﷺ قد سحر، فإن هذا معناه التأثير على قواه العقلية ﷺ، مما يطعن فى صحة الوحى.

ويقولون إن هذا يحط من قدر النبوة.

وراحوا يقيمون تعارضًا بين هذا الحديث وبين آيات من القرآن الكريم.

وأجيب بإيجاز:

* السحر الذى وقع له ﷺ لا علاقة له بقواه العقلية، وإنما كان على شىء من نشاطه البدنى، فنص الحديث أنه كان يخيل إليه أنه يستطيع أن يجامع أهله، فإذا أراد لم يستطع، وهذا أمر لا أثر له على العقل، ولا على الوحى.

* وما دام السحر على قواه البدنية فإنه لا يحط من قدر النبوة.

* وشاء الله أن يقع هذا السحر كى تستفيد الأمة، ونتعلم ماذا نفعل إن حدث شىء من هذا لنا.

وأجيب تفصيلاً:

أخرج البخارى بإسناده عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ سُحر، حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن. فقال: يا عائشة، أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه؟ أتانى رجلان[١]، فقعد أحدهما عند رأسى، والآخر عند رجلىّ، فقال الذى عند رأسى للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب[٢]. قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن أعصم، رجل من بنى زُرَيق حليفٌ ليهود، كان منافقًا[٣]. قال: وفيم؟ قال: فى مشط[٤] ومشاطة[٥]. قال: وأين؟

(١) أى ملكان فى صورة رجلين دل على ذلك ما جاء فى رواية «ملكان» وفى رواية «جبريل وميكائيل» وكان ذلك منامًا.

(٢) أى مسحور.

(٣) لبيد بن الأعصم رجل من المنافقين، هو أصلاً من الخزرج، وأسلم نفاقًا، وكان حليفًا لليهود. راجع فتح البارى شرح حديث ٥٧٦٣ جـ١٠ ص٢٢٦.

(٤) ما يسرّح به الشعر.

(٥) ما يسقط من الشعر إذا سُرِّح بالمشط.

قال: في جف طلعة ذكر[١]، تحت رعوفة[٢]، في بئر ذَرْوان[٣]، قالت: فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه. فقال: هذه البئر التي أُريتها[٤]، وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين. قال: فاستخرج. قالت فقلت: أفلا ـ أي تَنَشَّرْت[٥] ـ؟ فقال: أما والله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً»[٦].

وفي رواية أخرى عن عائشة أيضًا قالت: مكث النبي ﷺ كذا وكذا يخيل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتي. . . الحديث[٧].

وواضح من قول أم المؤمنين عائشة في الرواية الأولى: «حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن» وقولها في الرواية الثانية «مكث كذا وكذا يخيل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتي».

واضح من الروايتين أن السحر كان يؤثر في بعض قواه البدنية، وهي قوة الجماع، وهذا مثله مثل الأمراض الجسدية تجوز على الأنبياء. ولقد جاء في رواية «إن الله أنبأني بمرضي» أي أخبرني بحقيقة ما أنا فيه.

وبوضوح هذا الأمر، وهو أن السحر كان يؤثر على بعض قواه البدنية ﷺ، تزول جميع شبههم.

والأمر في غاية الوضوح، فمصرح في الروايات أن السحر كان يؤثر على بعض قواه البدنية ﷺ، فلم يبق مجال للاعتراض، ذلك أن الأنبياء ليسوا معصومين من

(١) في رواية «في جف طلع نخلة ذكر» والجف: الوعاء الذي يكون فيه ثمرة النخلة، سواء النخلة الذكر أو الأنثى. وقد بيّن هنا أن هذا الجف كان من نخلة ذكر، وهو الذي يكون فيه اللقاح.

(٢) صخرة تكون في أسفل البئر، يجلس عليها الذي ينظف البئر، وتطلق أيضًا على الصخرة التي تكون على رأس البئر يقف عليها من يخرج الماء من البئر، والمراد هنا الأول.

(٣) بئر في المدينة لبني زريق.

(٤) أراه الله إياها في المنام.

(٥) أي هلا أخرجت مواد السحر من الجف؟

(٦) أخرجه البخاري في الطب باب هل يستخرج السحر ١٠/ ٢٣٢ رقم ٥٧٦٥.

(٧) أخرجه البخاري في الأدب باب قول الله تعالى: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان. . . ١٠/ ٤٧٩ رقم ٦٠٦٣.

الأمراض، فلقد مرضوا، بل وكان مرضهم شديدًا، أما القوى العقلية فهذه يحفظها الله عليهم، وكذلك سلامة نصوص الوحى، تكفل الله بحفظها عليهم. وعليه فلا وجه للاعتراض على الحديث، ولا يصح أن تثار أى شبهة بسببه.

إنه أمر لا يؤثر على سلامة أمور الدين، ولا يحط من قدر النبوة، وإنما هو أمر من الأمور التى قد تحدث للأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وإمعانًا فى الاستشكال وإثارة الشبه، راحوا يَبْنُون على تفسيرهم الخاطئ للحديث تعارضات بين هذا الحديث وبين آيات من القرآن الكريم!!

لقد فسروا الحديث خطأ، وأنه ﷺ سُحر، حتى أثر السحر على عقله وهذا خطأ تمامًا، فنص الحديث واضح كل الوضوح أن السحر لم يؤثر على عقله مطلقًا، وإنما أثر على بعض قواه الجسدية.

ورتب أعداء السنة على هذا التفسير الخاطئ للحديث، أنه يتعارض مع آيات قرآنية: فهو يتعارض مع قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[١].

وأقول لهم: قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أى يحفظك فلا يستطيع أحد قتلك، والآية ليست على عمومها، فلو كانت على عمومها ما استطاع أحد أن يخطئ فى حقه ﷺ، وها هم يخطئون فى حقه ﷺ كثيرًا، وهذا يدل على أن الآية فى عصمته من القتل، ولا تعارض بينها وبين شخص يسحره.

وقالوا: يتعارض مع الآيات الواردة فى شأن إبليس، وأنه لا يتسلط على عباد الله الصالحين، كما فى قوله تعالى لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[٢].

وأجيب: الآية الكريمة تفيد أن إبليس لا سلطان له على عباد الله الصالحين، فهو لا يستطيع أن يضلهم، ولا يستطيع أن يوقعهم فى الكفر، فما علاقتها بالحديث!؟

الحديث فيه إن رجلاً اسمه لبيد بن الأعصم صنع سحرًا، أثّر على رسول الله

---

(١) سورة المائدة الآية ٦٧

(٢) سورة الحجر الآية ٤٢

ﷺ فى نوع من أنشطة جسده، فما علاقة ذلك بالآية الكريمة؟ بدهى أنه لا تعارض مطلقًا.

* ويقولون: إننا إذا قلنا إنه ﷺ سُحر فقد اتفقنا مع الكفار، الذين حكى الله عنهم قولهم: ﴿إن تتبعون إلاَّ رجلاً مَّسحوراً﴾ (١).

وأقول لهم: أنكر المشركون ما جاء به ﷺ عن الله تعالى، وراحوا يبحثون عن سبب يُشوِّهون به الحق الذى جاء به، فقالوا: إنه مجنون. وقالوا: إنه مسحور، بمعنى أنه يقول كلامًا لا يعقل. يقولون ذلك تبريراً لإنكارهم قوله. والسحر الذى رموه به إنما هو السحر الذى يخبل صاحبه، ويقضى على عقله. أما السحر الذى فى الحديث الذى معنا فليس من هذا النوع مطلقًا، وإنما أثر على شىء من قواه الجسدية لفترة وجيزة، وبالتالى فهو لا يحقق مقولة الكفار مطلقًا.

وهكذا يتضح أن الحديث لا يتعارض مع أى آية من القرآن الكريم.

وآيات القرآن تؤيده:

بل إن المتأمل فى آيات القرآن الكريم يجد ما يؤيد هذا الحديث، يؤيده قول الله تعالى: ﴿قُلْ أعوذُ بربِّ الفَلَق (١) من شرِّ ما خلق (٢) ومن شرِّ غاسقٍ إذا وقب (٣) ومن شرِّ النَّفَّاثات فى العُقد (٤) ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسد﴾ (٢).

ويؤيده قوله تعالى: ﴿وإن يكادُ الَّذين كفروا ليُزلقُونك بأبصارهم لمَّا سمعُوا الذِّكر ويقُولُون إنَّهُ لمجنُونٌ (٥١) وما هُو إلاَّ ذكرٌ لِّلعالمين﴾ (٣).

إن هذا الحديث لا يعترض به إلا من ينظر نظرة تعصب، وحرص على التشويه.

أما من ينظر نظرة إنصاف فإنه يرى الحديث يمثل صورة طيبة، فها هو قد سُحر لكنه لم يُتْرَك، وإنما سأل الله ودعا، واستجاب له ربه، وجاءه جبريل وغيره من الملائكة، وأخبره الله بحقيقة حاله، ورقاه جبريل، ورقى ﷺ نفسه، وبرأ

(١) سورة الفرقان الآية ٨

(٢) سورة الفلق.

(٣) سورة القلم ٥١، ٥٢

بفضل الله تعالى سريعًا.

إن هذا يدل على كريم منزلته ﷺ عند الله تعالى.

إن هذا يدل على عظيم عناية الله تعالى برسوله ﷺ.

فلم الاعتراض؟ ولم الاجتراء؟

إن هذا الحديث لا يُمَثِّل ثغرة فى السنة، وإنما يمثِّل نقطة مشرقة، إنه سُحر، لكنه لم يخرج عن دائرة الصواب، بل كان فى أعلى درجات الاستقامة والهداية، وماذا بعد أن دعا، ودعا، ،دعا؟

إن هذا يدل على أن السحر لم يؤثر فى قواه ﷺ العقلية، ولا فى درجته الإيمانية، وإنما كان مؤثرًا فى أداء الجسم، وهذا لا علاقة له بالرسالة والوحى.

ومع أنه أمر جسدى فإنه الرعاية الإلهية قد شملته، وتولاه الله بالحفظ، وسلمه سبحانه وشفاه، ﷺ وعلى آله وأصحابه والتابعين.

سؤال وجواب:

وقد يقول قائل: إذا كانت العناية الإلهية أحاطت رسول الله ﷺ، فلم أثَّر فيه السحر؟

والجواب: إن أعداءه ﷺ كادوا له بكل ما استطاعوا:

* أثاروا الشُّبه، يشوِّهون بها الإسلام!!

* رموه بكثير من الكلمات الجارحة، يريدون التقليل من شأنه.

* وصفوا ما جاء به من الهدى بصفات سيئة، حرصًا على تضليل الناس.

* جاءوا بالقصص من الأمم الأخرى يصرفون بها الناس عن القرآن والإسلام.

* جاءوا بالفتيات المغنيات تغنى، يصرفون بهن الناس عن القرآن والإسلام.

* جاءوا بمشاهير الحساد، كى يحسدوه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [1].

---

(١) سورة القلم ٥١، ٥٢

* جاءوا بمشاهير السحرة، وصنعوا له أبشع الأسحار.

* خططوا لقتله مع تفريق دمه فى كل القبائل.

* جيشوا الجيوش لحربه، والقضاء على أمة الإسلام، كما فى بدر، وأحد، وغيرهما.

وكل هذه الوسائل لم تؤثر فيه ﷺ، وإنما نصره الله وأيده، وشاء الله أن يؤثر السحر فيه مرة، ليعلمنا ربنا تبارك وتعالى على لسان نبيه ﷺ، ماذا نفعل إذا وقع لنا شيء من السحر.

لقد استفدنا من هذا الحديث ـ والذى يتحدث عن حدوث سحر له ﷺ ـ أننا نعالج أنفسنا من السحر بثلاثة أمور:

الأول: الصبر على الحال، فإنه ﷺ حينما أحس بما عليه حاله، فوّض وسلمْ لأمر ربه، يرجو بذلك الأجر والمثوبة.

إنه يؤمن أن كل شيء بإذن الله، وأن كل شيء بقدر الله، كما قال سبحانه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1] وقال سبحانه فى شأن السحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[2].

إنه ﷺ يؤمن أن الصبر على البلاء يؤجر عليه المسلم، ومن هنا صبر واحتسب.

إنه لم يخف السحر، ولم يضطرب، فالأمور بيد الله سبحانه، وهو الواثق بالله المتوكل عليه، ومن هنا صبر يحتسب أجر ذلك عند الله تعالى.

الثانى: كثرة الدعاء، ففى الحديث الذى معنا صبر ﷺ فترة، ثم دعا، ودعا، ودعا. وفى هذا تعليم للمسلم أنه فى مثل هذه الحالات يكثر من الدعاء، فإنه ببركة الدعاء يفرج الله عنه ما هو فيه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[3].

(١) سورة التوبة الآية ٥١.

(٢) سورة البقرة الآية ١٠٢.

(٣) سورة غافر ٦٠

وقال ﷺ: «لا يرد القضاء إلا الدعاء»[١].

الثالث: الرقية، وذلك بقراءة سورتى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ففى بعض روايات حديث السحر هذا أنه ﷺ رُقى بهاتين السورتين، وكلما رُقى بآية انحلت عقدة[٢]، حتى انحلت العقد كلها، وشفى بفضل الله تمامًا.

وفى سورتى الفلق والناس واللتين تسميان بالمعوذتين، فيهما يقول ﷺ: «ما تعوذ متعوذ بمثلهما»[٣].

وهكذا يتضح أن الله تبارك وتعالى شاء له ذلك ليعلم الأمة ماذا تفعل فى مثل هذه الحالة.

والعلماء على هديه يسيرون، يستشفون بهذه الأمور، أما الجهلة فإنهم يذهبون إلى أماكن الدجل والشعوذة، ولولا أن الله شاء به ذلك لذهب الجميع إلى الشعوذة والدجل.

نعم، تأثير السحر فيه درجة أقل من درجته ﷺ، لكن قد يقع له ما هو أقل من درجته للتشريع، ليس هذا فى السحر فقط، وإنما وقع فى أمور أخرى وقع فى الصلاة، فسها فى الصلاة، والسهو أقل من درجته، لكنه سها ليعلمنا ماذا نفعل إذا سهونا، وناموا عن وقت الصلاة وهو معهم، وليس هذا من شأنه، ولا هو باللائق بدرجته، ولكن شاءه الله ليشرع لنا ماذا نفعل إذا نمنا عن الصلاة، أو خرج وقتها.

إنها أحوال أقل من درجته، شاءها الله تبارك وتعالى ليُعَلِّم الأمة دينه سبحانه، من واقع أحوال رسوله ﷺ، وهو المصطفى لتبليغ الرسالة، وتوضيح معالم دين الله تبارك وتعالى.

---

(١) أخرجه الترمذى ـ وحسّنه ـ والحاكم عن سلمان.

(٢) راجع الدر المنثور صدر تفسير سورة الفلق ٦/ ٤١٧.

(٣) أخرجه الحاكم وصححه، والبيهقى فى الشعب، وابن الضريس، وابن الأنبارى وابن مردويه، كذا فى الدر ٦/ ٤١٦.

تاريخ هذه الشبهة:

على أنى أقول لأعداء السنة: إن هذه الشبهة ليست جديدة، وإنما قالها أعداء الإسلام قديمًا، ورد عليها العلماء منذ زمن بعيد.

إن استعراضهم هذه الشبهة يوهم المعاصرين وكأن منكرى السنة فى هذه الأيام هم الذين اكتشفوا هذه القضية فى السنة النبوية. إنهم يصوِّرون كلامهم فى هذا الموضوع وكأنهم أصحاب رأى وفكر، وخبرة ودراية، وليس الأمر هكذا.

وأقدم من وقفت عليه فى الرد على هذا الخطأ، هو الإمام أبو سليمان حَمْد بن محمد الخطابى الذى عاش من ٣١٩هـ إلى ٣٨٨هـ، وذلك فى كتابه «أعلام الحديث فى شرح صحيح البخارى» فلقد رد هذه الشبهة تمامًا، ودفع هذا الخطأ عن السنة دفعًا رتيبًا.

يقول رحمه الله: فأما ما زعموه من دخول الضرر على النبوة من أجل إثبات السحر، وتأثيره فى أهلها، ووقوع الوهن فى أمرها، فليس الأمر فى ذلك على ما قدروه، والأنبياء صلوات الله عليهم يجوز عليهم من الأعراض والعلل ما يجوز على غيرهم، إلا فيما خصهم الله به من العصمة فى أمر الدين، الذى أرصدهم له، وبعثهم به، وليس تأثير السحر فى أبدانهم بأكثر من القتل، وتأثير السم، والأمراض، وعوارض الأسقام فيهم. وقد قتل زكريا وابنه يحيى عليهما السلام.

ثم يقول رحمه الله: فأما ما يتعلق من أمره ﷺ بالنبوة، فقد عصمه الله فى ذلك، وحرس وحيه أن يلحقه الفساد والتبديل، وإنما كان يخيل إليه من أنه يفعل الشيء ولا يفعله فى أمر النساء خصوصًا، وفى إتيان أهله قَصْرَة، إذا كان قد أُخذ عنهن بالسحر، دون ما سواه من أمر الدين والنبوة، وهذا من جملة ما تضمنه قوله عز وجل: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾. فلا ضرر إذن مما لحقه من السحر على نبوته، ولا نقص فيما أصابه منه على دينه وشريعته، والحمد لله على ذلك[1].

لقد أجاب الخطابى على هذه الشبهة، أو قل على هذا الافتراء، وهذه المغالطة

(١) أعلام الحديث ٢/ ١٥٠١ ـ ١٥٠٤.

قبل أكثر من ألف عام.

وأيضًا أجاب على هذا الامام أبو عبد الله محمد بن على بن عمر المازرى المتوفى فى ربيع الأول سنة ست وثلاثين وخمسائة، وذلك فى شرحه لصحيح مسلم، والمسمى «المعلم».

وهكذا يتضح أن هذه الشبهة لم يقلها المعاصرون من أعداء السنة، وإنما هى قديمة، وقد أجاب العلماء قديمًا عليها. وهى لا تمثل نقطة ضعف، وإنما تمثل نقطة قوة للسنة النبوية. لما فيها من توجهه ﷺ، واستجابة الله تبارك وتعالى دعاءه ﷺ، ونزول الملائكة، ورقيته ﷺ، وأيضًا لما فيها من تشريع وتعليم للأمة سبيل الخلاص من هذه الأعمال.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

● **حديث: رضاعة الكبير.**

قصة الحديث:

من الصحابة المشهورين سالم مولى أبى حذيفة.

كان رضى الله عنه عبدًا يباع ويشترى، لا يعرف نسبه.

كان عبدًا لثبيتة بنت يعار الأنصارية، إحدى زوجات الصحابى المشهور أبى حذيفة، قيس بن عتبة بن ربيعة، فأعتقته، ولم تجعل ولاءه لأحد، وإنما قالت له: وال من شئت، فوالى أبا حذيفة، وتبناه أبو حذيفة، فكان يقال له: سالم ابن أبى حذيفة.

كان سالم هذا يعيش فى بيت أبى حذيفة كواحد منهم، يعيش معهم فى بيت واحد، مع الأولاد والزوجات، فهو ابن لهم بالتبنى، والابن بالتبنى له حق البنوة، حتى إنه يرث.

كان سالم يدخل بيت أبى حذيفة ويخرج وزوجات أبى حذيفة يلبسون ملابس العمل، لا يرون بذلك بأسًا فهو ابن لهم بالتبنى، فلما نزلت الآية التى تمنع التبنى، وتأمر بنسبة الأولاد إلى آبائهم من النسب إن عرفوا، وإلا فهم إخوة فى الدين، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ[1] أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾[2] لما نزلت هذه الآية والتى تحرم التبنى أحدثت حرجًا لأبى حذيفة ولزوجاته وأولاده، فذهبت إحدى زوجاته، وهى سهلة بنت سهيل بن عمرو القرشى إلى رسول الله ﷺ وأخبرته القصة، وأنهم كانوا يعاملون سالمًا كابن لهم، أما وقد نزل تحريم التبنى، فإن هذا يمثل حرجًا لنا مع سالم[3]، فقال لها رسول الله ﷺ أرضعيه، حتى يكون ابنك من الرضاع. فتساءلت: إنه

(١) أدعياء جمع دَعِىّ. وهو الابن بالتبنى.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٤، ٥.

(٣) سالم هذا وردت فى فضائله أحاديث كثيرة، منها:

* حديث عبد الله بن عمر قال: «لما قدم المهاجرون الأولون العصبة ـ موضع بقباء ـ قبل مقدم =

كبير فأكد رسول الله ﷺ: أرضعيه يحرم عليك. فأرضعته، وأخذ بذلك حكم الابن، فقد صار ابنها من الرضاع.

نص الحديث:

حديث رضاع سالم هذا أخرجه كثير من الأئمة:

فأخرجه مالك فى الموطأ عن ابن شهاب، أنه سئل عن رضاعة الكبير فقال: أخبرنى عروة بن الزبير أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ. وكان قد شهد بدرًا. وكان يتبنى سالمًا الذى يقال له سالم مولى أبى حذيفة، كما تبنى رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، وأنكح أبو حذيفة سالمًا، وهو يرى أنه ابنه، أنكحه بنت أخيه فاطمة بنت الوليد عتبة بن ربيعة وهى يومئذ من المهاجرات الأول، وهى من أفضل أيَامَى قريش. فلما أنزل الله تعالى فى كتابه، فى زيد بن حارثة ما أنزل فقال: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ رُدّ كل واحد من أولئك إلى أبيه، فإن لم يُعلم أبوه رُدّ إلى مولاه. فجاءت سهلة بنت سهيل، وهى امرأة أبى حذيفة، وهى من بنى عامر بن لُؤى إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، كنا نرى سالمًا ولدًا، وكان يدخل على وأنا فُضُل[1]، وليس لنا إلا بيت واحد، فماذا ترى فى شأنه؟ فقال لها رسول الله ﷺ: أرضعيه خمس رضعات فيحرم بلبنها[2]. وكانت تراه ابنًا من الرضاعة، فأخذت بذلك عائشة أم المؤمنين، فيمن كانت تحب أن يدخل عليها من الرجال، فكانت تأمر أختها أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق وبنات

= رسول الله ﷺ كان يؤمهم سالم مولى أبى حذيفة، وكان أكثرهم قرآنًا» أخرجه البخارى رقم ٦٩٢.

* حديث عبد الله بن عمرو قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: استقرئوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبى حذيفة، وأُبَىٍّ بن كعب، ومعاذ بن جبل» أخرجه البخارى رقم ٣٧٥٨، ٣٧٦٠، ومسلم ٢٤٦٤.

* ولقد بلغ من خشوعه فى قراءته «أن قال رسول الله ﷺ الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذا» أخرجه ابن ماجه رقم ١٣٣٨، والحاكم ٣/ ٢٢٥.

(١) أى بملابس العمل.

(٢) أى يحرم بسبب لبن هذه الرضعات.

أخيها أن يرضعن من أحبت أن يدخل عليها من الرجال. وأبى سائر أزواج النبى ﷺ أن يدخل عليهن بتلك الرضاعة أحد من الناس. وقلن: لا، والله ما نرى الذى أمر به رسول الله ﷺ سهلة بنت سهيل إلا رخصة من رسول الله ﷺ فى رضاعة سالم وحده، لا والله، لا يدخل علينا بهذه الرضاعة أحد[1].

هذا نص الحديث، ولقد شنّع به أعداء السنة، وراحوا ينكرونه، ويدلِّلُون به على عدم ثبوت السنة، وتتلخص شبههم على هذا الحديث فيما يلى:

١ ـ كيف يرضع سالم من سهيلة، كيف يلتقم ثديها، ويلمس جسمها؟ وراح أحدهم يقول: إن رضاعة الكبير من سيدة هو منتهى [السكس] يقصد منتهى الإثارة الجنسية، وراحوا يقولون:

هذا يتعارض مع آيات الحجاب، ونصوص الاحتشام.

٢ ـ كيف تكون رضاعة بعد الحولين؟ إن رضاعة الكبير لا تفيد تحريمًا، ولا تثبت بُنُوّة.

٣ ـ إن نساء رسول الله ﷺ رفضن هذا الحديث، مما يدل على الشك فى الرواية.

وأجيب بتوفيق الله فأقول:

● **أما شبهتكم الأولى** ـ كيف يرضع منها ويلتقم ثديها، هذا يتعارض مع آيات الحجاب ـ هذه الشبهة تزول بكلمة واحدة هى:

إن الرضاعة لا يشترط أن تكون بالتقام الثدى.

إن الرضاعة ليس السبيل الوحيد لها مص الثدى.

(١) أخرجه مالك فى الموطأ كتاب الرضاع باب ما جاء فى الرضاعة بعد الكبر ٢/ ٦٠٥ رقم ١٢. وأخرجه مسلم فى الرضاع باب رضاعة الكبير ٢/ ١٠٧٦ وأخرجه البخارى فى المغازى باب بعد باب شهود الملائكة بدرًا ٧/ ٣١٤ رقم ٤٠٠٠ وفى النكاح باب الأكفاء فى الدين ٩/ ١٣١ رقم ٥٠٨٨ لكن أخرجه مختصرًا فى الموضعين، وقد ذكر ابن الأثير تتمته عن الحميدى شيخ البخارى وذلك فى جامع الأصول فى كتاب النكاح الفرع الثانى فى الرضاع ١١/ ٤٨٤. وأخرجه أبو داود فى النكاح باب من حرم به ٦/ ٦٣.

وإنما الرضاعة تكون بتناول اللبن بأى سبيل، فيمكن أن يُحلب اللبن فى إناء، ويشربه الإنسان، فيصير ابنًا من الرضاع، وهذا الذى كان فى هذه القصة.

وأثناء مناظرة دارت بينى وبين بعض منكرى السنة جاء الكلام على حديث رضاعة الكبير هذا، وطال الكلام، وعند قولهم: إن رضاعة الإنسان من امرأة هو أعلى درجات [السكس] يقصدون الجنس.

قلت لهم إنه لم يلتقم ثديها، فثاروا وقالوا: إنك تقول هذا القول تخلصًا من حملتنا عليك.

قلت: لم أقل أنا بذلك، وإنما عندى الروايات تفيد ذلك، وبه قال الأئمة قبل مئات السنين.

وامتلؤا عجبًا، وقالوا: ماذا عندك من روايات.

قلت:

* أخرج ابن سعد عن عبد الله بن أخى الزهرى قال: كان يُحلب فى مُسْعط[1] أو إناء قدر رضعة، فيشربه سالم كل يوم، خمسة أيام. وكان بعد يدخل عليها وهى حاسر[2]، رخصة من رسول الله ﷺ[3].

* وأخرج عبد الرزاق عن ابن جريج قال سمعت عطاء يُسأل، قال له رجل: سقتنى امرأة من لبنها بعد ما كنت رجلاً كبيرًا، أأنكحها؟ قال: لا. قلت: وذلك رأيك؟ قال: نعم. قال عطاء: كانت عائشة تأمر بذلك بنات أخيها[4].

وهكذا يتضح من هذين الأثرين أن تناول الكبار اللبن إنما كان من إناء، كما صرح به فى الأول، وكما هو واضح فى الثانى من قوله «سقتنى» ويتضح أن هذا منهج عام فى رضاعة الكبير كما هو ظاهر فى كلام عطاء.

قلت: من فضل الله أن سجل السلف لنا هذين الأثرين وما شابههما، وأزيد

---

(١) إناء الأكثر أنه يُجعل فيه الدواء، وقد يُجعل فيه اللبن.

(٢) بملابس العمل.

(٣) أخرجه ابن سعد فى الطبقات ٨/ ٢٧١ فى ترجمة سهلة.

(٤) مصنف عبد الرزاق ٧/ ٤٥٨ رقم ١٣٨٨٣.

الأمر تأكيدًا بهذين القولين:

يقول الإمام ابن عبد البر (المتوفى ٤٦٣هـ): إرضاع الكبير يحلب له اللبن ويسقاه، وأما أن تلقمه المرأة ثديها كما تصنع بالطفل فلا، لأن ذلك لا يحل عن جماعة العلماء[١].

ويقول الحافظ ابن حجر (المتوفى ٨٥٢): التغذية بلبن المرضعة يُحَرِّم، سواء كان بشرب، أم أكل، بأى صفة كان، حتى الوجور[٢]، والسعوط[٣]، والثرد[٤]، والطبخ، وغير ذلك إذا وقع ذلك بالشرط المذكور من العدد، لأن ذلك يطرد الجوع، وهو موجود فى جميع ما ذكر، فيوافق الخبر والمعنى، وبهذا قال الجمهور[٥].

وبهذا زالت شبهتهم تمامًا، لكنى لا أترك هذا المقام إلا بتسجيل أن علماء الإسلام قرؤوا النصوص مجتمعة فلم يشكل عليهم شىء، ولم يتعارض الحديث مع آية أو حديث آخر، أما منكرو السنة هذه الطائفة التى ظهرت فى زماننا، فهم:

إما أنهم قرؤوا لكنهم يُلبّسون على الناس، ويقولون نصف الكلام حتى تشوه الحقيقة.

وإما أنهم لم يقرؤوا وراحوا يرددون كلام أعداء الإسلام، ونحن ننصح لهم عسى أن يرجعوا إلى الحق.

ويهمنى القارئ المسلم أن أوضح له الأمر، وأسأل الله التوفيق والسداد.

• وأما شبهتهم الثانية وهى قولهم: إن رضاعة الكبير لا تثبت له بنوة، ولا تجعله يحل له الدخول على من رضع منها إلا كأى أجنبى.

هذه الشبهة أقول لهم: هذا تحكم منكم فى دين الله، لأنه لا دليل لكم عليه، ذلك أن آيات الرضاع تحدثت عن حقوق الطفل، وحقوق الأم فى فترة الرضاع،

(١) التمهيد ١١/ ٣٧٥.
(٢) الوجور: الصب فى وسط الفم.
(٣) الصب فى الأنف.
(٤) خلط اللبن بالخبز.
(٥) فتح البارى ٩/ ١٤٨ شرح حديث رقم ٥١٠٢.

وحددت الآية أن الأم ترضع طفلها عامين لمن أراد أن يتم الرضاعة قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ (١) إن الآية تتحدث عن الأسرة، وأحكام رضاعة الطفل، لكنها لم تتناول سن الرضاع المفيد للبنوة، وجاءت الآية الأخرى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ (٢) وهذه الآية هى التى فى التحريم بالرضاع، فالأم من الرضاعة يحرم على الرجل أن يتزوجها كالأم التى ولدته ولم تبين هذه الآية قدر الرضاع المحرم، كما أنها لم تحدد وقت الرضاعة الذى يحرم. فجاءت السنة النبوية وبينت أن القدر المحرم خمس رضعات مشبعات، وجاء حديث رضاعة سالم هذا الذى معنا وفيه أنه ﷺ أمر سهيلة أن ترضع سالمًا وهو كبير حتى يصبح ابنها من الرضاعة، واجتهد علماء الأمة فى فهم هذا.

فمنهم من جعله رخصة لسالم، فلقد كان ابنًا بالتبنى، وعاش على هذا الفهم مدة، يرى سهيلة أمه، وتراه ابنها، وطال الزمن على ذلك، فقد يكون هذا هو السبب فى الترخص، أما وإنه لا تبنى بعد ذلك، فهذه الصورة لا تتكرر.

ومنهم من جعله عامًا، يشمل كل من تناول لبن سيدة، فإنه يكون ابنًا لها.

والمهم أن الأمة بأسرها مع حديث رسول الله ﷺ تؤمن به، وتعمل به، وإن اختلف المسلك الفقهى فى استنباط الحكم من الحديث.

على أن هذه الصحابية لم تتساهل فى الأمر، فلم تقف عند حد السؤال، وإنما راحت تتساءل مع رسول الله ﷺ حينما قال لها: أرضعيه، فإنها قالت: إنه كبير. وأجابها ﷺ بأنه يعرف أن سالمًا كبير.

فقالت: إنه ذو لحية. كل ذلك ورسول الله ﷺ يرخص لها أن ترضعه، وبذا

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٣.

(٢) سورة النساء الآية ٢٣.

تصبح أمًا له من الرضاع.

إن الحديث صحيح بل فى أعلى درجات الصحة، ولا ينكره منصف.

بل إن هذا الحديث فى عين الباحثين وسام شرف على صدر مدرسة الإسلام، وصورة علمية رائعة فى عالم السنة النبوية، فمناقشات ومداولات، الصحابية تتساءل، والرسول ﷺ يجيب، وفقهاء الأمة من الصحابة والصحابيات، وأجيال علماء الأمة يدرسون النص ويستنبطون، مما يبين أن الحديث قد دُرِس بكل عناية، ومُحِّص بأدق الأساليب العلمية، فلا يليق بعد ذلك إلا أن يحترم هذا الحديث، شأن كل الأحاديث، وتحترم مدرسة الإسلام العلمية.

● **وأما شبهتهم الثالثة** والتى هى قولهم: إن نساء الرسول ﷺ رفضن الحديث. فهذا كلام أقل ما يوصف به أنه كذب!!

إن روايات الحديث كلها تدل على أن أمهات المؤمنين جميعًا قبلن الحديث، وكذلك كل الصحابة والصحابيات، وكل الأمة، الجميع قبل الحديث وعمل به، وللعلماء فى فقهه مسلكان:

* فالبعض اعتبره خصوصية لسالم وسهيلة، فهو يصير ابنًا لها بالرضاع، وإن كان قد رضع كبيرًا، وقد صرح بالخصوصية أكثر أمهات المؤمنين:

فعن أم سلمة زوج النبى ﷺ قالت: أبى سائر أزواج النبى ﷺ أن يُدخلن عليهن أحدًا بتلك الرضاعة، وقلن لعائشة: والله ما نرى هذا إلا رخصة أرخصها رسول الله ﷺ لسالم خاصة، فما هو بداخل علينا أحد بهذه الرضاعة، ولا رائينا[1].

وعن عروة بن الزبير قال: أبى سائر أزواج النبى ﷺ أن يدخل عليهن بتلك الرضعة أحد من الناس، يريد رضاعة الكبير، وقلن لعائشة: والله ما نُرى الذى أمر رسول الله ﷺ سهلة بنت سهيل إلا رخصة فى رضاعة سالم وحده من رسول الله ﷺ، والله لا يدخل علينا أحد بهذه الرضعة ولا يرانا[2].

---

(١) أخرجه مسلم فى الرضاع باب رضاعة الكبير ٢/١٠٧٨ رقم ٣١.

(٢) أخرجه النسائى فى النكاح باب رضاع الكبير ٦/ ٨٧.

وقد ذكرت نص الحديث فى أول الموضوع، وفيه أيضًا تصريح أمهات المؤمنين بأنهن يرين ذلك رخصة خاصة بسالم.

وبهذا قال ربيعة الرأى أحد فقهاء الإسلام المشاهير، شيخ مالك وسفيان والأوزاعى، هذا الإمام الذى قدمه الأئمة على الحسن البصرى، ومحمد بن سيرين، وتوفى رحمه الله سنة ست وثلاثين ومائة[١]، فقد أخرج النسائى عنه أنه قال ـ عقب حديث عائشة فى رضاعة سالم ـ فكانت رخصة لسالم[٢].

وبالرخصة لسالم قال الشافعى الإمام العالم الفقيه، أخرج ذلك عنه البيهقى فى السنن الكبرى[٣].

وبرأى أمهات المؤمنين هذا قال كثير من الأئمة، منهم: عمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، وابن مسعود، وابن عمر، وأبو هريرة، وابن عباس، وجمهور التابعين، وجماعة فقهاء الأمصار، منهم: الثورى، ومالك وأصحابه، والأوزاعى، وأبو حنيفة وأصحابه، والشافعى وأصحابه، وأحمد وغيرهم.

يقول ابن عبد البر: هذا حديث لم يتلقه الجمهور بالقبول على عمومه، بل تلقوه على أنه خصوص[٤].

* والبعض الآخر يرى أن الحديث حكم عام، وأن من رضع من سيدة خمس رضعات صار ابنًا لها من الرضاع، كبيرًا كان هذا الذى رضع أم صغيرًا، وهذا رأى قلة من العلماء، على رأسهم أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وبه قال الليث بن سعد، وعطاء بن أبى رباح[٥].

وهكذا قبلت الأمة كلها الحديث، وعملت به، **سواء** على أنه رخصة، أو أنه عام، المهم أنه لم يعترض عليه أحد، وإنما أعمله **كل** حسبما أداه إليه اجتهاده.

لا يرفضون وإنما يَتَثَبَّتُون:

---

(١) ترجمته فى تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٧.

(٢) أخرجه النسائى فى النكاح باب رضاع الكبير ٦/ ٨٧.

(٣) جـ٧ ص٤٦٠.

(٤) التمهيد ١١/ ٣٧٦.

(٥) التمهيد ١١/ ٣٧٤.

ولقد سجلت السنة لنا موقفًا لأحد علماء الأمة يبين مدى دقتهم فى تلقى النص وأنهم يَتَثَبَّتُون جيدًا قبل أن يتكلموا:

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن ابن أبى مليكة، أن القاسم بن محمد بن أبى بكر أخبره أن عائشة أخبرته: «أن سهلة بنت سهيل بن عمرو جاءت النبى ﷺ فقالت: يا رسول، إن سالمًا (لسالم مولى أبى حذيفة) معنا فى بيتنا، وقد بلغ ما يبلغ الرجال وعلم ما يعلم الرجال. قال: أرضعيه تحرمى عليه».

قال ابن أبى مليكة: فمكثت سنة أو قريبًا منها لا أُحدث به[١]، وهِبْتُه[٢]، ثم لقيت القاسم، فقلت له: لقد حدثتنى حديثًا ما حدثته بعد.

قال: فما هو؟

فأخبرته.

قال: فحدثه عنى، أن عائشة أخبرتنيه[٣].

هكذا يتوقف ابن أبى مليكة فى التحديث بهذا الحديث لمدة سنة، حتى يقابل القاسم الذى حدثه بهذا الحديث، ويستوثق منه، فيحدث به بعد ذلك دون تردد.

إنه لم يرفض الحديث كما يدعى أعداء السنة، وإنما يريد الاستيثاق، وما أن اطمأن إلا حَدّث به، وحدث به مَنْ؟ حدث به كبار المحدثين، وأخرج هذا أصحاب الصحيح.

وهكذا يتضح أن حديث رضاعة الكبير، حديث صحيح، أخرجه كبار الأئمة، أخرجه مسلم، والبخارى، ومالك، وغيرهم. وعلماء الأمة قديمًا وحديثًا يتقبلون هذا الحديث، ويجتهدون فى فقهه، منهم من يراه خصوصية لسالم، وأن رضاعة الكبير لا تثبت له بُنُوّة. ومنهم من يراه حكمًا عامًا، وأن رضاعة الكبير تثبت له بُنُوّة.

وعليه فلا وجه لاعتراض المعترضين، فإنهم:

(١) أى لا يحدث أحدًا بحديث إرضاع سهلة لسالم.

(٢) وخشيت أن أحدث بذلك.

(٣) أخرجه مسلم فى الرضاع باب رضاعة الكبير ٢/ ١٠٧٦ رقم ٢٨.

إن قالوا: إن التقام الثدى يتعارض مع آيات الحجاب.

قلنا: لا يشترط للرضاعة التقام الثدى، وإنما تكون بتناول اللبن بأى طريقة.

وإن قالوا: إن اللبن فى الكبر لا يؤثر، لا يشد عظمًا، ولا يُكَوِّن لحمًا، وبالتالى لا يُحرم.

قلنا: الكلام للذى أرسله الله، وائتمنه على دينه، وأقصى ما لكم أن تأخذوا بأنه خصوصية، وليس حكمًا عامًا.

وإن قالوا: إن أمهات المؤمنين رفضن هذا الحديث.

قلنا: لم يحدث ذلك، وإنما اعتبروه رخصة خاصة بسالم.

والأمة على طول تاريخها لم يعترض أحد على هذا الحديث، حتى جاء أعداء السنة فى عصرنا، فراحوا يرددون كلامًا، لا نجد فيه أصالة البحث العلمى، ولا دقة الفقهاء، ولا دراية المحدثين، كلامًا لا نجد فيه إلا المغالطات والافتراءات، مما يجعلنا نبين الحق، قيامًا بواجب النصح، ونعوذ بالله من الزلل، ونسأل الله أن يثبتنا على الحق.



● **حديث:** «من تَعزَّى بعزاء الجاهلية فأَعِضُّوه ولا تَكْنُوا»[(١)].

معنى الحديث:

فى هذا الحديث الشريف يعلمنا رسول الله ﷺ، ماذا نفعل مع من يفعل أفعال الجاهلية، بعد أن أكرمنا سبحانه وتعالى بالإسلام، فمن تعزى بعزاء الجاهلية لمناه على ذلك، بل وزجرناه عن ذلك.

وعزاء الجاهلية أن يقول الشخص عند نزول المصيبة كلام الجاهلية، مثل: وامصيبتاه. أو: لماذا أنا المصاب. أو: من لنا بعدك. إلى غير ذلك من عبارات التسخيط.

وعزاء الجاهلية أيضًا أن يفتخر الشخص بقبيلته، أو آبائه.

ولقد حرم الإسلام كل ذلك، وشرع لمن نزلت به شدة أن يقول كلمات الرضا بقضاء الله: «إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرًا منها».

وأن لا يعتز بقبيلته أو آبائه، وإنما يعتز بإسلامه، وأنه من أمة الإسلام.

فمن خَالف ذلك وتعزى بعزاء الجاهلية فهذا الحديث يعلمنا أن يُوبِّخَه، وذكر ﷺ صورة من صور التوبيخ، وهى «أعِضّوه ولا تكنوا» أى اشتموه شتمًا صريحًا، ومعنى «أعِضُّوه» أى قولوا له: اذهب فاعضض ذكر أبيك. ومعنى «لا تكنوا» أى لا تستعملوا أسلوب الكناية، فتشتموه شتمًا خفيًا.

وهكذا من فعل فعل الجاهلية، أو انتسب إلى الجاهلية وبَّخْنَاه وزجرناه عن ذلك، بشتم صريح، فقد أكرمنا الله بالإسلام.

يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «إنا قوم أكرمنا الله بالإسلام، فمن

---

(١) حديث صحيح أخرجه ابن حبان رقم ٣١٥٣. والبخارى فى الأدب المفرد رقم ٩٦٣. والنسائى فى الكبرى رقم ٨٨٦٤، ٨٨٦٥، وفى عمل اليوم والليلة رقم ٩٧٤ ـ ٩٧٦ وابن السنى فى عمل اليوم والليلة رقم ٤٣٥. والطبرانى ١/ ١٩٨ رقم ٥٣٢ فى الكبير وقال فى مجمع الزوائد ٣/ ٣ ورجاله ثقات. وأخرجه البغوى فى شرح السنة ١٣/ ١٢٠ رقم ٣٥٤١. وهو فى مسند أحمد ٥/ ١٣٦، ١٣٣.

يلتمس العز بغير الإسلام، يذله الله»[(١)].

هذا معنى الحديث، لا انتساب للجاهلية، ولا نتبع الكفر فى قول أو عمل، فمن فعل لُمْناهُ وزجرناه. حديث فى غاية العظمة للشخصية المسلمة.

إلا أن هذا الحديث لا يعجب أعداء السنة، ويُشَهِّرون به، ويعترضون به على السنة!!

سبحان الله!

اعتراض منكرى السنة على الحديث:

يقول أحدهم[(٢)]: انظر إلى مصيبة أعظم[(٣)] قال الرواة فى الأدب المفرد (ج٩٦٣) والكبرى للنسائى (ج٧٧٦٤) ومسند أحمد (٥/ ١٣٦) إن النبى ﷺ أمر الأمة رجالاً وإناثًا أن يقولوا لمن يعتز بالجاهلية «عض ذكر أبيك» وفى رواية أخرى: «مص ذكر أبيك» فهل هذا كلام؟.. من قال فيه رب العالمين: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾. انتهى كلامهم.

والجواب: العبارات التى كتبتها مكذوبة مائة فى المائة، وليس فى أى رواية «عض ذكر أبيك» ولا «مص ذكر أبيك» وأنا أحكم بأن هذه العبارات مكذوبة بعد أن راجعت المواطن التى ذكرتها، والمواطن التى لم تذكرها، ومنها:

١ ـ صحيح ابن حبان.

٢ ـ معجم الطبرانى الكبير.

٣ ـ شرح السنة.

٤ ـ عمل اليوم والليلة للنسائى.

٥ ـ عمل اليوم والليلة لابن السنى.

---

(١) أخرجه الحاكم ٢/ ٨٢ مطولاً. وذكره فى شرح السنة ١٣/ ١٢٤ فى شرح حديث ٣٥٤٤.

(٢) اسمه محمد الطحلاوى، كتب ذلك فى مجلة أكتوبر القاهرية العدد ١٢٤٢ تاريخ ١٣/ ٨/ ٢٠٠٠ ص٥٧.

(٣) أى مصيبة أعظم من المصيبة التى تقدمت فى مقاله.

وقد قدمت ذلك تفصيلاً.

لقد خرجتُ الحديث وراجعته من مصادره، باحثًا على سبيل الاستقصاء فلم أجد هذه الكلمات.

كان القياس أن أجد هذه الكلمات التى تتشنج بسببها فى المصادر التى ذكرتَها، لكنى لم أجدها فى المصادر التى ذكرتَها ولا فى غيرها، مما يجعلنى أحكم جازمًا، أنك تكذب على رسول الله ﷺ، وتتخذ من هذا الكذب مستندًا لك لإعابة كتب السنة.

شكوتك لله

ويكفينى أنى بَيّنْتُ شأنك وشأن أمثالك للأمة.

* * *

• **حديث: «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته»[١].**

يستشكل كاتب[٢] على هذا الحديث استشكالاً لغويًا، يدعى فيه أن كلمة «راع» قد نهى القرآن عنها وذلك فى:

* قول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾[٣].

* وقوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[٤].

وتتلخص شبهة هذا الكاتب فى:

١ ـ مادة «رعى» تحط من أقدار الناس، فالرعى إنما هو للبهائم، كرعى الغنم، ورعى الإبل.

٢ ـ لم يستخدم الله فى القرآن الكريم مادة «رعى» وإنما استخدم مادة «نظر».

٣ ـ نهانا الله عن قول هذه الكلمة فى القرآن الكريم، فكيف ترد فى الحديث؟

والجواب:

١ ـ إن القول بأن مادة «رعى» تحط من أقدار الناس، قول باطل تمامًا. والذى يظهر لى أنه جاء من اقتران الرعى بالماشية، بيد أن هذا الاقتران إنما هو فى ذهن مثير هذه الشبهة وحده.

أما الكلمة فى أصل وضعها اللغوى فليست خاصة بالبهائم، فإن مادة «رعى» عند علماء اللغة معناها: المراقبة والحفظ، والراعى الوالى، والقائم على الشىء تقول الخنساء:

---

(١) أخرجه البخارى رقم ٨٩٣ وغير ذلك كثير، وأخرجه مسلم رقم ١/٨٢٩.

(٢) هو أبو القاسم حاج حمد فى كتابه «العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة» نقلاً عن مجلة البيان عدد ١٥١ فى ربيع الأول ١٤٢١ يونيه ٢٠٠٠.

(٣) سورة البقرة الآية ١٠٤.

(٤) سورة النساء الآية ٤٦.

أرعى النجوم وما كُلِّفْتُ رِعيتها وتارة أتغشى فضل أطماری[١]

إن الخنساء هذه السيدة العربية الفصيحة تقول إنها ترعى النجوم بمعنى تراقبها، وهذا يوضح أن الرعى ليس خاصًا بالبهائم. أما مثير هذه الشبهة فإنه يريد أن يجعل الرعى حكرًا على البهائم!!

لا يا أيها المستشكل، إن كل من راقب شيئًا، ولاحظه واهتم به فهو راع له، وكل من تعهد شيئًا واهتم به فهو راع له.

ولو أن هذا المستشكل راجع شيئًا من كتب اللغة ما قال هذا الذى قال، ولزال عنه هذا الاستشكال.

٢ ـ القول بأن الله سبحانه لم يستخدم فى القرآن الكريم مادة «رعى» وإنما استخدم مادة «نظر» قول فى غاية البطلان.

فلقد وردت هذه المادة «رعى» فى القرآن الكريم أكثر من مرة:

يقول الله تعالى فى وصف المؤمنين الفائزين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[٢] ويقول سبحانه فى وصف المصلين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[٣] ولقد استخدمت فى الآيتين بنفس المعنى الذى فى الحديث، استخدمت بمعنى الاهتمام والمحافظة على الأمانات والعهد، واستخدمت فى المحافظة على الفضائل، وبالتالى فهى ليست كلمة محرمة، ولا هى كلمة خاصة بالبهائم، ولا هى من لوازم القسوة كما يقول هذا المستشكل.

وجاءت كلمة «رعى» أيضًا فى وصف أهل الكتاب، ينعى الله عليهم أنهم ابتدعوا رهبانية لكنهم لم يعطوها حقها من الرعاية.

يقول سبحانه: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[٤].

---

(١) راجع معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢/٤٠٨.
(٢) سورة المؤمنون الآية ٨.
(٣) سورة المعارج الآية ٣٢.
(٤) سورة الحديد الآية ٢٧.

وهكذا استعمل القرآن الكريم مادة «رعى» فى أكثر من موضع، استعملها بمعنى الحفظ والعناية بدقائق الأشياء، ومحاسن الخصال.

٣ ـ القول بأن الله تعالى نهانا فى القرآن الكريم عن استعمال مادة «رعى» هذا خطأ صريح.

فالذى فى القرآن الكريم نهى المسلمين أن يقولوا لرسول الله ﷺ «راعنا»، فهنا شرطان لتحريم هذه الكلمة، وهما:

١ ـ قولها بهذه الصورة «راعنا».

٢ ـ مخاطبة رسول الله ﷺ بها.

ذلك أن المسلمين يقولونها بمعنى: اهتم بنا. فعل أمر من «راعى» فهم يطلبون منه ﷺ أن يستمع إليهم، وأن يهتم بهم.

أما اليهود فهم يقولونها لرسول الله ﷺ بمعنى: أنت أحمق وأهوج» من رَعُن الرجل يَرْعَنُ رعنًا، فهو أرعن أى أهوج وأحمق.

ومادة الكلمة فى قول المسلمين (ر ع ى).

ومادتها فى قول اليهود (ر ع ن).

وهذه غير هذه تمامًا.

لكن نُهى عن قولها لرسول الله ﷺ لِلَوْىِ اليهود لها واستعمالها فى قصدهم المعنى السيئ، ولقد سجلت عليهم الآية الثانية ثلاث جرائم:

١ ـ قولهم له ﷺ: سمعنا وعصينا.

٢ ـ قولهم له ﷺ: اسمع غير مسمع.

٣ ـ قولهم له ﷺ: راعنا.

يقولون ذلك يلوون الكلام بألسنتهم ليًا ليفيد معنى سيئًا، يكون سبّا لرسول الله ﷺ، وطعنًا فى الإسلام، دين الله تعالى. يقول الله سبحانه: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ

وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (١).

وعليه فليس فى الآيتين نهى عن استعمال كلمة «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته» ذلك أن المنهى عنه فى الآيتين اللتين أوردتهما فى أول الشبهة إنما هو كلمة «راعنا» إذا قيلت لرسول الله ﷺ أما ما فى الحديث فليس فيه ذلك مطلقًا، فليس فيه «راعنا» مخاطبًا بها رسول الله ﷺ. وإنما فيه استعمال كلمة «رعى» وهى كلمة تفيد التعهد والحفظ، واستعملها القرآن الكريم فى المحافظة على الأمانات والعهود، والعبادة.

* * *

(١) سورة النساء الآية ٤٦.

• حديث: الإسراء والمعراج:

قصة الإسراء والمعراج من الأمور الثابتة بالقرآن والسنة، إلا أن أعداء الإسلام يجعلون من أحاديث الإسراء مصدر طعن فى السنة، فيقولون: لماذا تردد الرسول ﷺ بين ربه وبين موسى بالذات؟ ولماذا موسى هو الذى اقترح على الرسول قضية التخفيف؟

ويجعلون من هذا مصدراً من مصادر طعونهم فى السنة، يدعون أن هذه الأحاديث وضعتها اليهود ليعلوا من قدر موسى.

والجواب أولاً بإيجاز:

١ - بدهى عند كل عاقل أن يكون الموقف هكذا، فموسى نبى الأمة السابقة على أمة محمد مباشرة، فهو نبى بنى إسرائيل الذى ختمت به الرسالة فيهم، ورسالة عيسى مكملة لرسالة موسى، ثم جاءت رسالة محمد ﷺ، فموسى أدرى الناس بطبيعة البشرية فى هذه الحقبة، ومن هنا نصح لرسول الله محمد ﷺ، وقبل رسول الله ﷺ نصيحته بقدر، فلما خففت الصلاة لخمس، قال له موسى: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، رفض محمد ذلك، وقال: أرضى وأسلم، مما يدل على شخصية محمد ﷺ فى الأمر.

لقد كان موسى عليه السلام مجرد ناصح، أما الرأى الأخير فهو لمحمد ﷺ.

٢ - لم تثبت الأحاديث ميزة لموسى، وإنما شىء من الإشفاق.

وليس فى الأحاديث أن موسى هو الوحيد الذى قابله رسول الله ﷺ.

وليس فيها أن موسى كان فى السماء الأولى ميزة له، أو فى السابعة ميزة أخرى له. فليس هو أول من قابل رسول الله، ولا هو الذى فى أعلى السموات.

* وعلى العكس من ذلك فالأحاديث فيها أن موسى بكى حينما تجاوزه رسول الله محمد ﷺ.

* وفى أحاديث الإسراء ميزة لإبراهيم، ففيها: أن أشبه الناس به رسول الله محمد ﷺ، وفيها أنه خليل الرحمن، وفيها أنه فى السماء السابعة. وفيها أنه كان مسنداً ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال. وفيها أنه كان على باب الجنة على كرسى، وهو الذى سبق بالنصح لرسول الله محمد ﷺ.

* وفيها كثير من المزايا لمحمد ﷺ فهو الذى ارتقى إلى مكان لم يصله نبى ولا رسول، وهو الذى قبل الله شفاعته فى أمته، وبقى كثيراً فى الحضرة الإلهية يسأل الله، والله سبحانه وتعالى يستجيب له، وهو صاحب الحس الصادق، وإمام المرسلين، صلى بمن أحضره الله له منهم إماماً.

وكل هذا يثبت أن أحاديث الإسراء والمعراج لا تعصب فيها لموسى، وليست من دس اليهود، وإنما هى أحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ، أخرجها أئمة السنة الأعلام، البخارى ومسلم، وغيرهما.

الجواب تفصيلاً:

الإسراء والمعراج من الأمور الثابتة بالكتاب والسنة، فقد جاء ذكر الإسراء فى سورة من القرآن الكريم، وسميت باسمه.

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١).

تفيد هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى سيّر رسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فى جزء من ليلة.

كما جاء المعراج أيضًا فى سورة من القرآن الكريم، سميت بشىء من المعراج، ألا وهى سورة النجم. قال الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (٢).

---

(١) الآية الأولى من سورة الإسراء.
(٢) سورة النجم الآيات من ١ إلى ١٨.

يقسم سبحانه وتعالى بالنجم جنس النجم، أى يقسم سبحانه بكل النجوم، هذه المخلوقات العظيمة، يقسم بها على عصمة محمد ﷺ، وأنه ما ضل وما حاد عن طريق الحق فى أقواله وأفعاله، وأنه ما غوى أى ما جهل ولا كان رأيه مجانبًا للصواب، وأنه ﷺ لا ينطق عن هوى نفسه، وإنما بوحى الله سبحانه إليه، يأتيه بهذا الوحى ملك شديد قوى، يستطيع أن يقوم بكل ما كلفه الله به، ملك «ذو مرة» أى صاحب قوة ذاتية، فإذا فعل شيئًا أحكمه، ولقد «استوى» هذا الملك لمحمد، أى ظهر له على حقيقته، ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ أى ظهر جبريل لمحمد ﷺ، وكان جبريل جهة العلو، ثم اقترب جبريل من محمد ﷺ فكان قريبًا من مقدار قاب قوسين، أى قريبًا منه قرب الجليس لجليسه، فبلغ جبريل رسول الله محمدًا ما شاء الله تعالى أن يوحيه إليه، ورسول الله محمد يرى جبريل رؤية صادقة دون شك أو جهل، وبكّت سبحانه وتعالى المشركين على تكذيبهم رسوله ﷺ فقال: ﴿أفتمارونه على ما يرى﴾ أى أتجادلون محمدًا ﷺ فيما رآه بعينيه؟ والله، لقد رأى محمدٌ جبريل مرة أخرى، وذلك عند سدرة المنتهى، هذه التى فى العالم العلوى، عندها جنة المأوى، وهو ﷺ فى هذه المكونات ثابت مطمئن، يفهم الأمور على حقيقتها، فما اضطرب ولا اعترته المخاوف ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾.

وهكذا تبين هذه الآيات أن محمدًا ﷺ قد عُرج به إلى السماء، إلى سدرة المنتهى، وجنة المأوى، ورأى جبريل على صورته التى خلق عليها، وكل ذلك فى المعراج.

وقد جاءت أيضًا أحاديث كثيرة فى موضوع الإسراء والمعراج:

منها ما هو فى صحيح البخارى[١].

ومنها ما هو فى صحيح مسلم[٢].

---

(١) راجع الأحاديث رقم: ٣٤٩، ١٦٣٦، ٣٣٤٢، ٣٨٨٦، ٤٧١٠، ٣٢٠٧، ٣٣٩٣، ٣٤٣٠، ٣٨٨٧.

(٢) راجع الأحاديث رقم: ١٦٢/٢٥٩ جـ١ ص١٤٥ فما بعدها، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات.

ومنها ما هو فى السنن الأربعة[١].

ومنها ما هو فى غير ذلك من كتب السنة[٢].

وأسوق حديثًا منها:

فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أُتيتُ بالبُراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، قال، فركبته حتى أتيت بيت المقدس. قال، فربطته بالحلقة التى يربط بها الأنبياء. قال، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت. فجاءنى جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن. فاخترت اللبن. فقال جبريل ﷺ: اخترت الفطرة. ثم عَرَج بنا إلى السماء. فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال جبريل. قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بعث إليه. فَفُتِح لنا. فإذا أنا بآدم. فرحّب بى ودعا لى بخير. ثم عَرَج بنا إلى السماء الثانية. فاستفتح جبريل عليه السلام. فقيل: من أنت؟ قال جبريل. قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بابنى الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكرياء صلوات الله عليهما. فرحبا ودعوا لى بخير. ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. فَفُتح لنا. فإذا أنا بيوسف ﷺ، إذا هو قد أعطى شطر الحسن. فرحّب ودعا لى بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة. فاستفتح جبريل عليه السلام. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قال: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بإدريس. فرحب ودعا لى بخير. قال الله عز وجل: ﴿ورفعناه مكانا عليًا﴾[٣] ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة. فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث

(١) راجع الترمذى كتاب التفسير باب ومن سورة بنى إسرائيل. والنسائى كتاب الصلاة باب فرض الصلاة.

(٢) ومن أجمعها دلائل النبوة للبيهقى.

(٣) سورة مريم الآية ٥٧.

إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بهارون ﷺ. فرحّب ودعا لى بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السادسة. فاستفتح جبريل عليه السلام. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بموسى ﷺ. فرحب ودعا لى بخير. ثم عَرجَ إلى السماء السابعة. فاستفتح جبريل. فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. فَفُتح لنا. فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسندًا ظهره إلى البيت المعمور. وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. ثم ذهب بى إلى السِّدْرة المنتهى(١). وإذا ورقها كآذان الفِيَلَة. وإذا ثمرها كالقلال(٢). قال، فلما غشيها من أمر الله ما غَشِى تغيرت. فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها. فأوحى الله إلىّ ما أوحى. ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة. فنزلت إلى موسى ﷺ. فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك. فإنى بلوت بنى إسرائيل وخبرتُهم. قال، فرجعت إلى ربى فقلت: يا رب، خفف على أمتى. فحط عنى خمسًا. فرجعت إلى موسى فقلت: حط عنى خمسًا. قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال، فلم أزل أرجع بين ربى تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر، وذلك خمسون صلاة، ومن هَمّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئًا. فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته. فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فقال رسول الله ﷺ فقلت: قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه»(٣).

---

(١) هكذا جاءت هنا «السدرة المنتهى» بأل فى السدرة. و «سدرة المنتهى» سميت بذلك لأنه ينتهى تحرك كل ملك إليها، فلم يجاوزها أحد إلا رسول الله محمد ﷺ.

(٢) جمع قلة، والقلة: جرة كبيرة تسع أكثر من مائة لتر ماء.

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ ١/ ١٤٥ رقم ٢٥٩/ ١٦٢.

هذا حديث صحيح، أخرجه الإمام مسلم وغيره، وفوق ذلك تؤيده الآيات القرآنية، فهو يتحدث عن الإسراء والمعراج، وهما ثابتان بالقرآن الكريم.

وفى الحديث من التفصيل والبيان ما يسعد قلب المؤمن، ففيه الحديث عن معجزة من معجزات رسول الله ﷺ، وفيه بيان لكثير من الأمور التى أكرم الله بها رسوله محمدًا ﷺ، وفيها كثير من الدروس والفوائد العقدية والعملية.

إلا أن أعداء السنة يتخذون من هذا الحديث مصدرًا للتشويش على السنة، فيقولون: لماذا يتردد الرسول ﷺ بين الله وبين موسى، إن هذا من وضع اليهود، أرادوا أن يثبتوا به منزلة لموسى ا هـ كلامهم.

وأقول: نعم، واضح من الحديث أن رسول الله محمدًا ﷺ لما فرض الله تبارك وتعالى عليه وعلى أمته خمسين صلاة فى اليوم والليلة وعاد فمر على إبراهيم الخليل لم يسأله، فلما مر على موسى سأله موسى، ما فرض الله على أمتك؟ فقال ﷺ: خمسين صلاة. فقال له موسى: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فرجع محمد ﷺ وسأل الله التخفيف فحط سبحانه وتعالى عنا خمس صلوات، تكرر ذلك تسع مرات فى كل مرة يطلب منه موسى أن يرجع وأن يسأل الله التخفيف.

ولا اعتراض على هذا ولا انتقاد، وذلك للأسباب الآتية:

١ ـ قرب الرسولين من بعضهما:

فموسى عليه السلام صاحب الرسالة التى قبل الإسلام مباشرة، فرسالته التكاليف، ورسالة عيسى عليه السلام مكملة لها وهى مواعظ، فهو أحدث رسول قبل محمد ﷺ، فدرايته أى موسى بالبشرية فى هذه الآونة أقوى من دراية بقية الرسل. ومن هنا يقول الرسول محمد ﷺ: «ارجع إلى ربك فسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإنى بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم»[١] وفى رواية أخرى: «إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإنى والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك»[٢].

(١) الرواية التى سبق أن ذكرتها بطولها من مسلم.

(٢) هى رواية أنس عن مالك بن صعصعة عند البخارى رقم ٣٨٨٧.

٢ ـ تشابه الرسالتين:

وأيضًا فرسالة موسى كانت للبشرية فى أقرب أطوارها من الإسلام، فهى أكثر صلوات، وأكثر أحكام من الرسالات السابقة عليها، ومن هنا نصح موسى، محمدًا صلى الله عليهما وسلم، وقبل منه محمد ﷺ.

* ومن هاتين النقطتين يتضح أن الحديث لا يثبت ميزة لموسى عليه السلام، فالمحادثة بينهما سببها قرب زمانيهما، وتشابه رسالتيهما.

٣ ـ لا ميزة فى الحديث لموسى:

والقارئ لكل روايات الحديث لا يجد ميزة لموسى عليه السلام، ويعجز منكرو السنة عن إبراز أى ميزة فيه لموسى. إنهم يعللون وصفه بأنه يمثل ميزة لموسى، وإنى أتساءل معهم: أين الميزة؟

إن كون موسى سأل محمدًا ﷺ لا يثبت ميزة لموسى عليه السلام، فإنه ينصح، والنصيحة قدر من أخلاق الأنبياء، إنه لم يذهب معه إلى أعلى من مكانه، بل ظل فى السماء السادسة، وإنما محمد هو الذى عاود العلو والارتقاء إلى حيث لا ملك ولا نبى، فالميزة لمحمد ﷺ.

إن موسى لم يكلم ربه، وإنما الذى كلم ربه وكلمه ربه هو محمد ﷺ، فأى ميزة لموسى حتى يقال إن الحديث وضعه اليهود، إن الميزة فى الحديث لمحمد، فلقد عاود الارتقاء، وحظى بالحديث والخطاب، يكلمه الله ويكلم الله، أوتى ميزة موسى الكليم وزاد، وارتقى فوق مقام جبريل واستفاد.

إنه لا ميزة فى الحديث لموسى، وإنما فيه أنه أحس بقدر محمد صلى الله عليهما وسلم، وأحس أن محمدًا أوتى من الفضل أكثر مما أوتى هو أى موسى، وأن أمة محمد قد فاقت أمته فى الفضل والمنزلة، ولقد بلغ بموسى الأمر أن بكى، بكى من رفعة محمد ﷺ وأمته.

ففى هذا الحديث: «فلما تجاوزت أى موسى بكى. قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى لأن غلامًا بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتى»[١].

---

(١) حديث رقم ٣٨٨٧ فى صحيح البخارى.

وفى رواية: «لم أظن أحدًا يرفع علىّ».

وفى رواية: «يزعم بنو إسرائيل أنى أكرم على الله، وهذا أكرم على الله منى».

وفى رواية: «ولو كان هذا وحده هان علىّ، ولكن معه أمته وهم أفضل الأمم عند الله»[١].

٤ ـ الميزة فى الحديث لمحمد ﷺ:

أ ـ فهو الذى ارتقى إلى حيث سمع صريف الأقلام، إلى مكان لم يبلغه نبى مرسل ولا ملك مقرب، جاء فى رواية: «ثم عُرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»[٢] أى الصوت الذى يصدر من الأقلام أثناء الكتابة، والمراد ما تكتبه الملائكة من أقضية الله سبحانه وتعالى[٣]، مما كلفت به الملائكة.

ب ـ وهو الذى دخل الجنة ورأى ما فيها:

جاء فى رواية: «ثم أُدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»[٤].

جـ ـ وهو الذى قبل الله شفاعته، فحينما عاد يسأل الله التخفيف أكرم الله الكريم وجهه ﷺ، فخفف عنه وعن أمته، وكم عاد، وفى كل مرة بلغ المراد. فسبحانه ربنا الكريم الذى قبل شفاعة رسوله كثيرًا، وصلى الله وبارك عليه الذى رجا وشفع طويلاً.

وفى هذه النقطة كثير من الفضل والميزة له، فهى تدل على كريم منزلته عند ربنا تبارك وتعالى، وتدل على رحمته ﷺ وشفقته علينا.

وفيها عظيم كرم الله لهذه الأمة، يظل هذا معلومًا فى الأحاديث النبوية مفيدًا كرم ربنا، وشفقة نبينا.

د ـ وفى الترديد وطول بقائه ﷺ فى حضرة الله، يناجى ثم يذهب فيتشاور مع

---

(١) راجع كل هذا فى فتح البارى شرح الحديث رقم ٣٨٨٧. وراجع دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٣٩٣.

(٢) عند البخارى رقم ٣٤٩.

(٣) فتح البارى شرح الحديث ٣٤٩.

(٤) عند البخارى رقم ٣٣٤٢. و «جنابذ اللؤلؤ» أى قباب من لؤلؤ.

موسى، ثم يعود فيناجى ربه، وفى ذلك حظوة بطول المناجاة والبقاء فى حضرة الله تبارك وتعالى.

هـ ـ وهو صاحب الحس الصادق:

وفى هذا الحديث ميزة عظمى لرسول الله محمد ﷺ، فإن موسى بعد أن صارت الصلاة خمسًا طلب منه أن يرجع فيسأل التخفيف، إلا أنه ﷺ رفض الرجوع وقال: «سألت ربى حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم. قال: فلما جاوزت نادى مناد: أمضيت فريضتى، وخففت عن عبادى»[1].

إنه الحس الصادق، والفطانة الكاملة، رضى بما فيه الرضى، وسلم بما اتضح أنه الحق.

إنه الرسول الذى عايش نصوص دينه فأصبحت فكره ولبه، أصبحت رأيه وقلبه، إنه قرأ قول الله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [2] فلما وصل التخفيف إلى العُشْر أدرك أن هذا هو الذى سيستقر.

إنه ﷺ لم يفكر فى أمر أمة موسى، وأنهم كانوا يصلون فى اليوم صلاتين، وإنما كان يفكر فى نصوص دينه، فألهم الصواب فى فهم أصل من أصول دينه، وأنه الذى ينبنى عليه تصرفه ﷺ.

و ـ وهو إمام المرسلين:

وفى حديث الإسراء والمعراج يقول ﷺ: «فجاءت الصلاة فأممتهم»[3] إنه ﷺ قد صلى بالأنبياء إمامًا، وفى ذلك من التكريم ما فيه.

لقد جمع الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ كثيرًا من الأنبياء، صلوا خلفه، وكانوا فى استقباله ووداعه، تحدث معهم، وتحدثوا معه، وفى ذلك الكثير والكثير من التكريم، مما يثبت ميزته ﷺ.

(١) عند البخارى رقم ٣٨٨٧.
(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٠.
(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٣٨٧.

٥ ـ لم ينفرد موسى بالنصح، وإنما سُبِق:

أقول لمنكرى السنة الذين ينكرون حديث الإسراء والمعراج بانين إنكارهم على أن اليهود دسوه ليثبتوا لموسى فضلاً فى دين الإسلام، أقول لهم: لا، وألف لا، إن الحديث لم يثبت لموسى فضلاً، فإن موسى عليه السلام لم ينفرد بنصح نبينا ﷺ، وإنما سبقه إبراهيم الخليل، فحينما مر محمد ﷺ على إبراهيم الخليل، وهو صاعد قال له الخليل عليه الصلاة والسلام: يا بُنَىّ إنّك لاق ربَّك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جُلّها فى أمتك فافعل.

إن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام سبق موسى عليه الصلاة والسلام فى النصح لمحمد ﷺ، وأوصاه أن يهتم بأمر أمته، فليجعل كل رجاءاته لله، أو معظمها لصالح أمته.

وهكذا فإن الحديث لم يجعل موسى ينفرد بالنصح، وإنما سبقه إبراهيم الخليل، أما صاحبُ الرأى الحاسم فكان محمدًا ﷺ، فعند حد معين وقف ولم يرجع، وظهر أن هذا كان مراد الله تعالى.

٦ ـ ليس فى الحديث ما يوحى بدس:

إن المتتبع لأحاديث الإسراء والمعراج بكل رواياتها يتضح له جليًا أنها لا يمكن أن تكون مدسوسة، فليس فى أى إسناد[١] من أسانيدها أحد من أهل الكتاب، ولا ممن يروى عن أهل الكتاب.

إن أعداء السنة يلقون بالكلام دون دراسة أو تحديد، فليقولوا لنا من الذى دس هذا الحديث، إنهم لا يستطيعون ذلك، فكل رجال إسناده إنما هم ثقات، أى مسلمون صالحون أذكياء، صلاحهم يمنعهم من الكذب، وذكاؤهم يبعدهم عن الخطأ، وقد رُوى الحديث من أكثر من طريق، وكلها متعاضدة يقوى بعضها بعضًا، فمن أين يأتى بالدس؟

(١) الإسناد هو: سلسلة الرجال الموصلة للمتن. يعنى مجموعة الرجال الذين يروون الحديث من البخارى مثلاً إلى رسول الله ﷺ. أما كلام رسول الله ﷺ والذى هو نص الحديث فيسمى «المتن».

إن أحاديث الإسراء والمعراج ثابتة بأحاديث صحيحة، جاءت من طرق كثيرة، بلغت حد التواتر، ومن هنا فليس لعاقل أن يجحدها.

لقد رواها عن رسول الله ﷺ خمسة وأربعون صحابيًا[١]، ورواها عنهم كثرة كثيرة من التابعين، وعنهم أتباع التابعين بأكثر وأكثر، ومن هنا فهى مما لا يمكن التشكك فيه.

ثم إن الإسراء والمعراج أصلهما ثابت بالقرآن الكريم، وهذا يفيد ثبوتهما أكثر وأكثر، وعليه فليس لمنصف أن يشك فى هذه الأحاديث.

إن السنة النبوية تهيأ لها من أسباب الحفظ والسلامة ما يجعلها حصينة ضد أى تزييف، وأقوى من أن يزاد فيها حرف أو يحذف منها حرف.

إن السنة النبوية علم له علماؤه، الذين حفظوه وحافظوا عليه، درسوه وقعدوا له القواعد، ووضعوا الأسس الكفيلة بسلامته، مما معه سلمت السنة النبوية من الدس، وسلم حديث الإسراء والمعراج الذى هو واحد منها من الدس.

إن أعداء السنة يتكلمون عن السنة وكأنها ليست علمًا له حماته، بينما السنة النبوية قد بذل فى حفظها من الجهود ما يجعل الدارس لتاريخها يوقن بسلامتها كل السلامة، ويعترف بحفظها تمام الحفظ.

وكلامهم هنا عن السنة إما أنهم يجهلون تاريخ السنة، وإما أنهم يغالطون ويكابرون، والذى يترجح عندى الثانى.

إن أحاديث الإسراء والمعراج لم يقل أحد من أئمة الإسلام بوضعها، ولا اعترض أحد على صحتها وثبوتها، وإنما حكموا بأنها فى أعلى درجات الثبوت، وهؤلاء أعلم وأدرى، ومنكرو السنة ليسوا من أهل الدراية بها، فما كان لهم أن يتحدثوا فى ذلك، فلكل علم رجاله، ولكل تخصص جهابذته.

وختامًا: فواضح مما سبق أن أحاديث الإسراء والمعراج أحاديث ثابتة، فى أعلى درجات الثبوت، حكم الأئمة بصحتها، وبتواترها، والقرآن الكريم يؤيدها.

واعتراض بعض المغرضين عليها أن يكون موسى عليه السلام هو الذى أشار

(١) راجع نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتانى ص١٣٢ حديث رقم ٢٥٨.

على محمد ﷺ بسؤال الله تعالى التخفيف يدل على أن هذه الأحاديث مدسوسة دسها اليهود ليثبتوا مزية لموسى عليه السلام. اعتراضهم هذا اعتراض مرفوض، ولا قيمة له فى الميزان العلمى، وذلك من عدة أوجه:

١ ـ إن قرب زمن الرسولين من بعضهما يجعل تشاورهما أمرًا عاديًا.

٢ ـ ليس فى أحاديث الإسراء والمعراج ميزة لموسى عليه السلام.

٣ ـ وإنما فيه مزايا لمحمد ﷺ.

٤ ـ وأن موسى لم ينفرد بنصح محمد ﷺ، وإنما سبقه الخليل إبراهيم عليه السلام.

٥ ـ وأحاديث الإسراء والمعراج متواترة، لم يعترض عليها أحد من أئمة الأمة، وليس فيها مغمز، والسنة محصنة ضد أى زيادة أو نقص.

* * *

● حديث الإسراء، وهل فيه أن الإسراء كان قبل البعثة؟

ويدّعى منكرو السنة النبوية أن حديث أنس بن مالك فى الإسراء يفيد أن الإسراء كان قبل البعثة، ويقيمون تعارضًا بينه وبين القرآن الكريم فى قول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [١] يقولون إن قول الله: ﴿لنريه من آياتنا﴾ تفيد أن الإسراء كان قبل البعثة، ويشنعون على البخارى ومسلم كيف يخرجان أحاديث لا تتفق مع القرآن الكريم، وبالتالى هى باطلة، إنهم يقولون للمحدثين: إنكم لو تأملتم كلمة فى آية ما أخطأتم هذا الخطأ، إنكم لم تتأملوا القرآن الكريم.

وأقول لهم: مهلاً، مهلاً فكلامكم خطأ تظهر فيه رائحة الافتراء، وتفوح منه الأكاذيب، وذلك لما يأتى:

أولاً: لماذا لم تذكروا نص الحديث أو على الأقل نص الجملة التى تفيد أن الإسراء كان قبل البعثة؟

إن الواجب أن تذكروا النص وبكل دقة، حتى يشارككم القارئ الرأى، وإننى أسوق النص، بالرواية التى حددتم رقمها:

فعن شريك بن عبد الله أنه قال: سمعت ابن مالك[٢] يقول: ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم. فقال أحدهم: خذوا خيرهم. فكانت تلك الليلة، فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبَّتِه حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشوًّا إيمانًا وحكمة، فحشا به صدره ولغاديده ـ يعنى عروق حلقه ـ ثم أطبقه، ثم عرج به إلى سماء

(١) أول سورة الإسراء.

(٢) يعنى أنس بن مالك.

الدنيا. . . الحديث[1].

إنهم لو كتبوا النص هكذا ما راجت شبهتهم، وما انطلت على قارئ، فقوله «قبل أن يوحى إليه» لا تصح مستندًا لهم على أن الإسراء كان قبل البعثة، فإن قوله بعد ذلك «فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى» يدل على أن الملائكة جاؤوه ﷺ مرتين: الأولى قبل البعثة فى منامه، رآهم رؤيا منامية، ووعى ما قالوه فهو ﷺ تنام عيناه، ولا ينام قلبه. والثانية: بعد البعثة، جاؤوه وأيقظوه، وشقوا صدره، ثم كان الإسراء والمعراج، وبين الليلة الأولى والليلة الثانية عشرة أعوام، كما تفيد الروايات.

إن القارئ يدرك جيدًا أن هناك ليلتين كما فى النص، ليلة حدث فيها الرؤيا قبل أن يوحى إليه ﷺ أى قبل البعثة، وليلة بعد البعثة وعليه فلا مجال مطلقًا لاعتراض منكرى السنة.

إن اعتراضهم يصح لو أن النص فيه ليلة واحدة، وفيها أنه قبل أن يوحى إليه، أما هنا فليلتان، حدث فى إحداهما الإسراء والمعراج منامًا قبل البعثة توطئة وتمهيدًا، وكم من أمور حدثت منامًا ثم واقعًا، فلقد رأى دار هجرته قبل الهجرة بزمن، ثم هاجر فعلاً، وكذلك هنا رأى الإسراء منامًا فى ليلة قبل البعثة، وحدث عمليًا بعد البعثة بعشرة أعوام.

ثانيًا: لقد درس علماء الإسلام أحاديث الإسراء والمعراج دراسة دقيقة، وناقشوا هذه الكلمة «قبل أن يوحى إليه» وكلامى الذى كتبته هنا إنما هو خلاصة ما قالوه، فلم لم تبينوا للقارئ الحقيقة؟

إن هذه الدراسة التى قد قدمتها هنا ليست من عندى، ولا من خزينة خاصة بى، وإنما هى مذكورة فى كتب الأئمة، ولو أنصفتم لذكرتم ذلك.

يقول الحافظ ابن حجر: وقع الإسراء والمعراج فى ليلة واحدة، فى اليقظة، بجسد النبى ﷺ وروحه بعد المبعث، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة. نعم جاءت أخبار

(١) أخرجه البخارى فى التوحيد باب ما جاء فى قوله عز وجل ﴿وكلم الله موسى تكليمًا﴾ ٤٧٨/١٣ رقم ٧٥١٧ وهو عنده قبل ذلك رقم ٣٥٧٠ وفيه الإحالات.

تفيد أن ذلك وقع مرتين، مرة فى المنام توطئة وتمهيدًا، ومرة ثانية فى اليقظة، والتى كانت فى المنام كانت قبل البعثة كما تفيده رواية شريك عن أنس «وذلك قبل أن يوحى إليه»[1].

وواضح من كلام الحافظ ابن حجر أنه فهم أن النص فيه ليلة أولى وليلة ثانية، وأن الأمر فى الليلة الأولى كان رؤيا منامية، وفى الليلة الثانية كانت الرحلة يقظة بروحه وجسده ﷺ.

إننى نقلت من كلام ابن حجر كى أوضح للقارئ أن علماء الإسلام قديمًا وحديثًا منتبهون لهذه النصوص، ويفهمونها كما جاءت فهمًا سليمًا. أما أعداء السنة فيأخذون كلمة من النص ويبعدونها عن نصها لتعطى معنى غير معناها فى النص، هذا المعنى يجعلها على أهوائهم، ثم يعترضون بها على السنة عمومًا.

سبحان الله!!

النص أمامهم ظاهر.

وكلام الأئمة عليه واضح.

وهم يغالطون فيقتطعون منه كلمة، تعطى مرادهم، ولا يذكرون النص للقارئ، مما يعمى المسألة على القارئ.

إن القارئ لكلامهم يخيل إليه أن هذه الكلمات لم يفطن لها علماء الإسلام، وأن هذه التى يدعونها أخطاء إنما هم الذين اكتشفوها، بينما علماء الإسلام قد درسوا هذه الكلمات بكل دقة، ولو أن الأمر أشكل عليهم فعلاً وطلبوا الصواب لوجدوه فى كلام أئمة الإسلام. إن علماء الإسلام قد وقفوا مع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يدققون فى كل كلمة، ويستنبطون من كل حرف.

والتراث الإسلامى قد اعتنى به علماء الإسلام اعتناء لا يشوبه أية منقصة، بل إنه اعتناء فاق درجة التمام.

ومن أراد استيضاح أى أمر وجده، ولا ينكر ذلك إلا زائغ.

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) فتح البارى ٧/ ١٩٧ شرح حديث رقم ٣٨٨٦.

• حديث: مجيء الله المؤمنين على غير صورته يوم القيامة.

وأعداء السنة النبوية يطعنون فى السنة بحديث أخرجه البخارى ومسلم يفيد أن الله تبارك وتعالى يتجلى للمؤمنين يوم القيامة فى الموقف فى غير صفته التى يعرفونها، ثم يتجلى بصفته التى يعرفونها.

يقول أعداء السنة: إن معنى هذا أنه يجوز اللهو على الله تعالى، فيأتى مرة متنكرًا، ومرة غير متنكر، وأنكروا أن يكون لله صفة معروفة للناس.

والجواب:

١ـ من أين جئتم أن مجيء الله المؤمنين على غير صورته لهو وتنكر؟ هل هذا فى نص الحديث؟

٢ ـ ثم لماذا لم تذكروا نص الحديث لتظهر صحة كلامكم أو خطؤه؟

وأسوق نص الحديث:

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال ناس يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال : هل تضارُّون[1] فى الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: هل تضارُّون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك، يجمع الله الناس فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت[2] الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله فى غير الصورة التى يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فى الصورة التى يعرفون، فيقول أنا ربكم، فيقولون أنت ربنا، فيتبعونه، ويضرب جسر جهنم. فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم... الحديث[3].

(١) هل تتعبون فى رؤية الشمس فى اليوم الصافى؟

(٢) الطواغيت: جمع طاغوت، وهو كل ما عبد من دون الله تعالى.

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق باب الصراط جسر جهنم ١١/ ٤٤٤ رقم ٦٥٧٣ وأخرجه مسلم فى الإيمان باب معرفة طريق الرؤية ١/ ١٦٣ رقم ٢٩٩/ ١٨٢.

وواضح من هذا النص ما يلى:

* ليس فى النص أن الله يأتى لاهيًا، وليس فى النص أى ذكر للهو، ولست أدرى من أين جاء منكرو السنة بأن النص يفيد أن الله يلهو!!

* واضح أن الموقف موقف صدق، فكل من يعبد شيئًا غير الله سيعترف بكفره، وسيذهب مع وثنه إلى جهنم. وهذا واضح من النص، والقرآن الكريم يؤيده: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (١).

* وتبقى أمة الإسلام فى أرض الموقف وحدها، إلا أنها تبقى ومنها المسلم ومنها المنافق، واضح ذلك من نص الحديث: «وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها»، ولا بد من تمييز هذا من ذاك، والتمييز إنما هو بالاختبار، ومواقف القيامة فيها اختبارات، فاختبار فى القبر، واختبار فى الموقف، وأهل الصدق يفوزون فى هذه الاختبارات كما قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ (٢) واضح من الآية أن هناك أيضًا تثبيت فى الآخرة، مما يدل على أن هناك ابتلاءات واختبارات، ومن هنا جرى اختبار لهذه الأمة ليمحصوا، وليميزوا، وليظهر نفاق المنافقين، ووهن إيمان العصاة المذنبين، وليثبت الصالحون، ويظهر إيمانهم القوى، ويقينهم الصادق، فيتجلى لهم الله فى صفة لا يعرفونه بها، فيتوقف الصالحون، وينقلب المنافقون، إن الصالحين يعرفونه وثابتو الإيمان، فلا يسلمون إذا اختبروا، أما المنافقون فإنهم ليسوا بثابتين فيخسرون إذا اختبروا، إنهم إذا تجلى سبحانه بصفة غير صفاته يأبى المؤمنون، ويقبل المنافقون، فيخسر المنافقون ويُذهب بهم إلى جهنم، أما الصالحون فيتجلى تبارك وتعالى لهم مرة ثانية، بصفاته العلا، وقد ألقى فى قلوبهم علمًا به، فكما عرفهم الجنة عرفهم صفته جل جلاله، يقول سبحانه فى شأن الصالحين، ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ (٣) فكما عرّف سبحانه أهل الجنة كل ما فى الجنة، فإنه سبحانه

(١) سورة الأنبياء الآية ٩٨.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٢٧

(٣) سورة محمد الآية ٥، ٦.

قد عرفهم خالقهم جل جلاله.

إن البشرية من أصل خلقتها تعرف الله تبارك وتعالى، فحينما أخذ سبحانه العهد على أصول المخلوقات الآدمية عرفهم سبحانه وحدانيته، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾[1] لقد اعترفوا بربوبيته وهذا يستلزم معرفة صفته سبحانه.

وهذه المعرفة مركوزة فى مدارك البشرية، تظهر فى الدنيا بقدر، كالإيمان بالله، وحبه سبحانه والشوق إلى لقائه، وأما فى الآخرة فتظهر بتمامها.

وكثير من المعلومات هكذا، فآدم رأى الجنة، وخزنت هيأتها فى ذاكرته، وذاكرة بنيه، والبشرية تسعى لجعل الأرض على غرار الجنة، يظهر فى كل جيل درجة فى تجميل الطرق، ودرجة فى تجميل المنازل، كل ذلك مما خزن فى الذاكرة من معارف عن الجنة. وهكذا.

ومن هنا فإذا رأى المؤمنون ربهم بصفته التى يعرفون انقادوا لأمره، فيرضى عنهم سبحانه ويرضيهم.

وعليه فلا لهو فى الموضوع، فليس فى الحديث، ولا فى كلام أحد من المحدثين أن الله يأتى أهل الموقف أولاً لاهيًا، لم يقل محدث بذلك، وإنما النص يحتم أن يكون هناك اختبار ليتميز المسلم من المنافق، فالنص فيه أن الكفر سينقلب بأهله إلى النار، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ولو لم يكن هناك تجلى من الله على سبيل الاختبار لقال من قرأ الحديث، كيف مُيِّز المنافق من المسلم؟ أما وقد جاء النص هكذا فلا تساؤل فلقد وضح المراد.

* * *

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢.

• حديث: قول النساء لعمر: أنت أغلظ وأفظ من رسول الله.

أخرج البخارى ومسلم عن سعد بن أبى وقاص قال: «استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ، وعنده نسوة من قريش يُكَلِّمْنه ويستكثرنه[١]، عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمرُ بن الخطاب قمن فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ، فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك ، فقال: أضحك الله سنك[٢] يا رسول الله، فقال النبى ﷺ: عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب. قال عمر: فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله. ثم قال عمر: يا عدوات أنفسهن، أتهبننى ولا تهبن رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: إيهًا[٣] يا ابن الخطاب، والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا[٤] قط إلا سلك فجًا غير فجك»[٥].

هذا الحديث على الرغم من أنه فى صحيح البخارى، وصحيح مسلم، وعند غيرهما وعملت به الأمة أربعة عشر قرنًا إلا أن أعداء السنة يتخذون منه وسيلة للطعن فى السنة، وخلاصة كلامهم أن الحديث فيه قول النساء لعمر: «أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ» ومعنى ذلك أن رسول الله فظ وغليظ. وهذا يتعارض مع قول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٦].

والجواب أولاً بإيجاز:

إنه ﷺ ليس غليظًا فى الدعوة إلى الله، أما على طلاب الدنيا والكافرين والمنافقين فهو غليظ.

---

(١) أى يطلبن منه زيادة النفقة، فهن زوجاته ﷺ.
(٢) السن العمر، والمعنى أضحك الله طول عمرك، أى رزقك السرور دائمًا.
(٣) أى زد من مطالبتهن بتوقير رسول الله ﷺ.
(٤) الفج: الطريق.
(٥) أخرجه البخارى رقم ٣٦٨٣ ومسلم ٢٣٩٦.
(٦) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

أما الجواب تفصيلاً:

١ ـ الفظاظة والغلظة كلمتان معناهما واحد، وهو شدة الخلق، وخشونة الجانب. وبتعبير آخر معناهما: القوة والقسوة والحزم.

والغلظة ليست خلقًا مذمومًا دائمًا، وإنما تمدح إذا استعملت فى الموقف الذى يحتاجها[1]، وتذم إذا استعملت فى الموقف الذى لا يحتاجها.

كما أن اللين والذى هو مقابل الغلظة ليس ممدوحًا دائمًا، وإنما يذم إذا استعمل فى موقف يحتاج الحزم والقسوة.

٢ ـ وأتساءل مع أعداء السنة سؤالين:

الأول: جاء نص الآية: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ فما معنى ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾؟ وماذا يفيد هذا التعبير؟

إنه يفيد أنه ﷺ كان يمكن أن يغلظ، لكنه برحمة الله تعامل باللين، إن قوله تعالى: ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ تفيد أن الشدة والقوة موجودة فيه ﷺ، لكنه يستعملها حيث يحتاجها الموقف، وأنه ﷺ لم يستعملها مع أصحابه فى الدعوة إلى الله، وإنما وُفق للين، فأثمر خيرًا، حيث الموقف يقتضى اللين.

الثانى: لماذا تنكرون الغلظة فى حقه ﷺ؟

ألم يأمره الله بالغلظة؟!!

ظاهر كلامكم أن هذا لم يرد، وأن الغلظة مذمومة دائمًا، وأنه ﷺ مبرؤ عنها. وليس الأمر كذلك. فلقد أمره الله تعالى بالغلظة فى أكثر من موضع، وبأكثر من أسلوب:

(١) بل إن لفظة وصف بها العهد كصفة مدح، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ سورة الأحزاب الآية ٧، فالغلظة هنا معناها الشدة، بمعنى أنه عهد موثق وقوى، وهذا يفيد أن الغلظة شدة ليست مذمومة. ونفس الشىء فى الآية ٢١ من سورة النساء: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ فالعهد بين الرجل والمرأة عهد قوى وثيق، وهكذا فليست الغلظة شدة مذمومة، وإنما هى شدة محمودة.

* يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١).

لقد تكررت هذه الآية فى القرآن مرتين، فيهما واغلظ عليهم إذن هو ﷺ يستطيع أن يقسو، وأن يغلظ، لكنها الغلظة المحمودة التى يوقعها صاحبها فى موضعها، حيث لا ينفع اللين، وتتعين الشدة.

* ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢).

وهذا أمر له ﷺ ولكل المؤمنين ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أى قوة وشدة، فلا بد للحق من قوة وصولة.

* يقول سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (٣)
هكذا كان ﷺ وهكذا كان أصحابه، وهكذا يجب أن يكون المسلمون فى كل زمان ومكان ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ يجمعون بين الشدة والرحمة، وللشدة موضعها، وللرحمة موضعها.

وهكذا تفيد النصوص أنه ﷺ كان قادرًا على الشدة، وكان قادرًا على اللين، وكان يُوَقِّع كلا منهما موقعه، وعلى هذا فلا تعارض مطلقًا بين الحديث والآية، فالآية تفيد عدم غلظته مع أصحابه، مع المؤمنين، فهو بالمؤمنين رحيم، إنه ﷺ ليس فظًا ولا غليظًا فى الدعوة إلى الله تعالى، وفى أمور الأمة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ لنت لهم، لأصحابك، لمن تدعوهم، فأنت لين فى موضع اللين.

أما إذا اقتضى الأمر الغلظة فالآيات الأخرى تأمره بهذا، كما سبق أن ذكرت، وحيث أن هؤلاء النسوة تحدثن معه فى أمور الدنيا، وفى أمور النفقة يطالبنه

(١) سورة التوبة الآية ٧٣. وسورة التحريم الآية ٩.
(٢) سورة التوبة الآية ١٢٣.
(٣) آخر سورة الفتح.

بالزيادة فيها، وأن يحث الرجال على زيادة النفقة، فكان ﷺ يحزم الأمر معهن أحيانًا، كان يشتد عليهن فى الإنكار، ينكر عليهن الحرص على الدنيا، الدنيا التى حذَّر الله منها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١).

وخلاصة الأمر أنه ﷺ كان الليِّن فى موضع اللين، والحازم فى موضع الحزم، والآية تأمر باستعمال اللين فى موضعه، فلا يكن الإنسان فظًا غليظًا فى موطن اللين، والحديث يفتح باب القسوة حينما يحتاج الأمر إلى القسوة، وهناك آيات تؤيد الحديث، فلا تعارض بين الحديث والآية. ومنكرو السنة مغرضون مفترون فى تكلف التعارض، فلو أرادوا الحق لسألوا أو قرؤوا، والأجوبة عن كل استشكالاتهم فى كتب الأئمة، والحمد لله رب العالمين.

إن علماء الإسلام قديمًا، ومنذ مئات السنين قد أجابوا على هذا الاستشكال، فكما أن أعداء السنة يستشكلون منذ زمن، فكذلك علماء الإسلام يردون عليهم منذ زمن.

يقول القاضى عياض (المتوفى ٥٤٤هـ) فى شرح قول النسوة لعمر: أنت أفظ وأغلظ - يقول: وقد يصح حملها - أفعل التفضيل - على المفاضلة، أى غليظ وأغلظ، وأن القدر الذى منها فى النبى ﷺ هو ما كان من إغلاظه على الكافرين والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وكان يغضب ويغلظ عند انتهاك حرمات **الله** تعالى(٢). اهـ.

ويقول الحافظ ابن حجر (المتوفى ٨٥٢هـ) قوله «أفظ وأغلظ» بصيغة أفعل التفضيل من الفظاظة والغلظة، وهو يقتضى الشركة فى أصل الفعل، ويعارضه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ فإنه يقتضى أنه لم يكن فظًا ولا غليظًا.

والجواب: أن الذى فى الآية يقتضى نفى وجود ذلك له صفة لازمة، فلا

---

(١) سورة المنافقون الآية ٩.

(٢) نقله عنه النووى فى شرح صحيح مسلم.

يستلزم ما فى الحديث ذلك، بل مجرد وجود صفة له فى بعض الأحوال وهو عند إنكار المنكر مثلاً. وجوز بعضهم أن «الأفظ» هنا بمعنى الفظ، وفيه نظر للتصريح بالترجيح المقتضى لحمل أفعل على بابه. وكان النبى ﷺ لا يواجه أحدًا بما يكره إلا فى حق من حقوق الله، وكان عمر يبالغ فى الزجر عن المكروهات مطلقًا وطلب المندوبات، فلهذا قال النسوة له ذلك.

وكلام الإمامين (عياض وابن حجر) هو خلاصة كلامى، وإنما ذكرته لبيان:

١ ـ أن الشبهة قديمة، وأن الرد عليها قديم.

٢ ـ وأن علماء الحديث منتبهون للحديث وللآية. يفهمون ويوفِّقون.

٣ ـ وأن علماء الحديث أدرى بالنص، وعلى غيرهم أن يحترم رأيهم.

٤ ـ وذكرته أيضًا لأن البعض يحرص على كلام الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين.

* * *

● حديث: نظر الصحابة فى الصلاة إلى امرأة حسناء.

يدعى منكرو السنة أن الترمذى وأبا داود[١] وابن ماجه قد أخرجوا حديثًا يفسر قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾[٢].

بأن ﴿المستقدمين﴾ هم بعض الصحابة كانوا يتقدمون إلى الصفوف الأولى للصلاة حتى لا يرون النساء.

و ﴿المستأخرين﴾ هم بعض الصحابة كانوا يتأخرون إلى الصف الأخير من صفوف الصلاة لكى يبصبصون[٣] إلى النساء من تحت آباطهم عند الركوع فى الصلاة.

ثم يشوشون على السنة النبوية بهذا الحديث، وأنه كيف يتأخر صحابى لينظر إلى امرأة فى الصلاة والله يقول فى وصفهم: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾[٤].

ويلاحظ أنهم هنا يعلون من قدر الصحابة جدًا، وذلك حتى يصبح تشنيعهم على الحديث قويًا!! أما فى غير هذا الموضوع فكثيرًا ما يخطئون فى حق الصحابة.

وأجيب بإيجاز ثم بالتفصيل:

١ ـ هذا الحديث ليس عن رسول الله ﷺ، وإنما أخرجه الأئمة على أنه من كلام عبد الله بن عباس.

٢ ـ ذكرتم أن هذا الحديث أخرجه الترمذى، ولكن ماذا قال الترمذى عليه؟ إن الترمذى تكلم عقب الحديث، وبين أنه لا يصح!!

بل إن ابن كثير قال: حديث غريب جدًا. وقال أيضًا: فيه نكارة شديدة.

---

(١) انتبهوا: الحديث ليس فى أبى داود، يبدو أن الحاسب الآلى عندكم معتل أو مختل.
(٢) سورة الحجر الآية ٢٤.
(٣) هكذا عبارتهم، وهكذا لغتهم، وأنا أنقل كلامهم من مذكرات يوزعونها على مثقفى هذا الزمان من صحفيين وكُتَّاب.
(٤) آخر سورة الفتح.

والأئمة على أن إضافة هذا الكلام لابن عباس غير صحيحة، وإنما هو من كلام أبى الجوزاء.

وسبب آخر لضعف الحديث: فأبو الجوزاء لم يسمع من ابن عباس ولا من أحد من الصحابة، والراوى عن أبى الجوزاء هو: عمرو بن مالك النكرى، وهو منكر الحديث عن الثقات.

وهكذا فالحديث ليس ثابتًا وليس صحيحًا، فاحتجاجكم به لا يقدح فى السنة، وإنما يبين ضغينة القلوب.

وأجيب تفصيلاً:

أولاً: نص الحديث بإسناده ومتنه نظرًا لأهمية الإسناد هنا.

قال الترمذى: حدثنا قتيبة، أخبرنا نوح بن قيس الحُدّانى، عن عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس قال: كانت امرأة تصلى خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس، وكان بعض القوم يتقدم حتى يكون فى الصف الأول لأنه لا يراها، ويستأخر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت إبطيه فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ .

وروى جعفر بن سليمان هذا الحديث عن عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء نحوه، ولم يذكر فيه عن ابن عباس، وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح. انتهى كلام الترمذى.

إن الترمذى والذى كتابه أحد الكتب الستة الجامعة لأصول السنة النبوية، يبين أن إخراج هذا الحديث عن ابن عباس لا يصح، وإنما هو من كلام أبى الجوزاء، أخطأ عمرو بن مالك فرواه عن أبى الجوزاء، وزاد فيه عن ابن عباس، فجعله من كلام ابن عباس، وليس الأمر كذلك، فالحديث كلام تابعى وليس كلام ابن عباس.

وفرق كبير بين أن يكون الحديث من كلام ابن عباس وأن يكون من كلام أبى الجوزاء.

إن الترمذى لم يكن غافلاً عن حال الحديث، فبيّن أن الرواية إنما هى رواية

جعفر بن سليمان، عن عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء يقوله من نفسه، وليس يرويه عن ابن عباس. ورواية جعفر هذه عند عبد الرزاق، والطبرى. أراد الترمذى أن يبين خلل نسبة هذا الكلام لابن عباس.

ثانيًا: لقد كان علماء الإسلام منتبهين لحال هذا الحديث، فبينوا ما فيه من أسباب ضعف فها هو الحافظ ابن كثير المتوفى ٧٧٤هـ يحكم عليه بأنه حديث مردود لا يعمل به، إذ يقول رحمه الله: هذا حديث غريب جدًا. ويقول: فيه نكارة شديدة. وبيّن رحمه الله تعالى أن الصواب أنه من كلام أبى الجوزاء، لا من كلام عبد الله بن عباس. ونقل رحمه الله كلام الترمذى، وحكم على الأثر بأنه مردود.

بقى أن أوضح أن قول ابن كثير: فيه نكارة شديدة. معناه أن الحديث ضعيف وعارض ما هو أقوى منه، فيرد ولا يعمل به.

وعليه فحملة منكرى السنة بهذا الحديث على السنة، وتشنيعهم به حملة مرفوضة لأكثر من سبب:

١ ـ إن هذا ليس من كلام رسول الله ﷺ، وهو وحده الذى قد عصمه الله تبارك وتعالى فلا يقول إلا حقًا، أما أنه من كلام صحابى أو تابعى، فلسنا ندعى العصمة لهؤلاء، فضلاً عن كون الأثر ليس بثابت!!

٢ ـ إن هذا الحديث هو فى سبب نزول آية، ولقد أخرجه العلماء وبينوا ضعفه، كما سبق من كلام الترمذى وكلام ابن كثير، فإذا كان المحدثون قد ذكروه وبينوا حاله، وأنه لا يعمل به فلم يحتج أعداء السنة به علينا؟!!

٣ ـ إنه من خلال هذا الحديث يظهر تمكن المحدثين من علمهم، فالترمذى يخرج الرواية الأقل ويشير إلى الرواية الأعلى، وذلك أنه إمام جهبذ يعرف الروايات وأحوالها، ويقارن بينها وبين حالها، وهو قد وضع كتابه لا لأعلى الأحاديث والآثار، وإلا كان مكررًا مع البخارى ومسلم، وإنما وضعه ليأخذ من أسفل المقبول إلى أعلى ليأتى بما لم يأت منه أصحاب الصحيح، ولذلك كثيرًا ما يورد الحديث ضعيفًا، ويشير إلى الطريق الذى جاء به صحيحًا.

وهذا هو الذى حدث هنا إن الترمذى يخرج الأثر من كلام ابن عباس ثم يشير إلى أنه قد ورد من كلام أبى الجوزاء، وأن الأصح أنه من كلام أبى الجوزاء.

ولكن هل يفهم هذا الكلام منكرو السنة؟

هل يفهمون مناهج المحدثين؟

أعتقد أن تعصبهم أعماهم، وعدم تخصصهم لم يعط عقولهم فرصة لتفهم.

٤ ـ إن الحافظ ابن كثير وهو يتكلم عن الآية الكريمة لم يذكر هذا الأثر ويعتمد عليه، وإنما ذكر ما صح، ثم ذكر هذا ليُفَنِّده، وبيّن أنه منكر، أى أنه لا يعمل به.

وهذا الكلام من ابن كثير وسام على صدور علماء الأمة، فابن كثير يكتب فى التفسير لكنه المعتنى بالسنة، الحافظ، المتمكن، على دراية بما قاله الترمذى، فذكره وعلى دراية بأحوال الرواة فحكم بالنكارة، وسيظهر أساس هذا الحكم فيما يلى إن شاء الله تعالى.

إن ابن كثير المفسر الذى توافرت فيه شروط المفسر ومنها الإحاطة بالسنة النبوية، مما يدل على أنهم اشترطوا فى المفسر شروطًا، كانت واقعًا لا خيالاً.

٥ ـ ولم يكن شأن أئمة الجرح والتعديل بأقل من شأن المحدثين، فلقد بيّنوا حال الرواة، وذكروا:

أ ـ أن هذا الأثر يرويه عمرو بن مالك النُّكْرِى وهو: منكر الحديث عن الثقات ويسرق الحديث.

هكذا قال ابن عدى (المتوفى ٣٦٥) فى كتابه «الكامل فى ضعفاء الرجال»[١].

ومنه يتضح أن ابن كثير كان على دراية بأحوال هذا الراوى، وعليه حكم على هذا الأثر بأنه منكر.

ب ـ تكلموا عن أبى الجوزاء أوس بن عبد الله الرَّبَعى:

ـ وقالوا: إنه لم يصح له سماع عن أحد من الصحابة، إنما فقط رآهم.

ـ وقالوا: حدث عنه عمرو بن مالك قدر عشرة أحاديث غير محفوظة.

---

(١) جـ٥ ص١٧٩٩.

٦ ـ وعلماء الإسلام لم يغفلوا تفسير الآية، وإنما فسروها بأوجه جمعها الطبرى المحدث فى تفسيره[١]، وابن كثير[٢] والشوكانى[٣] ويُعنينى هنا ما نقلوه عن ابن عباس وأنه فسر الآية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ كل من هلك من لدن آدم عليه السلام ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ من هو حى، ومن سيأتى إلى يوم القيامة.

وهكذا يتضح أن علماء الإسلام قد حكموا على القصة بأن امرأة حسناء كانت تصلى وكان الصحابة يبصبصون لها ـ هذا لفظ أعداء السنة ـ هذه القصة قد حكم علماء الإسلام بردها:

* فردها الترمذى المحدث.
* وردها ابن كثير المفسر.
* وردها علماء الجرح والتعديل.
* وفسروا الآية على غيرها تمامًا.

وهذا الكلام مكتوب من أكثر من ألف عام، فلِمَ يفترى أصحاب الأقلام على الإسلام بهذه القصة، وينطقون بكلمات سوقية «بصبص» أما علموا أن «بصبص الكلب» أىَ هز ذيله؟

إن هذا الحديث بكل هذا الكلام عنه، وتوافق علماء الإسلام فى دراساتهم، ومعرفتهم بكل حديث أو أثر، وبحال كل راو، إنه لو درسه منصف بهذا المستوى لما وسعه إلا إعظام مدرسة الإسلام كل الإعظام.

* * *

(١) ١٤/ ٢٣ ـ ٢٧.
(٢) ٢/ ٥٤٩.
(٣) فتح القدير ٣/ ١٢٨.

• هل قال الرسول ﷺ: «أنكتها»؟

جاء أحد الصحابة إلى رسول الله ﷺ طالبًا منه أن يقيم عليه حد الزنا، وكان الرجل متزوجًا، فالحد أن يرجم، بمعنى يرمى بالحجارة حتى يموت.

لقد أقر هذا الصحابى بأنه زنا، وطلب أن يقام عليه الحد كى يتطهر من هذا الذنب، ولكى يَطْمئن رسول الله ﷺ إلى أنه قد زنا فعلاً، استعمل معه اللفظ الصريح وقال له: «أنكتها»؟ فقال الصحابى: نعم. وأمر به فرجم.

ولقد اتخذ أعداء السنة من هذا الحديث بابًا للطعن فى السنة، مُدّعين أن هذه الكلمة لا يمكن أن تصدر من رسول الله ﷺ، فإنها تتنافى مع الأدب النبوى.

وأجيب بإيجاز، ثم أفصل:

لقد اعترف الصحابى بأنه فعل فعلاً يوجب الحد، وقال: إنه زنى. وقبل أن يأمر رسول الله ﷺ بإقامة الحد عليه، أراد أن يتأكد من أنه يستحق إقامة الحد عليه، أراد ﷺ أن يتأكد من أن الرجل قد زنى فعلاً.

ذلك أنه يمكن أن يكون نظر إلى امرأة، والنظر زنا العين، فظن أنه يجب عليه الحد بذلك.

ويمكن أن يكون قبّل امرأة، والتقبيل زنا الفم، فظن أنه يجب عليه الحد بذلك.

إن الاحتمالات كثيرة، وبكلمة من رسول الله ﷺ سيقتل الرجل، ومن هنا فإن رسول الله ﷺ لن يقولها إلا بعد أن يثبت، إلا بعد أن يتأكد، ومن هنا استعمل اللفظ الصريح، اللفظ الدال على حقيقة الزنا، قائلاً له: «أنكتها» إن الذين يتعللون بأن هذا اللفظ لا يتفق مع الأخلاق أقول لهم: فماذا لو أقام ﷺ الحد، فقتل الرجل ثم تبين أنه ما زنى؟ إن المسألة حياة رجل، فلا يستهان بها، وإنما لابد من التأكد.

إن الكلمة ليس فيها إساءة، ليس فيها استهجان، فإنها الكلمة الصريحة استخدمت منعًا للظلم، وحفاظًا على روح.

ومن هنا فلا يصح استغلالها للتشويه على السنة، فإنها ميزة وحذر يُعلى من

قدر السنة النبوية.

أما الجواب تفصيلاً:

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «لما أتى ماعز بن مالك النبى ﷺ قال له: لعلك قَبَّلْت، أو غمزت، أو نظرت؟ قال: لا، يا رسول الله. قال: أنكتها؟ لا يَكْنى قال: فعند ذلك أمر برجمه»[١].

من مجموع روايات هذا الحديث يتضح أن ماعز بن مالك الأسلمى كان يتيمًا يعيش فى رعاية نعيم بن هزال، وحدث أن ماعزًا هذا زنى بجارية مملوكة لأحد أفراد قبيلته، وندم الرجل فأخبر نعيمًا الذى يعيش فى رعايته، فنصحه نعيم أن يذهب فيخبر رسول الله ﷺ، فإما أن يستغفر له، وإما أن يقيم عليه الحد، وذهب ماعز إلى رسول الله ﷺ وأخبره، فأعرض عنه ﷺ، فعاد ماعز مكررًا الاعتراف بالزنا، طالبًا إقامة الحد عليه، فعل ذلك أربع مرات، ورسول الله ﷺ يعرض عنه.

ثم إن رسول الله ﷺ ركَّز فى قضية الرجل على أمرين:

الأول: هل هو عاقل، أم به سُكر أو جنون. وبأسلوب آخر: هل هو مكلف أو لا.

الثانى: ماذا فعل، هل زنى بمعنى أدخل عضو الذكورة فى عضو الأنوثة، أم أنه فعل دون ذلك، كأن يكون نظر إليها، أو لمسها فقط؟

أما الأمر الأول والذى هو أهلية الرجل، وأنه عاقل، وتجرى عليه أحكام الإسلام، فهذا أمر أساسى لمؤاخذة الآدمى، ومن هنا سأل ﷺ ماعزًا قائلاً له: أبك جنون؟ فقال ماعز: لا[٢]. ولم يكتف ﷺ بسؤال الرجل عن نفسه فسأل قومه: أمجنون هو؟ فقالوا: ليس به بأس[٣]. وقالوا أيضًا: ما نعلمه إلا وفىّ العقل، من صالحينا. كل ذلك يتثبت ﷺ من أهلية الرجل، وأنه عاقل وأنه أهل لأن يقام عليه الحد.

---

(١) أخرجه البخارى فى الحدود باب هل يقول الإمام للمقرّ: لعلك لمست أو غمزت؟ ١٢/ ١٣٥. رقم ٦٨٢٤ وأخرجه أبو داود فى الحدود باب رجم ماعز بن مالك ١٢/ ١٠٩، ١١٠ عون.

(٢) البخارى رقم ٦٨١٥، ٦٨٢٠، ٦٨٢٥.

(٣) أبو داود ١٢/ ١٠٤ رقم ٤٣٩٨.

وبقى احتمال أن يكون ماعز سكران وصرح ﷺ بهذا الاحتمال، فقام رجل فشم ريح فمه، فلم يجد منه ريح الخمر.

جاء فى حديث بريدة عند مسلم: فسأل رسولُ الله ﷺ أبه جنون؟ فأُخبر أنه ليس بمجنون. فقال: أشرب خمرًا؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر[١].

وهكذا ثبت أن ماعزًا أهل لأن يقام عليه الحد. لكن بقى الأمر الثانى وهو الفعل:

الأمر الثانى: وهو ما فعله ماعز:

لقد طلب ماعز من رسول الله ﷺ أن يُطَهِّره، وأن يقيم عليه الحد، لكن فيم الحد؟

لقد قال: إنه زنى. لكن لابد من التحقيق:

إن الإسلام فى هذه المواقف لا يكتفى بالكلمة، وإنما لابد من التحقق:

وهذه ميزة تحسب للإسلام، فكم جرّ الاختلاف فى فهم كلمة إلى أخطاء.

● خطأ سببه كلمة:

بعد أن فتح الله على رسوله ﷺ مكة، أرسل ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جَذِيمة من كنانة، وكانت ديارهم أسفل مكة من ناحية يلملم، أرسل ﷺ خالد ابن الوليد إليهم داعيًا إلى الإسلام لا مقاتلاً فدعاهم خالد إلى الإسلام فأجابوه قائلين: صبأنا. يريدون بها أسلمنا، ذلك أن عندهم أن من يترك دين آبائه فقد صبأ. فهم يريدون بهذه الكلمة أنهم تركوا دين آبائهم إلى الإسلام. وفهم خالد أنهم يأنفون أن يقولوا أسلمنا، فهم أنهم لا يزالون على كفرهم، فقتل منهم وأسر، ودارت أحاديث بين بنى جذيمة هؤلاء وبين الصحابة اتضح منها أنهم يقولون «صبأنا» بمعنى «أسلمنا» ونبه الصحابة خالدًا، ورفع الخبر إلى رسول الله ﷺ، فأرسل عليًا إلى بنى جذيمة ليمنع القتل، وليدفع دية من قُتل. وهو ﷺ

---

(١) مسلم رقم ١٦٩٥.

يرفع أكف الضراعة إلى الله تعالى قائلاً: اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد. يكرر ذلك رسول الله ﷺ مرات.

هذا ما تفيده الروايات مجتمعة، وأنا أسوق رواية منها:

فعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: «بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون صبأنا. فجعل خالد يقتل منهم ويأسر. ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يومٌ [١] أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيرى، ولا يقتل رجل من أصحابى أسيره. حتى قدمنا على النبى ﷺ فذكرناه، فرفع النبى ﷺ يديه فقال: اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد، مرتين»[٢].

إن كلمة قالها أناس بمعنى، وفهمها القائد بمعنى آخر كانت سببًا فى قتل كثيرين، وكانت سببًا فى فعل تبرّأ منه رسول الله ﷺ. ومن هنا فإن رسول الله لن يقيم الحد على ماعز إلا بعد أن يتثبت، إنه لم يكتفى بما قاله ماعز، وإنما يريد أن يعلم ماذا فعل. فإن كان موجبًا للحد أقامه، وإلا فلا. ومن هنا سأله عدة أسئلة، وردده عدة ترددات:

فقال له: لعلك قبّلْت، أو غمزت، أو نظرت؟ قال: لا يا رسول الله[٣].

وقال له: حتى غاب ذلك منك فى ذلك منها؟ قال: نعم يا رسول الله[٤].

وقال له: كما يغيب المرود فى المكحلة والرشاء فى البئر؟ قال: نعم[٥].

وقال له: هل تدرى ما الزنا؟ قال: نعم، أتيت منها حرامًا ما يأتى الرجل من امرأته حلالاً[٦].

إنه ﷺ يقرر ويستوثق لأن الرجل سيقتل، فيريد ﷺ أن يتأكد من أنه سيقتل

(١) أى من الأيام، وفى رواية أخرى «فلما كان السحر نادى خالد من كان معه أسير فليضرب عنقه».

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة ٨/ ٥٦، ٥٧ رقم ٤٣٣٩ وأيضًا رقم ٧١٨٩.

(٣) البخارى رقم ٦٨٢٤.

(٤ ـ ٦) أبو داود فى الحدود رجم ماعز بن مالك ١٢/ ١١٠ رقم ٤٤٠٥ عون.

بحق، فوصل به التقرير ﷺ أنه استعمل الكلمة الصريحة فقال له: أنكتها، كل ذلك يريد أن يتثبت من أنه يستحق أن يرجم.

وأيضًا يريد أن يعلم الحكام والقضاة أن لا عجلة فى الأحكام، وإنما لا بد من التثبت ولابد من التأكد، ألم يقل الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (١) وفى قراءة ﴿فتثبتوا﴾.

لقد تثبت ﷺ وشاع ذلك فى الصحابة، حتى إنه أراد مرة أخرى أن يتثبت من المرأة فقالت له: أراك تريد أن ترددنى كما رَدَّدْتَ ماعز بن مالك. قال: وما ذاك؟ قالت: إنها حبلى من الزنا... (٢)

إنها أرادت أن تقول له إنها لا تحتاج إلى أن تتأكد، فقد ظهر أثر الزنا، وأصبحت حبلى، وبالتالى أقام عليها الحد.

إن الذين يتضررون من ورود كلمة «أنكتها» فى الحديث أناس يحبون التشهير والعيب، ولو أنهم فكروا بإنصاف لأعظموا هذا الحديث الذى يبين أنه ﷺ لم يعجل، وإنما تروى، وعلى حكام الأمة أن يتعلموا، وأن يترووا فى الأحكام حرصًا على العدل، وأن لا تقتل نفس ظلمًا.

* * *

● وشبهة أخرى على حديث ماعز:

ولم يقف منكرو السنة عند التشويش على حديث ماعز بكلمة منه وإنما راحوا يشوشون بأن ألفاظ الأحاديث متضاربة:

فمرة أن رسول الله ﷺ قال لماعز: أحق ما بلغنى عنك؟ قال: وما بلغك عنى؟ قال: بلغنى عنك أنك وقعت بجارية آل فلان. قال: نعم. قال: فشهد أربع شهادات ثم أمر به فرجم(٣).

(١) سورة الحجرات الآية ٦.
(٢) فى رواية مسلم فى الحدود رقم ٢٢ ص١٣٢١.
(٣) صحيح مسلم ٣/ ١٣٢٠ رقم ١٩/ ١٦٩٣ من حديث ابن عباس.

ومرة أن رجلاً من أسلم يقال له ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ، فقال: إنى أصبت فاحشة فأقمه علىّ. فرده النبى ﷺ مرارًا...»[1].

إن منكرى السنة يقيمون تعارضًا بين روايات الحديث، فحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ هو الذى سأل ماعزًا. وحديث أبى سعيد أن ماعزًا هو الذى جاء إلى رسول الله ﷺ واعترف.

وحقيقة الأمر أن لا تعارض فهى مسألة حدثت فيها العديد من المواقف، وكل صحابى يصف حسبما تقتضيه ظروف التحديث، فمنهم من يركز على أن الرجل أقر على نفسه أربع مرات، ومنهم من يركز على ترديد الرسول ﷺ له، ومنهم من يركز على طريقة إقامة الحد، ولا تعارض فى شىء من ذلك، وإنما التعارض يكون إذا جاءت رواية تثبت أمرًا وأخرى تنفيه، فلو جاءت رواية أن رسول الله ﷺ أقام الحد على ماعز، وأخرى أن رسول الله ﷺ لم يقم الحد على ماعز لكان هذا هو التناقض.

إن حكاية المواقف لا يمثل تعارضًا، ذلك أنه بجمع الروايات تكتمل الصورة، وهذا عمل علماء شروح الحديث، فإنهم يجمعون الحديث الواحد من كل طرقه، بل والأحاديث التى فى موضوعه، وفوق ذلك الآيات القرآنية التى فى الموضوع، ثم يستنبطون الأحكام والفوائد من كل ذلك معًا، إذ تكتمل الصورة، ويتضح الأمر أكثر.

إنه لا تعارض بين حديث سؤال رسول الله ﷺ لماعز، واعتراف ماعز، فإن رسول الله ﷺ بلغه أن ماعزًا فعل شيئًا مع جارية ما، فسأله ﷺ، فكانت المفاجأة أن ماعزًا أخبر أنه فعل معها ما يوجب إقامة الحد عليه، فراح رسول الله ﷺ يراجعه، والرجل يعترف بأنه فعل معها الشىء الذى يوجب الحد، فأقام عليه الحد.

إن حديث ابن عباس زاد شيئًا فى مقدمته، وهو أن رسول الله ﷺ بلغه أن ماعزًا فعل بجارية شيئًا لا يتفق والأخلاق الفاضلة، فسأل ﷺ ماعزًا عن حقيقة

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٣٢٠ رقم ٢٠/ ١٦٩٤ من حديث أبى سعيد.

الأمر، ثم اتفق هذا الحديث مع بقية الأحاديث، وأن ماعزًا اعترف على نفسه، فلا تعارض ولا تناقض، وإنما زيادة موقف من مواقف القصة، لم يركز عليه بعض الرواة، وركز عليه آخرون.

ولقد ذكر ذلك شراح الحديث، ونقل صاحب عون المعبود شرح سنن أبى داود عن الطيبى[١] هذا الجواب.

ولست أدرى: هل قرأ منكرو السنة تصوير الاعتراض ثم الجواب عليه، فأخذوا الاعتراض يعترضون علينا وتركوا الجواب. أو أنهم قرءوا روايات الحديث فظنوا الزيادات تصلح شبهة، فراحوا يشيعونها، دون أن يبحثوا عن جوابها فى كتب أئمة الحديث؟ على كُلٍّ كِلا الاحتمالين عيب فى ثقافتهم. فروايات الحديث لا تعارض بينها ولا تناقض.

• واعتراض آخر يثيرونه:

ويقولون: جاء فى رواية «أن النبى ﷺ استنكه ماعزًا»[٢].

وفى رواية آخرى أن رسول الله ﷺ سأل عن ماعز، فقال: أشرب خمرًا؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر»[٣].

إن منكرى السنة يجعلون بين الروايتين تعارضًا، ولا تعارض فإن رسول الله ﷺ سأل عن حال ماعز من حيث السكر وعدمه، وذلك بشم رائحة فمه، فقام أحد الصحابة فشمه، فالفعل ـ الاستنكاه ـ يضاف لرسول الله ﷺ لأنه الطالب له، ويضاف إلى الصحابى لأنه الذى فعله، ولا تعارض فى ذلك، كما فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾[٤] إن فرعون ـ وهو لقب يطلق على من يحكم مصر زمن موسى عليه السلام ـ يأمر هامان وزيره

---

(١) الطيبى: أحد علماء الإسلام، وأحد شراح حديث رسول الله ﷺ، شرح مشكاة المصابيح، وتوفى ٧٤٣، وترجمته فى الأعلام ٢/ ٢٥٦.

(٢) عند أبى داود عن بريدة فى الحدود باب رجم ماعز ١٢/ ١١٧ رقم ٤٤١٠ ومعنى «استنكه» طلب نكهته، أى رائحة فمه، ليُعلم أشرب خمرًا أو لا.

(٣) مسلم رقم ٢٢/ ١٦٩٥.

(٤) سورة غافر الآية ٣٦.

أن يبنى له صرحًا، والوزير لا يبنى، وإنما سيأمر من يبنى، بل فى آية أخرى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ [١] إنه يأمره بإحراق الطوب ليبنى، والوزير لن يصنع الطوب وإنما سيأمر.

وهكذا فلا تعارض بين رواية أنه ﷺ استنكه ماعزًا، ورواية أن صحابيًا استنكهه، فإسناد الفعل إلى رسول الله ﷺ باعتبار أنه الآمر، وإسناده إلى أحد الصحابة باعتبار أنه الفاعل، ولا تعارض ولا تناقض.

وهكذا يتضح أن حديث ماعز لا اعتراض عليه مطلقًا، وأنه صحيح بل فى أعلى درجات الصحة، وأنه يُثْبت رجم الزانى والزانية ما داما قد أحصنا أى تزوجا، ما دام قد ثبت الزنا بالإقرار، أو البينة، أو الحمل.

ورضى الله عن عمر بن الخطاب هذا الصحابى الذى وافق الوحى فى مواطن عدة، وها هو أيضًا يتحدث عن قضية الرجم الذى يريد منكرو السنة التملص منه فيقول رضى الله عنه: لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم فى كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن إذا قامت البينة، أو كان الحمل، أو الاعتراف، ألا وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده»[٢].

إنهم يلقون بافتراءاتهم حول الأحاديث لإبطالها بينما الزمان ينادى الأمة عودوا إلى هذه الأحاديث قمعًا للرذيلة، وتقوية للفضيلة، لقد كثرت الفاحشة، وما ذلك إلا للاستهانة بها، وعدم العقوبة الرادعة عليها. ومنكرو السنة يريدون تقوية الباطل بالتشويش على الأحاديث التى تزهقه. وقلوب الصالحين مع القرآن والسنة علمًا وعملاً.



(١) سورة القصص الآية ٣٨.

(٢) أخرجه البخارى في الحدود باب الاعتراف بالزنا ١٢/١٣٦ رقم ٦٨٢٩.

● **حديث: الرجل الذى لا ترد زوجتُه يد لامس:**

جاء فى السنة النبوية أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن عندى امرأة هى من أحب الناس إلىّ، وهى لا تمنع يد لامس. قال: طلقها. قال: لا أصبر عنها. قال: استمتع بها.

ومنكرو السنة يثيرون ضجة حول السنة بهذا الحديث، فكيف نصف النساء بهذا ومن الذين كانوا سيلمسون، وكيف يشير الرسول ﷺ بهذه المشورة.

لقد اتخذوا من هذا الحديث وسيلة للتشنيع على السنة النبوية، بينما الشناعة عليهم، وهم مبطلون من وجوه:

باطلهم الأول:

لقد أخرجوا الحديث من كتب السنة، وذكروا أنه فى سنن النسائى رقم ٣٢٢٩ و٣٤٦٤ و٣٤٦٥ وأقول لهم:

ماذا قال النسائى بعد أن أورد الحديث؟

قال النسائى رحمه الله تعالى: هذا الحديث ليس بثابت.

إذا كان منكرو السنة طلاب حق، فلِمَ لمْ يذكروا قول النسائى هذا، حتى يعرف الناس حال الحديث؟!

لم يُشنِّعون على السنة بحديث قال الإمام الذى أخرجه: إنه ليس بثابت؟

لقد قال النسائى هذا الكلام فى سننه الصغرى «**المجتبى**»[١] وقال أيضًا فى سننه الكبرى[٢]، قال فى الكتابين: هذا الحديث **ليس بثابت**، وعبد الكريم ليس بالقوى، وهارون بن رئاب أثبت منه، وقد **أرسل الحديث**[٣]، وهارون ثقة، وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم.

هذا ما قاله النسائى فمن الذى يستحق أن **يُشنَّع عليه**؟

---

(١) ٦/ ٥٥ و ٦/ ١٣٩.

(٢) ٣/ ٢٧٠.

(٣) يعنى أن هارون أحد رجال الإسناد لم ينسب الحديث لرسول الله ﷺ، وإنما نسبه عبد الكريم، وهارون أقوى فى الحفظ فقوله المعتمد، والحديث ليس من كلام رسول الله ﷺ.

هل الشناعة على السنة النبوية أو الشناعة على أعداء السنة النبوية؟

بدهى الشناعة عليهم، فهم كاذبون مغالطون، ومغالطون فى أطهر ساحة، ساحة الوحى الإلهى. إنهم ليسوا طلاب حق. إنما مرِّوجو باطل.

وهذا كاف فى الرد عليهم، وإفحامهم، وإلقامهم الحجر.

بل كاف فى بيان حالهم وأن قولهم قول من حاد عن الحق وفجر.

لكنى لن أكتفى بباطل واحد لهم فى الرد عليهم فى هذا الحديث، وإنما أضيف:

باطلهم الثانى:

لقد فسرتم الحديث تفسيراً يؤدى إلى الباطل الذى تريدونه، وجعلتم المراد بقول السائل إن هذه المرأة لا ترد يد لامس معناه أنها تزنى، وهذا باطل صراح، ذلك أنه لو كان يقصد بكلمة «لا ترد يد لامس» أنها زانية لطالبه الشرع إما بالبينة ويقام عليها الحد، وإما باللعان، وإما أن يقام عليه هو حد القذف، وذلك كما حدث فى موقف آخر، فلقد حدث أن قذف أحد الصحابة زوجته قال له رسول الله ﷺ «البينة أو حَدٌّ فى ظهرك» ثم نزلت بعد ذلك آيات اللعان»[1].

إنه لو كان معنى «لا ترد يد لامس» أنها زانية ما سكت رسول الله[2] ـ أو الصحابى[3] أو التابعى[4] ـ فهنا حكم للإسلام. أما وقد سكت رسول الله ﷺ ـ أو الصحابى أو التابعى ـ ولم يقم حدّا على المرأة لزناها، ولم يُقم حدًا على الرجل لقذفه مسلمة، ولم يحدث بينهما لعان، وإنما قال له «أمسكها» و «استمتع بها» فهذا يدل على بطلان تفسيركم الحديث.

ومن فضل الله أن علماء الأمة فسروا الحديث، ولم يقل أحد منهم إن هذه المرأة كانت زانية، ولم يقل أحد منهم إن زوجها كان يرميها بالزنا، وإنما:

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى التفسير باب ويدرأ عنها العذاب ٨/ ٤٤٩ رقم ٤٧٤٧. وهو عنده أيضًا رقم ٢٦٧١ ورقم ٥٣٠٧.

(٢) على فرض أن الحديث من كلام رسول الله.

(٣) على فرض أن الحديث قول صحابى.

(٤) على فرض أن الحديث كلام تابعى.

قال بعضهم: إن هذه المرأة كانت جريئة، تتحدث مع الرجال دون حشمة، وهذا معروف فى زماننا، فمن الإناث من تحتاط جدًا لدينها، فلا تقبل أن تلمس رجلاً، ولا يلمسها رجل، وهذا الصنف لا يزحم الرجال ولا يقبل الجلسات المختلطة. ومن الإناث من تتساهل فى أمرها فيمكن أن تتحدث مع الرجال، وأن تلمس الرجال، وأن يلمسها زميلها أو قريبها، ومثل هذا لا يريح الرجل، ومن هنا اشتكى إلى رسول الله ﷺ أو إلى الصحابى أو إلى التابعى - فقيل له: طلقها، لتريح نفسك من هذه الجرأة، فلما صرح بأنه يحبها، قيل له: أمسكها.

وقال بعضهم: إن الرجل فهم من حال هذه المرأة أنها يمكن أن تقع منها الفاحشة، فقيل له طلقها لتريح نفسك من هذه الريبة وهذا التوجس والشك. فلما قال إنه يحبها، ما كان ليبنى على هذا الشك، فالشك لا يقوى على دفع الحب المحقق فقيل له: استمتع بها.

هذا هو الذى يمكن تفسير الحديث به، وواضح أنه لا إشكال مطلقًا على هذين التفسيرين. وواضح أن تفسير أعداء السنة لا يمكن قبوله، وما أرادوا الحديث إلا على التفسير الذى يؤيد باطلهم وعداءهم للسنة النبوية.



ب- شبهات حول بعض الرواة المشاهير

وأعداء السنة تطاولت ألسنتهم كثيرًا على رواة السنة النبوية، تطاولت على الصحابة الأجلاء، وعلى مَنْ بعدهم.

وكلما كان الراوى كثير الرواية، عالى القدر، كلما كانت الحملة عليه أقوى وأشد. وللكثير منهم كلمات فى حق الصحابة لا يتفوه بها من فيه شىء من أدب، لقد أساءوا إلى الصحابة جدًا، وإلى الرواة الأئمة المعتبرين.

يتطاولون على أبى بكر وعمر وعثمان، وعلى أبى هريرة وأنس، وأم المؤمنين عائشة. وأمثالهم من الصحابة الأجلاء، الذين أجمعت الأمة قديمًا وحديثًا على فضلهم وعظيم قدرهم.

يستهينون بكل شىء فى سبيل ذلك:

* فيخالفون القرآن الكريم الذى أثنى على الصحابة.

* ويخالفون حديث رسول الله ﷺ فى مناقب الصحابة.

* ويخالفون إجماع الأمة على فضل الصحابة وعظيم منزلتهم.

* ويستبيحون وضع الأحاديث فى إهانة الصحابة.

* ويضربون بأصول البحث العلمى عرض الحائط.

* ولا تعنيهم الأمانة وخلق العالم.

* يوهمون القارئ أنهم أهل التحقيق العلمى، والبحث المتجرد، وهم يعلمون أنهم أبعد الناس من ذلك.

وبادئ ذى بدء فهل يصح أن يسىء عاقل إلى الصحابة الذين مدحهم الله فى قرآنه؟

أثنى عليهم ربنا فى كتابه، فى مواضع كثيرة، كما فى قوله تعالى:

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ﴾ (١).

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٢).

وقوله سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٣).

أصحاب رسول الله ﷺ هكذا مدحهم ربنا فى القرآن الكريم، فهل يقبل عقل أى جرح فيهم، وهل يصح أن يُساء إليهم؟

إن الذى تعترف له هيئة من الهيئات بالتقدم فى أمر من أمور الحياة يرتفع قدره كثيرًا، فما بالنا بالصحابة وقد أثنى عليهم ربنا ومدحهم سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز؟! بدهى. قدرهم أعلى من كل أصحاب الشهادات، والمناصب، وكل مؤهلات الجاه.

وكما جاءت الآيات بالثناء على الصحابة الأجلاء، جاءت الأحاديث النبوية بالثناء عليهم أيضًا:

فيقول ﷺ: «خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(٤).

ويقول ﷺ: «الله الله فى أصحابى، لا تتخذوهم غرضًا، فمن أحبهم فبحبى أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»(٥).

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٠.
(٢) سورة الأنفال آية ٧٤.
(٣) سورة الفتح الآية الأخيرة.
(٤) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن عمران بن حصين، وعن عبد الله بن مسعود.
(٥) أخرجه الترمذى وابن حبان.

ويقول ﷺ: «لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهبًا ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه»[(١)].

سبحان الله! لو أنفق أحدنا مثل جبل أحد ذهبًا ما أدرك ثواب تصدق صحابى بقدر قليل من القمح أو الشعير، لأنه تصدق وهو فقير، وتصدق فى وقت كانت الدعوة الإسلامية فى أمس الحاجة إلى ذلك.

وإن من أدلة نبوته ﷺ أن يقول الحديث الثانى والثالث مما ذكرته هنا يقول: «لا تتخذوهم غرضًا» والغرض الشىء الذى ينصب ليتعلم الإنسان فيه كيف يصيب الهدف. فينهانا ﷺ أن نرميهم بكذا وكذا. من شتم وسب كما فى الحديث الثالث: «لا تسبوا أصحابى» إنه ينهانا عن سبهم وشتمهم، فتظهر طائفة فى الأمة تسبهم وتشتمهم، وهذا من أعلام نبوته ﷺ.

إن ناسًا مدحهم ربنا فى قرآنه.

ومدحهم رسول الله فى سنته، لهم أناس بلغوا فى الكمال البشرى الغاية، فلا يقبل منصف أن يسىء إليهم، ولا يقبل العقل إلا كل ثناء جميل عليهم.

وحالهم يشهد بذلك:

على أنه لو لم تأت الآيات القرآنية بمدحهم، ولم تأت الأحاديث النبوية بالثناء عليهم فإن حالهم تحتم هل نعترف بفضلهم، وعلو درجتهم. لقد ثبتوا على الإيمان وتحملوا فى سبيل ذلك الكثير من المشقات، وجاهدوا فى سبيل الله من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دين الله، هجروا الأوطان، وفارقوا أهلهم وديارهم، كان ولاؤهم لله ولرسوله وللمؤمنين، بذلوا أموالهم بل وأرواحهم فى سبيل الله، ضحوا بكل شىء فى سبيل نصرة الإسلام، ووقفوا أمام الدنيا كلها من أجل نشر دين الله[(٢)].

وأيضًا حالهم من نصر الله لهم، وتأييده لهم حتى اعترف مؤرخو العالم بأن مواقف الجيوش الإسلامية لم تكن عادية، وإنما كان التأييد الإلهى ظاهرًا.

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وأحمد عن أبى سعيد.

(٢) راجع الكفاية للخطيب البغدادى ص٩٦.

وأيضًا حالهم من اعتراف أعدائهم بحسن حالهم، وأنهم ملتزمون بأحكام دينهم كل الالتزام كل ذلك يجعل العاقل يحترم هؤلاء، ويعرف لهم قدرهم.

والإجماع منعقد على ذلك:

والأمة مجمعة على أن الصحابة كلهم عدول، أثنى عليهم ربنا فى كتابه، ومدحهم رسول الله ﷺ فى كثير من الأحاديث، وحالهم يثبت ذلك.

يقول أبو زرعة الرازى: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق[١]، وذلك أن الرسول ﷺ حق، والقرآن حق، وإنما أدّى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا، ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة[٢].

إن جماعة الصحابة يزكيهم ربنا فى القرآن الكريم.

* ويزكيهم رسول الله فى حديثه، ويُحذِّر من انتقاصهم.

* وسلف الأمة مجمعون على عدالتهم، وعلمهم، وفضلهم.

عاشت الأمة على ذلك لا تبالى بمن ضل عن هذا الطريق، ولا تقيم لرأيه وزنًا، ولا لكلامه قيمة. فليس بعد كلام الله كلام.

وفى زماننا ظهرت هذه الطائفة التى تعادى السنة، وتقلل من قدر الصحابة، وتقلل من قدر أئمة السنة.

واختاروا من الصحابة أكثرهم رواية، ألا وهو الصحابى الجليل «أبو هريرة».

• فمَن أبو هريرة؟

هو عبد الرحمن بن صخر بن عبد ذى الشرى؛ كان اسمه فى الجاهلية عبد شمس، فلما أسلم غيرّ اسمه إلى «عبد الرحمن» وهو من قبيلة «دوس» باليمن أما كنيته «أبو هريرة» فسببها أنه كان يرعى غنم أهله فى صغره، فوجد أولاد هرة - أى قطة - وحشية فأخذها، فكان يلعب بها، فأطلقت عليه هذه الكنية من صغره، و«هريرة» تصغير «هرة» وغلبت هذه الكنية عليه، حتى عرف بها أكثر من اسمه.

---

(١) الزنديق، كافر حريص على إيذاء المسلمين فى دينهم ودنياهم.

(٢) الكفاية ص٩٧ والإصابة ١/ ١١.

كان أبو هريرة يعيش فى بلاد اليمن، وسط قبيلته «دوس» وبلغته دعوة الإسلام فأسلم، وأصر على الهجرة إلى رسول الله ﷺ، ليحظى بصحبته ﷺ، ويتعلم من رسول الله ﷺ، لقد كان يعرف قدر صحبة رسول الله ﷺ فحرص عليها. ومن أجلها هجر الوطن، وفارق الأهل، وكان يعرف قيمة العلم وتمثل هذا فى عدة أمور هى:

• أسباب كثرة علمه:

١ ـ الحرص على العلم:

ومما يصور حرص هذا الصحابى على العلم ما أخرجه الحاكم عن محمد بن قيس بن مخرمة أن رجلاً جاء زيد بن ثابت فسأله عن شىء فقال له زيد: عليك بأبى هريرة؛ فإنه بينا أنا وأبو هريرة وفلان فى المسجد ذات يوم ندعو الله تعالى، ونذكر ربنا، خرج علينا رسول الله ﷺ حتى جلس إلينا، قال: فجلس وسكتنا، فقال: عودوا للذى كنتم فيه. قال زيد: فدعوت أنا وصاحبى قبل أبى هريرة، وجعل رسول الله ﷺ يؤمِّن على دعائنا، قال: ثم دعا أبو هريرة فقال: اللهم إنى أسألك مثل الذى سألك صاحباى هذان، وأسألك علمًا لا يُنسى. فقال رسول الله ﷺ «آمينْ»، فقلنا يا رسول الله، ونحن نسأل الله علمًا لا يُنْسى. فقال رسول الله ﷺ: «سبقكما بها الغلام الدَّوْسِىُّ»(١).

و «الغلام الدوسى» هو أبو هريرة، فهو الذى سأل الله علمًا لا ينسى، يحرص على هذا كثيرًا. وأمّن رسول الله ﷺ على دعائه، وهو ﷺ مستجاب الدعوة.

لقد دعا رفاقه بأشياء لم يشاركهم فيها، ولما يحرص عليها، وانتهز الفرصة ليدعو بالعلم، والعلم الذى لا ينسى.

---

(١) أخرجه النسائى فى السنن الكبرى كتاب العلم باب مسألة علم لا ينسى ٣/ ٤٤٠ حديث ٥٨٧٠ وذكره الحافظ ابن حجر فى الإصابة ٧/ ٤٣٨ وعزاه إلى النسائى بسند جيد وأخرجه الطبرانى فى الأوسط ٢/ ٥٤ رقم ١٢٢٨ وأخرجه أيضًا ابن عساكر فى تاريخ دمشق كذا قال الذهبى فى السير ٢/ ٦١٦ وأخرجه الحاكم فى المستدرك كتاب معرفة الصحابة باب دعاء أبى هريرة بعلم لا ينسى ٣/ ٥٠٨ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبى فقال حماد ضعيف. قلت: قد تابعه العلاء بن الفضل عند النسائى والطبرانى وابن عساكر. وقد قال عنه الذهبى فى السير: صدوق.

إن موقفًا مثل هذا يدعو فيه الحاضرون، ورسول الله ﷺ يؤمن، وهم يعلمون أنه ﷺ يستجيب الله دعاءه، فى مثل هذا الموقف يدعو كل إنسان بما يحرص عليه، وبما يتمناه ويرجوه، فدعاء أبى هريرة بالعلم الذى لا ينسى دليل قوى على حرصه على العلم حرصًا فاق حرصه على أى شىء آخر.

وشهد له رسول الله ﷺ بشدة الحرص، وأنه أحرص الصحابة على العلم، فلقد سأل أبو هريرة هذا رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فأجابه ﷺ قائلاً: «لقد ظننتُ يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحدٌ أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه، أو نفسه»[(١)].

إن هذا القول من رسول الله ﷺ يبين عظمة حرص أبى هريرة على حديث رسول الله ﷺ. وتكفيه هذه الشهادة من رسول الله ﷺ؛ والتى تدل على حرص أبى هريرة، وتدل على كفاءة أبى هريرة لتحمل العلم وأدائه، وفقهه والعمل به.

ويصور الحرص على العلم عند هذا الصحابى الجليل أبى هريرة أن رسول الله ﷺ يقول له: ألا تسألنى من هذه الغنائم التى يسألنى أصحابك؟ فيجيبه أبو هريرة: أسألك أن تعلمنى مما علمك الله. فنزع نَمِرة[(٢)] كانت على ظهرى، فبسطها بينى وبينه حتى كأنى أنظر الى النمل يدب عليها، فحدثنى، حتى إذا استوعبت حديثه قال: اجمعها فصُرْها إليك، فأصبحت لا أسقط حرفًا مما حدثنى[(٣)].

إن رسول الله ﷺ يعرض عليه المال، فيسأله أن يُعَلِّمَه!!

ومما يصور حرص أبى هريرة على العلم ومعرفته بقدره هذا الموقف.

فقد حدث أن مَرَّ أبو هريرة بسوق المدينة ـ مدينة الرسول ﷺ ـ فوقف عليها، فقال: يا أهل السوق ما أعجزكم[(٤)]! قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة[(٥)].

---

(١) أخرجه البخارى فى العلم باب الحرص على الحديث ١/ ١٩٣ رقم ٩٩.

(٢) النمرة: شملة أو شال فيها خطوط بيض وسود.

(٣) ذكره الذهبى فى سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٩٤ وعزاه مخرجه للحلية ١/ ٣٨١ ولتاريخ ابن عساكر. وقال: رجاله ثقات. وهو فى الحلية كما قال.

(٤) يعنى: أى شىء أعجزكم. أو إن عجزكم واضح.

(٥) أى ما سبب ما تقول؟

قال أبو هريرة: ذاك ميراث رسول الله ﷺ يُقْسَم وأنتم ها هنا، ألا تَذهبون فتأخذون نصيبكم منه.

قالوا: وأين هو؟

قال: فى المسجد.

فخرجوا سراعًا إلى المسجد.

ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟

قالوا: يا أبا هريرة فقد أتينا المسجد فدخلناه فلم نر فيه شيئًا يقسم.

فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم فى المسجد أحدًا؟

قالوا: بلى، رأينا قومًا يصلون، وقومًا يقرأون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام.

فقال لهم أبو هريرة: ويحكم، فذاك ميراث محمد ﷺ[١].

لقد كان أبو هريرة يعرف قيمة العلم، وأنه خير من أى مال، خير من الدنيا كلها. يعرف أنه ميراث الأنبياء، إنه أحد رواة حديث فضل العلم، فقد روى حديث «ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه»[٢].

إن النصوص كثيرة فى القرآن والسنة تعلى شأن العلم والعلماء، وأبو هريرة رجل ذو حس مرهف، فجذبته هذه النصوص، وجعلته يحرص على العلم حرصًا منقطع النظير.

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط ٢/ ١١٤ حديث رقم ١٤٢٩ وذكره فى مجمع الزوائد ١/ ١٢٣، ١٢٤ وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط، وإسناده حسن. وكذا قال المنذرى فى الترغيب ١/ ١٠٩، ١١٠.

(٢) أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ٤/ ٢٠٧٤ حديث رقم ٢٦٩٩.

٢ ـ التفرغ لتعلم العلم:

وهذا الحرص من أبى هريرة على العلم دفعه إلى التفرغ تمامًا لتعلم العلم، إنه لم يشغله شىء عن مجالسة رسول الله ﷺ، فلم تشغله تجارة ولا زراعة، لم يشغله أهل ولا مال، وإنما كان شغله الشاغل تعلم العلم من رسول الله ﷺ، ولقد كان الجميع يعلم ذلك، ولقد تحدث هو بذلك فما راجعه أحد.

* تحدث فقال: إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان فى كتاب الله ما حدثت حديثًا، ثم يتلو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون»[(١)].

* وحَدَثَ أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها دعت هذا الصحابى الجليل أبا هريرة، وقالت: ما هذه الأحاديث التى تبلغنا أنك تحدث بها عن النبى ﷺ، هل سمعت إلا ما سمعنا، وهل رأيت إلا ما رأينا؟

فأجابها أبو هريرة قائلاً: يا أماه، إنه كان يشغلك عن رسول الله ﷺ المرآة والمكحلة والتصنع لرسول الله ﷺ، وإنى والله ما كان يشغلنى عنه شىء»[(٢)]. وفى رواية أنها اعترفت فقالت: لعله.

لقد كان أبو هريرة يعرف أنه الذى تفرغ لطلب العلم، مما جعله يسمع ما لم يسمع غيره، ويشاهد ما لم يشاهده كثيرون.

ولقد شهد له كبار الصحابة بهذا الفضل، وأنه فاقهم فى السماع من رسول الله ﷺ، وأنه تفرغ لذلك كثيرًا.

---

(١) الآيتان من سورة البقرة رقم ١٥٩، ١٦٠. والحديث أخرجه البخارى فى العلم باب حفظ العلم ١/ ٢١٣ رقم ١١٨.

(٢) أخرجه الحاكم فى معرفة الصحابة باب كان أبو هريرة وعاء العلم ٣/ ٥٠٩ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبى.

* فعن مالك[١] بن أبى عامر قال: كنت عند طلحة بن عبيد الله[٢] فدخل عليه رجل فقال يا أبا محمد والله ما ندرى هذا اليمانى أعلم برسول الله ﷺ أم أنتم، تقوّل على رسول الله ﷺ ما لم يقل، يعنى أبا هريرة. فقال طلحة: والله ما يشُك أنه سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم، إنا كنا قومًا أغنياء، لنا بيوت وأهلون، كنا نأتى نبى الله ﷺ طرفى النهار ثم نرجع، وكان أبو هريرة رضى الله عنه مسكينًا لا مال له ولا أهل ولا ولد، إنما كانت يده مع يد النبى ﷺ، وكان يدور معه حيثما دار، ولا نشك أنه قد علم ما لم نعلم، وسمع ما لم نسمع، ولم يتهمه أحد منا أنه تَقَوّل على رسول الله ﷺ ما لم يقل[٣].

وفى هذا الخبر يؤكد طلحة بن عبيد الله الصحابى الجليل، الذى تقدم إسلامه، وطالت صحبته يؤكد أن أبا هريرة تفرغ لحديث رسول الله ﷺ أكثر من غيره، فسمع ما لم يسمعوا، وعلم ما لم يعلموا، ويؤكد على أن أبا هريرة قد لازم الرسول ﷺ ملازمة لم يشغله أهل ولا مال. ويؤكد أن أحدًا من الصحابة لم يتهم أبا هريرة فى كثرة حديثه عن رسول الله ﷺ.

وها هو عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ يعترف لأبى هريرة بهذه الميزة، وأنه لزم رسول الله أكثر من غيره، وحفظ من حديث رسول الله ﷺ أكثر من غيره.

فقد أخرج الترمذى عن عبد الله بن عمر أنه قال لأبى هريرة: يا أبا هريرة أنت كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ، وأحفظنا لحديثه»[٤].

---

(١) مالك هذا هو جد الإمام مالك صاحب المذهب الفقهى الذى شاع فى البلاد الإسلامية.

(٢) طلحة هذا هو القرشى التيمى المكى المدنى أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، سماه رسول الله ﷺ طلحة الخير، وطلحة الجود، وطلحة الفياض. ترجمته فى تهذيب ٥/ ٢٠ وسير أعلام النبلاء ١/ ٢٣.

(٣) أخرجه الحاكم فى معرفة الصحابة باب ذكر حفظ أبى هريرة ٣/ ٥١١ وصححه. وأخرجه الترمذى فى المناقب باب مناقب أبى هريرة ١٠/ ٣٣٥ تحفة الأحوذى وحسنه وقال شارحه: قال الحافظ فى الفتح إسناده حسن.

(٤) أخرجه الترمذى فى المناقب باب مناقب أبى هريرة رضى الله عنه ١٠/ ٣٣٥ تحفة الأحوذى، وقال هذا حديث حسن.

لقد شهد له الكثيرون من الصحابة بهذه الميزة، وأنه تفرغ لطلب العلم، وأنه لم يشغله عن رسول الله ﷺ شاغل.

٣ ـ الحظوة ببركة رسول الله ﷺ:

كثيرًا ما حظى صحابى أو أكثر ببركة رسول الله ﷺ؛ فكم من صحابى شفاه الله ببركة رسول الله ﷺ، وكم من صحابى أغناه الله ببركة سيدنا محمد ﷺ، وكم من صحابى بلّغه الله غايته ببركة سيدنا محمد ﷺ.

وكم من مواقف حظى الكثير من الصحابة فيها ببركته ﷺ، فكم أطعم الله الكثير منهم من شيء قليل، وكم سقى الله الكثير منهم من ماء قليل، كل ذلك ببركته ﷺ، وباستجابة دعائه.

لقد شكوا إليه عدم المطر فدعا الله فنزل المطر كثيرًا حتى شكوا ذلك أيضًا، فدعا بالكشف، فأزاح الله السحاب عن المدينة[١]. وغير ذلك كثير وكثير.

ولقد كان لأبى هريرة نصيب عظيم من بركات رسول الله ﷺ، فلقد دعا له رسول الله ﷺ بعدم نسيان العلم[٢]، وحَدَث أن شكا أبو هريرة لرسول الله ﷺ النسيان فقال: يا رسول الله، إنى أسمع منك حديثًا كثيرًا أنساه. فقال ﷺ له: ابسط رداءك. يقول أبو هريرة: فبسطته. فغرف بيديه، ثم قال: ضمه، فضممته، فما نسيت شيئًا بعده[٣].

لقد غرف ﷺ بيديه، وكأنه يضع شيئًا فى رداء أبى هريرة، ولم يكن هناك شيء يغرف منه، وإنما هو إشارة محضة. رزقه الله بسببها الكثير من الخير، وأزال عنه كابوس النسيان، حتى أصبح لا ينسى.

ومرة أخرى يتحدث أبو هريرة بفضل الله عليه، وأنه جلس يومًا مع بعض الصحابة أمام رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «أيُّكم يبسط ثوبه فيأخذ من حديثى هذا ثم يجمعه إلى صدره فإنه لم ينس شيئًا سمعه، فبسطت بردة علىّ حتى فرغ من

---

(١) راجع دلائل النبوة للبيهقى جماع أبواب دعوات نبينا ﷺ المستجابة... وبركاته التى ظهرت... ٦/ ٨٣ ـ ٢٥٧.

(٢) تقدم هنا حديث زيد بن ثابت فى [الحرص على العلم].

(٣) أخرجه البخارى فى العلم باب حفظ العلم ١/ ٢١٥ رقم ١١٩.

حديثه ثم جمعتها إلى صدرى فما نسيت بعد ذلك اليوم شيئًا حدثنى به[١].

فضيلة ظاهرة لأبى هريرة، أن يحظى بهذا الفضل دون أحد من الحاضرين، وفى هذه القصة رسول الله ﷺ هو الذى ابتدأ، يعد من بسط ثوبه حتى ينتهى من حديث ثم يضمه إليه أنه لن ينسى شيئًا، وكان أبو هريرة أسرع الحاضرين، فبسط ثوبه حتى انتهى ﷺ من حديثه فضم ثوبه إليه، فما نسى بعد ذلك شيئًا من حديثه ﷺ.

وفى رواية أخرى: «فوالله ما نسيت شيئًا سمعته منه»[٢].

يؤكد أبو هريرة، ويقسم «والله» ما نسيت شيئًا.

نعم لقد حظى ببركة رسول ﷺ، إذ أمّن على دعائه مرة، وحثا فى ثوبه فضمه بهذه الآثار من كفيه ﷺ، فقوى حفظه، وزال نسيانه، وأصبح ضابطًا حافظًا كل ما سمع.

لقد كان أبو هريرة حريصًا على تحصيل العلم، وكان واهبًا وقته له، لكنه ضم لذلك شيئًا قل أن يحظى به غيره، ألا وهو بركة رسول الله ﷺ.

وهذه الأسباب كلها قد آتت ثمارها فكان أبو هريرة الإمام الحافظ، راوية الإسلام، ومحدث الصحابة، ومما يصور حالة أبى هريرة فى الحفظ هذا الآثر:

فقد أخرج الحاكم عن أبى الزعيزعة كاتب مروان بن الحكم، أن مروان دعا أبا هريرة فأقعدنى خلف السرير، وجعل يسأله، وجعلت أكتب، حتى إذا كان عند رأس الحول[٣] دعا به، فأقعده وراء الحجاب فجعل يسأله عن ذلك، فما زاد ولا نقص، ولا قدّم ولا أخر[٤].

مروان أحد رجالات الحكم أراد أن يختبر حفظ أبى هريرة، فسأله عدة أسئلة

---

(١) أخرجه مسلم فى فضائل الصحابة باب من فضائل أبى هريرة ٣٦١/٥ طبعة الشعب بشرح النووى.

(٢) هذه الرواية فى مسند أحمد. راجع الفتح الربانى ٤٠٩/٢٢، ٤١٠.

(٣) الحول: السنة، والمعنى أنه اختبره بعد سنة.

(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك كتاب معرفة الصحابة باب كان أبو هريرة أحفظ أصحاب رسول الله ٥١٠/٣.

والكاتب مستتر خلف السرير يكتب، وبعد عام أرسل مروان إلى أبى هريرة، وسأله الأسئلة هى هى، والكاتب يراجع، فجاءت إجابات أبى هريرة طبق ما أجاب به منذ عام، أى أن الحفظ مائة فى المائة، وهكذا كان حفظ أبى هريرة رضى الله عنه، وهكذا يكون الحفظ.

٤ ـ جرأته فى طلب العلم:

لقد كان العلم فى حياة أبى هريرة شيئًا عظيمًا، يسمو على كل شىء، ويهون أمامه كل شىء، ومن هنا حرص عليه، وزاد الحرص فدفعه إلى أن يسأل رسول الله ﷺ كثيرًا.

يصور ذلك هذا الحديث:

فلقد سأل أبو هريرة رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟

فأجابه رسول الله على سؤاله، لكنه قدم قبل الجواب كلامًا.

فقال ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث»[١].

وهذا القدر مهم جدًا فى موضوعنا، فإن أبا هريرة يسأل رسول الله، ورسول الله يبين سر هذا الموقف ويبين مدى حرص أبى هريرة، ومدى جرأته على السؤال، كما يبين هذا الموقف أن رسول الله ﷺ كان يعرف هذا من أبى هريرة، وأنه ﷺ كان يحترم ملكات أبى هريرة، فيجيبه على أسئلته، ويعلمه لتقديره ﷺ. أن أبا هريرة يصلح للتبليغ عن رسول الله ﷺ.

ولقد كان الصحابة يعرفون هذه الجرأة لأبى هريرة:

فلقد صرح بها أبى بن كعب إذ يقول: إن أبا هريرة كان جريئًا على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره... الحديث[٢].

---

(١) هذا الحديث تقدم كاملاً مع تخريجه فى «الحرص على العلم».

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ٥/١٣٩، وذكره فى مجمع الزوائد ٩/٣٦١ وعزاه لأحمد وقال: ورجاله ثقات. وأخرجه الحاكم فى معرفة الصحابة من المستدرك باب كان أبو هريرة جريئًا على النبى ﷺ ٣/ ٥١٠.

وصرح بذلك عبد الله بن عمر، فلقد قال له رجل: إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ!! فقال ابن عمر: أعيذك بالله أن تكون فى شك مما يجىء به، ولكنه اجترأ وجَبُنَّا[1].

وفى هذه الشهادة من هذين الصحابيين فوائد منها:

ـ أن أبا هريرة دفعه حرصه الشديد على العلم أن يسأل رسول الله كثيرًا، وهذه ميزة له، تمثل مصدرًا زائدًا لعلمه.

ـ يزكى عبد الله بن عمر أبا هريرة، ويقول لمن سأله عنه: أعيذك بالله أن تكون فى شك مما يجىء به، وفى هذا تزكية عالية لأبى هريرة، وأنه ـ باعتراف عبد الله ابن عمر ـ فوق ذلك كثيرًا وكثيرًا.

إنه لا يشك فى روايته، وإنما روايته موثوق بها كل الثقة، يطمئن لها من صحب رسول الله ﷺ، وهو فى غاية الورع، وفى قمة الاتباع، إنه عبد الله بن عمر.

وإننى أعتبر هذه الكلمة من عبد الله بن عمر فى حق أبى هريرة من حفظ الله للإسلام، إذ يُنطِق الله سبحانه هذا الصحابى الجليل بهذه الكلمات «أعيذك بالله أن تكون فى شك مما يجىء به» إعلامًا للأجيال اللاحقة بمكانة أبى هريرة العلمية، وأنه يسأل الله أن يحفظ سائله من الشك فيما يرويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ، فالأمة مجمعة على إمامته، وورعه فيما يرويه.

٥ ـ الاجتهاد فى العبادة:

معلوم لمن فقه فى دين الله أن اجتهاد الإنسان فى العبادة أوسع أبواب نعم الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[2]. ييسر الله أمره، ويقضى له حاجته، ويبلغه ما يريد.

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[3].

---

(١) أخرجه الحاكم فى الموطن السابق.

(٢) سورة الطلاق آية ٤.

(٣) سورة الأنفال آية ٢٩.

والمعنى: إن المؤمن إذا اتقى الله فابتعد عن المعاصى، واجتهد فى الطاعات فإن الله يجعل له نورًا فى صدره يفرق به بين الحق والباطل، بين الخطأ والصواب، ويتجاوز سبحانه وتعالى عن سيئات هذا التقى، ويستره بين الخلائق، وفى الآخرة.

إن أثر التقوى عظيم، ورد فى كثير من الآيات، وفى كثير من الأحاديث، ومن هنا اجتهد سلف الأمة فى طاعة الله، وبذلوا جهدهم فى عبادته سبحانه وتعالى، مدركين أن طاعة الله سبب السعادة فى الدنيا والآخرة.

والدارس لسيرة أبى هريرة يجد أن الرجل اجتهد فى العبادة جدًا، مع الزهد والورع.

يحدثنا عبد الرحمن بن مل أبو عثمان النهدى عن أبى هريرة فيقول: تضيفت أبا هريرة سبعًا، فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثًا، يصلى هذا ثم يوقظ هذا، (ويصلى هذا ثم يرقد ويوقظ هذا)[(١)].

ويحدثنا عكرمة أن أبا هريرة كان يسبح كل يوم اثنى عشر ألف تسبيحة، يقول أسبح بقدر ديتى[(٢)].

وذلك أن الدية اثنا عشر ألف درهم، فهو يسبح بعدد الدراهم يشترى بذلك نفسه من الله تعالى كل يوم.

وعن أبى المتوكل عن أبى هريرة أنه كان وأصحابه إذا صاموا قعدوا فى المسجد وقالوا: نطهر صيامنا[(٣)].

وعن سعيد بن المسيب قال: رأيت أبا هريرة يطوف بالسوق ثم يأتى أهله، فيقول: هل عندكم من شىء؟ فإن قالوا: لا، قال: فإنى صائم[(٤)].

---

(١) أخرجه البخارى فى الأطعمة باب القثاء بالرطب ٩/ ٥٦٤ رقم ٥٤٤١ وأحمد فى مسنده ٢/ ٣٥٣ وما بين قوسين من أحمد.

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ١/ ٣٨٣، وذكره الحافظ فى الإصابة ٧/ ٤٤٢ وعزاه لابن سعد بسند صحيح. وذكره الذهبى فى سير النبلاء ٢/ ٦١٠ وعزاه محققه لتاريخ دمشق.

(٣) أخرجه أحمد فى الزهد ص٢٢١ فى باب زهد أبى هريرة. وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ١/ ٣٨٢.

(٤) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ١/ ٣٨٢.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «أوصانى خليلى ـ ﷺ ـ بثلاث، لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر»[١].

وعن أبى المتوكل أن أبا هريرة كانت له زنجية، فرفع عليها السوط يومًا، فقال: لولا القصاص لأغشينك به، ولكنى سأبيعك ممن يوفينى ثمنك، اذهبى فأنت لله عز وجل[٢].

لقد كان أبو هريرة حريصًا على صيام النهار على خير وجه، حتى إنه ليجلس فى المسجد حرصًا على صيامه أن تشوبه كلمة أو نظرة.

وكان حريصًا على قيام الليل، لكنه يقسمه بينه وبين أهل بيته حتى لا يأخذه النوم ليلة.

إنه يحرص على السنن كثيرًا، أما الفروض فلقد أوقعها على خير وجه، وهذا كله مع الورع حتى إنه يترفع عن ضرب جاريته التى أساءت، بل يعتقها لوجه الله تعالى.

ومن عتب أبى هريرة على الكثيرين قوله: ما صدقتم أنفسكم؛ تأملون ما لا تبلغون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون.

إنه أبو هريرة الذى كانت له صرختان فى كل يوم غدوة وعشية[٣]، كان يقول فى أول النهار: ذهب الليل وجاء النهار وعرض آل فرعون على النار، فلا يسمع صوته أحد إلا استعاذ بالله من النار[٤].

فإذا كان العشى قال: ذهب النهار وجاء الليل وعرض آل فرعون على النار، فلا يسمع صوته أحد إلا استعاذ بالله من النار.

---

(١) أخرجه البخارى فى التهجد باب صلاة الضحى فى الحضر ٣/ ٥٦ رقم ١١٧٨.

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ١/ ٣٨٤ وأحمد فى الزهد ص٢٢١.

(٣) أى صرخة فى أول النهار، وصرخة فى آخره.

(٤) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان آخر الشعبة التاسعة ـ دار المؤمنين الجنة ودار الكافرين النار ـ فصل فى عذاب القبر ١/ ٣٦٠ وذكره فى الدر المنثور ٥/ ٣٥٢ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى فى الشعب، قلت وهو عنده أيضًا فى إثبات عذاب القبر رقم ٦٢.

إنه أبو هريرة الوقاف عند كتاب الله، يضبط الحياة عليه بحس مرهف، فعن خثيم بن عراك عن أبيه أن أبا هريرة قدم المدينة فى رهط من قومه، والنبى ﷺ بخيبر، وقد استخلف سباع بن عرفطة على المدينة. قال فانتهيت إليه وهو يقرأ فى صلاة الصبح فى الركعة الأولى بـ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [(١)] وفى الثانية ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ قال: فقلت لنفسى، ويل لفلان إذا اكتال[(٢)] اكتال بالوافى، وإذا كال[(٣)] كال بالناقص، قال: فلما صلى زودنا شيئًا حتى أتينا خيبر. قال: فكلم رسول الله ﷺ المسلمين فأشركونا فى سهامهم[(٤)].

يسمع الآية فيطبقها، ويعلم أن الذين يخالفون قول الله هم من الأشقياء الذين توعدهم الله. فيذكر الذين إذا اشتروا أعطوا الكيل حقه، بل وزيادة. وإذا باعوا أنقصوا وبخسوا الناس حقوقهم. يذكرهم لأن الآية صارت فى ذهنه عملاً تطبق.

وعلى النهج نفسه مع حديث رسول الله ﷺ، يلتزم، ويقتدى، ويطبق ويعمل، وقد سبق حديث «أوصانى خليلى بثلاث، لا أدعهن حتى أموت، صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر» تأمل قوله: «لا أدعهن حتى أموت» تشعر بجديته الكبيرة فى الاتباع، والعمل بالنص على خير وجه.

وبهذا النهج فى العبادة تقدم أبو هريرة علميًا، فإن العبادة سبيل التقدم فى كل خير، وسبيل التقدم فى العلم خاصة، إن المتعبد تصفو روحه، ويأنس بدنه، ويسمو فكره، فيتقدم فى طلب العلم تقدمًا لا يمكن تحققه بغير العبادة.

وبهذه الأمور مجتمعة كان أبو هريرة!!

كان أبو هريرة الصحابى الذى حفظ من حديث **رسول الله** ﷺ الكثير والكثير.

لقد توافرت له هذه الظروف من:

- الحرص على العلم.

---

(١) أول سورة مريم.

(٢) أى عند شرائه يكيل كيلاً تامًا.

(٣) وإذا باع كال كيلاً ناقصًا.

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده كما فى الفتح الربانى ٤٠٦/٢٢ وعزاه فى بلوغ الأمانى إلى ابن خزيمة وابن حبان والبيهقى والحاكم، وسنده جيد.

ـ التفرغ التام لطلبه.

ـ وحظوه ببركة سيدنا رسول الله ﷺ.

ـ والجرأة فى طلب العلم.

ـ والاجتهاد فى العبادة.

فأدت إلى أن يكون أبو هريرة علمًا بارزًا فى ساحة السنة النبوية، يحفظ الكثير والكثير.

• أسباب شيوع علمه وازدهاره:

ولقد اجتمعت مع هذه الظروف ظروف أخرى أشاعت علم أبى هريرة، وأعلت منزلته العلمية، هذه الظروف هى:

١ ـ حرصه على التحديث:

بمقدار ما كان أبو هريرة حريصًا على حفظ حديث رسول الله ﷺ، بمقدار ما كان حريصًا على تبليغه، ذلك أن الإسلام يكلف المسلم أن يتعلم، وأن يُعَلِّم، والآيات والأحاديث فى الحث على تبليغ العلم كثيرة متعددة.

وأبو هريرة حينما يكثر التحديث يحتج بها، ذلك أنه كان يحرص على نشر العلم انطلاقًا من هذه الآيات وهذه الأحاديث.

أخرج الإمام مسلم عن أبى هريرة قال: يقولون إن أبا هريرة قد أكثر[١] واللهُ الموعدُ[٢]، ويقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يتحدثون مثل أحاديثه، وسأخبركم عن ذلك، إن إخوانى من الأنصار كان يشغلهم عمل أراضيهم، وإن إخوانى من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق[٣]، وكنت ألزم رسول الله ﷺ على مِلْءِ بطنى، فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نَسُوا، ولقد قال رسول الله ﷺ يومًا: «أيكم يبسط ثوبه فيأخذ من حديثى هذا، ثم يجمعه إلى صدره، فإنه

---

(١) أى من الأحاديث كما جاء فى إحدى روايات هذا الحديث عند البخارى.

(٢) أى إننا سنقف بين يدى الله للحساب، فيحاسبنى إن تعمدت كذبًا، ويحاسب من ظن بى السوء.

(٣) البيع والشراء.

لم ينس شيئًا سمعه، فبسطت بردة عليّ حتى فرغ من حديثه، ثم جمعتها إلى صدرى، فما نسيت بعد ذلك اليوم شيئًا حدثنى به.

ولولا آيتان أنزلهما الله فى كتابه ما حدثت شيئًا أبدًا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١).

إنه ينطلق فى أداء الأحاديث من منطلق عقدى، فالله سيعاقب من يكتم العلم. وهو الصحابى التقى الورع الذى يرجو رحمة الله ورضوانه، فتعلم العلم لينال درجة العلماء، ويعلمه حتى يؤدى التبعة، ويحظى بعالى الدرجة.

إن الله أعلا درجة العلماء فى كثير من الآيات.

كما فى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

وقوله سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣) وفى ذلك إعلاء كبير للعلماء إذ جعلهم سبحانه وتعالى معه يشهدون بوحدانيته، وجعل الأنبياء فى أولى العلم.

وقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ورسول الله ﷺ كما قال: «ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة»(٤).

---

(١) هذا الحديث أخرجه مسلم فى فضائل الصحابة باب من فضائل أبى هريرة ٥/٣٦٢ - طبعة الشعب - والآيتان اللتان استدل بهما أبو هريرة من سورة البقرة رقم ١٥٩، ١٦٠.

(٢) سورة الزمر آية ٩.

(٣) سورة آل عمران آية ١٨.

(٤) أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ٤/ ٢٠٧٤. ح ٢٦٩٩ وهذا الحديث راويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ.

كما قال ﷺ ذلك قال أيضًا: «رحم الله امرءًا سمع منى حديثًا، فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه»[١] يدعو ﷺ بالرحمة والإكرام لمن بلغ عنه ﷺ.

ومن هذه النصوص وغيرها مما فى موضوعها حرص أبو هريرة على التبليغ، والدارس لحياته يجد أنه قد تفانى فى تبليغ العلم، وأذكر من ذلك هذه المواقف:

أخرج ابن عساكر عن مكحول قال: تواعد الناس ليلة إلى قبة من قباب معاوية، فاجتمعوا فيها، فقام فيهم أبو هريرة يحدثهم عن رسول الله ﷺ حتى أصبح[٢].

أخرج الحاكم بإسناده عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر العمرى قال رأيت أبا هريرة رضى الله عنه يخرج يوم الجمعة فيقبض على رمانتى المنبر قائمًا، ويقول حدثنا أبو القاسم رسول الله الصادق المصدوق ﷺ، فلا يزال يحدث حتى إذا سمع فتح باب المقصورة لخروج الإمام للصلاة جلس[٣].

وهذان الأثران يفيدان كثرة تحديث أبى هريرة، حتى إنه يحدث الناس حتى الصباح، وينتهز اجتماع الناس يوم الجمعة، ومن السنة البكور إليها، فيقف يحدث الناس، حتى يحضر الإمام لشعائر الجمعة.

ولقد كان أبو هريرة مستحضرًا حديثه، مجتهدًا فى المذاكرة، حاضر الذهن، فقيهًا لما يقول مما جعل الجميع يحضر درسه، ويحرص على مجلسه.

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: ألا يعجبك أبو هريرة! جاء فجلس إلى جنب حجرتى يحدث عن النبى ﷺ يسمعنى ذلك. وكنت أسبح[٤] فقام قبل أن أقضى سُبْحَتى،

---

(١) أخرجه ابن حبان فى العلم باب ذكر رحمة الله جل وعلا من بلغ أمة المصطفى ﷺ حديثًا صحيحًا عنه ١/ ٢٧٠ حديث رقم ٦٧.

(٢) ذكره الذهبى فى سير النبلاء ٢/ ٥٩٩ وعزاه محققه لابن عساكر فى تاريخ دمشق.

(٣) المستدرك معرفة الصحابة باب تحديث أبى هريرة فى المسجد قبل الجمعة ٣/ ٥١٢ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

(٤) أى أصلى، وكانت تصلى صلاة الضحى.

ولو أدركته لرددت عليه، إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم[١].

إن أم المؤمنين تريد اتباع هدى رسول الله ﷺ، فى أنه كان يتخولهم بالموعظة مخافة السآمة. إنه يُعَلِّم للعمل.

أما أبو هريرة فإنه يحمل علمًا يريد أن يبلغه، الناس يفهمون الهَدْى النبوى، وفى رأى أبى هريرة يحتاجون حفظ الدليل، فكان يبلغ بحرص على التبليغ. مدفوعًا بالآيات والأحاديث.

وفى حرصه حزم وعزم، يواجه بما يحفظ، ويجزم بوجوب التنفيذ، يصور ذلك ما أخرجه البخارى بإسناده عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة فى جداره» ثم يقول أبو هريرة: ما لى أراكم عنها معرضين؟ والله لأرمينّ بها بين أكتافكم[٢].

حزم شديد من أبى هريرة، وحرص أكيد على التبليغ، لكنه تبليغ الفاهم لمنهج الإسلام العلمى، ذلك أن العلم فى الإسلام قرين العمل، ومن هنا يعتب أبو هريرة على هؤلاء التابعين أنهم لم يمتثلوا، قائلاً: ما لى أراكم عنها معرضين، أى عن هذه السنة، والتى هى قول رسول الله ﷺ، ثم أقسم أنهم إن لم يمتثلوا هذه السنة فإنه سيحدِّث بها، ويوبخهم بعدم امتثالها، كما يضرب الإنسان بالشىء بين كتفيه ليستيقظ من غفلته.

إنه يحرص على البلاغ، ويحرص على الامتثال والعمل، رضى الله عنه وأرضاه.

ومن حرصه على التحديث: أقام بالمدينة المنورة، مدينة الرسول ﷺ، والناس يقصدونها من أنحاء العالم، وأبو هريرة يحدث ويؤدى ما عنده من علم، والناس يتحملون عنه، ويعودون بهذه العلوم إلى كل بلاد الله. مما أشاع علمه وأذاعه.

(١) فضائل الصحابة من صحيح مسلم باب من فضائل أبى هريرة ٤/ ١٩٤٠ رقم ١٦٠/ ٢٤٩٣.
(٢) أخرجه البخارى فى المظالم باب لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة فى جداره ٥/ ١١٠ حديث ٢٤٦٣.

٢ ـ سلامة منهجه العلمى:

أرسى القرآن الكريم والسنة النبوية المنهج العلمى الكفيل بإسعاد من اتبعه، ولقد كان أبو هريرة ثمرة من ثمار هذا المنهج، وعالمًا متبعًا لهذا المنهج، مما أشاع علمه، ونفع الله به الأمة.

ويمكننى أن أوجز هذا المنهج من حياة أبى هريرة فى النقاط الآتية:

أ ـ سلامة معلوماته:

فلقد حافظ أبو هريرة على ما عنده من معلومات، لم يَشُبْها بما يشكك الصحابة والتابعين فيه، أو ينفرهم منه.

لقد وجد الصحابة والتابعون فيه صحابيًا، حافظًا، محققًا مدققًا، إذا ناقشه أحد ثبت أنه الحافظ، وإذا روجع فى مسألة ثبت أن الراسخ.

لم يجربوا عليه خطأ ولا كذبًا. وإنما وجدوا فيه عكس ذلك، يتحرى ويحتاط، يعظم حديث رسول الله ﷺ كل الإعظام.

* إنه أحد رواة حديث تحريم الكذب على رسول الله، فقد أخرج البخارى عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «ومن كذب علىّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»[(١)].

وتحدث أبو هريرة عن هذا الحديث فقال: بلغ عمر حديثى، فأرسل إلىّ، فقال: كنت معنا يوم كنا مع رسول الله ﷺ فى بيت فلان؟ قلت: نعم، وقد علمتُ لأى شىء سألتنى. قال: ولم سألتك؟ قلت: إن رسول الله ﷺ قال يومئذ: «من كذب علىّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» قال: أما لا، فاذهب فحدث[(٢)]. وفى هذا الموقف الكثير من الفوائد، فعمر يريد التثبت فى كل ما يروون، فيجد أبا هريرة فى قمة التثبت، يذكر الواقعة بكل ملابساتها، مع الذكاء والحفظ، مع اليقظة والفهم.

ولقد كان أبو هريرة مستحضرًا هذا الحديث جدًا، يُذَكِّر نفسه به، ويُذَكِّر غيره به، حتى إنه كان يَذْكُره فى أول أحاديثه، فها هو كليب بن شهاب الجرمى يحدث

---

(١) أخرجه البخارى فى العلم باب إثم من كذب على النبى ﷺ ١/ ٢٠٢ رقم ١١٠.

(٢) ذكره فى السير ٢/ ٦٠٣ وعزاه محققه لابن عساكر فى تاريخ دمشق.

أن أبا هريرة كان يبتدئ حديثه بأن يقول: قال رسول الله ﷺ أبو القاسم، الصادق المصدوق: «من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»[١].

لقد كان فاهمًا لقدر حديث رسول الله ﷺ، وأنه وحى الله ودين الله، فكان حريصًا على تحصيله، حريصًا على تبليغه، حريصًا على سلامته.

لقد حدّث شَفِيٌّ الأصبحى أنه دخل المدينة، وجلس أمام أبى هريرة، وسأله أن يحدثه حديثًا عن رسول الله ﷺ، فأراد أبو هريرة أن يحدثه، لكنه غلبه البكاء، فلما هدأ أراد أن يحدثه لكنه أيضًا غلبه البكاء، فلما هدأ أراد أن يحدثه، لكنه أغمى عليه، ومال واقعًا على وجهه!! فلما أفاق حدثه.

رضى الله عن أبى هريرة، يعظم حديث رسول الله ﷺ، حتى إنه يتصور المكان الذى كان فيه مع رسول الله ﷺ، والزمان والملابسات فيتذكر كل ذلك، مع ما فى الحديث عن رسول الله من المسئولية، مع ما فى الحديث من الرهبة، فإنه فى الثلاثة الذين تُسعّر بهم النار أولاً!!

إنه فى ثلاثة أصناف من الأمة عليهم أن يتخلصوا من العمل لغير الله، عالم يتعلم ليقال إنه عالم، ومجاهد يجاهد ليقال إنه شجاع، وغنى يتصدق ليقال إنه كريم[٢].

وهذا الحديث لما نقله شفىٌّ عن أبى هريرة إلى معاوية تأثر به كثيرًا هو ومن حوله.

لقد تأثر أبو هريرة بالحديث عن رسول الله، وبحديث رسول الله، لأنه كان المُقَدِّر والفاهم لحديث رسول الله ﷺ.

* لقد تأثر أبو هريرة بالتحديث عن رسول الله ﷺ لأنه كان يُقَدِّرُهُ.
* وتأثر بحديث رسول الله ﷺ لأنه كان يفهمه.

وسيأتى مزيد لذلك إن شاء الله تعالى عند الكلام على قدر أبى هريرة العلمى.

---

(١) مسند أحمد ٢/ ٤١٢.

(٢) هذا الحديث ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب فى مقدمة الكتاب باب الترهيب من الرياء ١/ ٤٦ رقم ١، ٢ وعزاه لابن خزيمة فى صحيحه.

ب ـ نقاء معلوماته:

ومما أذاع علوم أبى هريرة، منهجه العلمى فى الحفاظ على نقاوة معلوماته، فلقد حرص كثيرًا على أن تكون علومه من الكتاب والسنة فقط، يحفظ الكثير والكثير، ويسأل الكثير والكثير، ويتدبر ويتفهم الغزير والغزير.

رزقه الله الحفظ والفهم فلم يوجِّهُما لحفظ الشعر، أو الأنساب، أو السجع أو القصص. وإنما وجههما لحفظ الكتاب والسنة، لم يلتفت لغيرهما، ولم يهتمّ إلا بهما وذلك لمعرفته بقدرهما.

لم يُؤْثَر أنه حفظ شيئًا من ذلك، ولم يؤثر أنه تعلم شيئًا من علوم الأمم الأخرى، أو الديانات السابقة، وإنما حرص على الفقه فى النص الإسلامى، ففاق به كل مصدر آخر، ووجد فيه كل خير.

فعن أبى رافع عن أبى هريرة أنه لقى كعبًا، فجعل يحدثه، ويسأله، فقال كعب: ما رأيت أحدًا لم يقرأ التوراة أعلم بما فيها من أبى هريرة[1].

إن كعب الأحبار هذا يقرر أن أبا هريرة لم يقرأ التوراة، ولكن علمه الغزير بالكتاب والسنة جعله على علم جم، فيتحدث فى المسائل التى تناولتها التوراة، وكأنه قرأ التوراة.

لقد حافظ أبو هريرة على علمه بالكتاب والسنة سالمًا نقيًا، فلم يشبه بغير ذلك. ولما روى عنه أنه قال: ما من أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثًا عنه منى، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب»[2] قال العلماء: المروى عن أبى هريرة أكثر من المروى عن عبد الله بن عمرو، والسر فى هذا أن عبد الله ابن عمرو كان قد حصل على كتب من أهل الكتاب فتجنب الناس الأخذ عنه وهذا بعكس أبى هريرة، فإن علمه الصافى بالكتاب والسنة، والذى لم يَشُبْه بشىء آخر، جعل الناس يُقْبِلون على علمه إقبالاً شديدًا.

* * *

(١) ذكره فى سير النبلاء ٢/ ٦٠٠، وعزاه مخرجه لتاريخ دمشق لابن عساكر.

(٢) أخرجه البخارى فى العلم باب كتابة العلم ١/٢٠٦ ح رقم ١١٣.

٣ ـ مكانته العلمية:

منذ أن أسلم أبو هريرة أقبل على طلب العلم بشكل منقطع النظير، فلقد وهب حياته لطلب العلم، وتفرغ تمامًا، ولازم رسول الله ﷺ ما أمكن ذلك.

إذا تحدث رسول الله ﷺ أصغى أبو هريرة وحفظ، وإذا سكت رسول الله بدأ أبو هريرة بالسؤال.

إذا سمع حديثًا أعاده على نفسه كثيرًا حتى يحفظه، وذاكر غيره به حتى يثبت فى ذاكرته.

وبلغ من خوفه النسيان أن اشتكى لرسول الله ﷺ فدعا له بعدم النسيان.

لقد جاهد الرجل فى سبيل العلم جهادًا كبيرًا، وصبر صبرًا عظيمًا، حتى بلغ مكانة سامية، ومنزلة عالية.

وتتضح مكانة أبى هريرة العلمية فى ضوء النقاط الآتية:

أ ـ شهادة الرسول ﷺ له:

* فلقد شهد له الرسول ﷺ بالحرص على العلم، وأنه أحرص الأمة[١].

* وشهد له ﷺ بأنه ذو علم وفير، فقال ﷺ: «أبو هريرة وعاء العلم»[٢].

* كما أن الرسول ﷺ أمّن على دعائه بعدم النسيان[٣].

وطلب منه أن يبسط رداءه، ثم حدثه، ثم قال: ضمه، فضمه فما نسى بعد ذلك. وتكرر ذلك.

وهذه الأمور من رسول الله ﷺ أعلت شأن أبى هريرة علميًا، فإن إنسانًا يشهد له رسول الله ﷺ بكل هذه الشهادات لهو إنسان جمع من العلم كثيرًا، وحفظ وفهم، وارتقى وفاق.

---

(١) تقدم ذلك فى موضوع «الحرص على العلم».

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٣/ ٥٠٩.

(٣) تقدم فى «الحرص على العلم».

ب ـ شهادة الصحابة له:

منذ العهد النبوى، وشهادات الكبار تترى بأسبقية أبى هريرة العلمية، شهد له بذلك بعد رسول الله ﷺ كبار الصحابة، شهدوا له بـ:

* كثرة السماع لحديث رسول الله ﷺ.
* كثرة الملازمة لرسول الله ﷺ.
* تفرغه لطلب العلم.
* جرأته على سؤال رسول الله ﷺ.
* سمع ما لم يسمعه كثير من الصحابة.
* علم ما لم يعلمه كثير من الصحابة.

إن المتتبع لأقوال الصحابة فى شأن أبى هريرة، يجد أن بعضهم قد استغرب كثرة أحاديثه، لكنهم لم يلمزوه بشىء، إنما راجعوه أحيانًا فثبت صدقه وضبطه.

وقابلوا رواياته بروايات الآخرين فتبين صوابه وحفظه.

وناقشه بعضهم فدافع عن نفسه، فثبت صدقه فى دفاعه.

واعترضَ عليه البعض بأشياء لم تمثل قدحًا فى منزلته، ولم تنل منه، وإنما أعلت قَدره، وكشفت عن عظيم منزلته.

وهذا إجمال، تفصيله فيما يلى:

• فهذا عبد الله بن عمر يقول لأبى هريرة: يا أبا هريرة أنت كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأحفظنا لحديثه[1].

وقال رجل لابن عمر: إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، فقال ابن عمر: أعيذك بالله أن تكون فى شك مما يجىء به ولكنه اجترأ وَجَبُنّا[2].

أى أن أبا هريرة كان لشدة حرصه على العلم يسأل رسول الله ﷺ كثيراً،

(١) أخرجه الترمذى فى المناقب باب مناقب أبى هريرة ١٠/ ٣٣٥ وقال: حسن وأخرجه أحمد ٢/ ٣ مطولاً، وسيأتى.

(٢) أخرجه الحاكم فى معرفة الصحابة باب مناقب أبى هريرة ٣/ ٥١٠ وقد تقدم.

ولحرصه على التبليغ كان يحدث الناس ويعلمهم.

وحدث موقف أسوقه لبيان قدر أبى هريرة العلمى، وشهادة كبار الصحابة له: فلقد مَرّ عبد الله بن عمر بأبى هريرة وهو يحدث عن النبى ﷺ أنه قال: «من تبع جنازة فصلى عليها فله قيراط، فإن شهد دفنها فله قيراطان، القيراط أعظم من أحد».

فقال له ابن عمر رضى الله عنهما: أبا هر[1] انظر ما تحدث عن رسول الله ﷺ.

فقام إليه أبو هريرة حتى انطلق به إلى عائشة فقال لها: يا أم المؤمنين أنشدك بالله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تبع جنازة فصلى عليها فله قيراط، فإن شهد دفنها فله قيراطان».

فقالت: اللهم نعم.

فقال أبو هريرة: إنه لم يكن يشغلنى عن رسول الله ﷺ غرس الوَدِىّ[2]، ولا صفق[3] بالأسواق، إنما كنت أطلب من رسول الله ﷺ كلمة يعلمنيها، وأكلة يطعمنيها.

فقال له ابن عمر: أنت يا أبا هريرة كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ، وأعلمنا بحديثه[4].

لقد وافقت أم المؤمنين عائشة أبا هريرة فى هذا الحديث، واعترف ابن عمر لأبى هريرة بالتقدم العلمى.

---

(١) كنية أبى هريرة، يكنى بـ «أبو هر» و«أبو هريرة» وكانت الأولى ـ أبو هر ـ أحب إليه، ورسول الله كان يناديه بها أحيانًا.

(٢) صغار النحل.

(٣) بيع وشراء.

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده ٢/٢ يرويه عن شيخ الترمذى هشيم بن بشير، وأخرجه أيضًا الحاكم ٣/ ٥١٠ وصححه، ووافقه الذهبى، وأصل الحديث عند البخارى فى الجنائز باب فضل اتباع الجنائز ٣/ ١٩٢. ومسلم فى الجنائز باب فضل الصلاة على الجنازة ٢/ ٦٥٣ رقم ٥٥، ٥٦، وإنما آثرت رواية مسند أحمد لوضوحها.

• **أبو أيوب الأنصارى:** الصحابى الجليل، الذى نزل رسول الله ﷺ فى بيته فى أول هجرته إلى المدينة فمكث ضيفًا عنده شهرًا، مما أتاح له القرب من رسول الله ﷺ كثيرًا، وطويلاً.

أبو أيوب هذا، يتحدث عنه أبو الشعثاء سليم بن أسود بن حنظلة المحاربى الكوفى التابعى الثقة[١] فيقول: قدمت المدينة فإذا أبو أيوب يحدث عن أبى هريرة رضى الله عنه، فقلت: تحدث عن أبى هريرة، وأنت صاحب منزلة عند رسول الله ﷺ؟! فقال: لأن أحدث عن أبى هريرة أحب إلىّ من أن أحدث عن النبى ﷺ[٢].

وفى رواية أن أبا الشعثاء قال لأبى أيوب: تحدث عن أبى هريرة، وقد رأيت رسول الله ﷺ؟ قال: إنه قد سمع[٣].

إن أبا أيوب يبين أنه لأن يروى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أحب إليه من أن يحذف اسم أبى هريرة ويروى مباشرة عن رسول الله، ذلك أن أبا هريرة معروف بالحفظ والتدقيق، وقد صرح أبو أيوب بذلك وقال: إنه قد سمع. أى أنه قد تفرغ ولازم رسول الله ﷺ طويلاً، فالرواية عنه تطمئن كثيراً.

إنها شهادة عالية القدر لأبى هريرة من أبى أيوب الأنصارى.

* * *

• **زيد بن ثابت:** فلقد سأله إنسان عن مسألة فقال له: عليك بأبى هريرة، فإنه بينما أنا وهو وفلان فى المسجد... الحديث وفيه دعاء أبى هريرة «اللهم إنى أسألك ما سألك صاحباى، وأسألك علمًا لا ينسى» فأمَّن رسول الله ﷺ على دعائه. وقد تقدم[٤].

ففيه شهادة زيد بن ثابت لأبى هريرة.

---

(١) ترجمته فى تهذيب التهذيب ٤/ ١٦٥.

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٣/ ٥١٢.

(٣) هذه الرواية ذكرها فى مجمع الزوائد ٩/ ٣٦١، ٣٦٢ وعزاها للطبرانى من طريقين فى إحداهما سعيد بن سفيان الجحدرى وثقه غير واحد وفيه ضعف وبقية رجالها ثقات.

(٤) فى «الحرص على العلم».

● **أم المؤمنين عائشة:** فلقد روى عنها الكثير فى التعريف بمكانة أبى هريرة فهنا ـ شهادات الصحابة له ـ شهادتها بصحة ما يرويه أبو هريرة عند سؤال عبد الله بن عمر وأبى هريرة لها.

وتقدم أنها حينما اعترضت على كثرة رواية أبى هريرة أنه قال لها: يا أماه، إنه كان يشغلك عن رسول الله ﷺ المرآة والمكحلة والتصنع لرسول الله ﷺ، وإنى والله ما كان يشغلنى عنه شىء. وأنها قالت: لعله[(١)].

❊ ❊ ❊

● **طلحة بن عبيد الله:** أحد العشرة المبشرين بالجنة، تقدم أنه قال عن أبى هريرة: ولا نشك أنه قد علم ما لم نعلم، وسمع ما لم نسمع، ولم يتهمه أحد منا أنه تقوّل على رسول الله ﷺ ما لم نقل[(٢)].

❊ ❊ ❊

● **أبى بن كعب:** الصحابى الجليل، الذى قال له رسول الله ﷺ: «إن الله أمرنى أن أقرأ عليك» والذى قال عنه عمر: «سيد المسلمين أبى بن كعب».

أبى بن كعب هذا تقدمت شهادته لأبى هريرة، وأنه قال: إن أبا هريرة كان جريئًا على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره... الحديث[(٣)].

❊ ❊ ❊

● **جمع من الصحابة:** فلقد جلس محمد بن عمارة بن عمرو بن حزم[(٤)] فى مجلس فيه أبو هريرة ومشيخة من أصحاب النبى ﷺ بضعة عشر رجلاً، يقول: فجعل أبو هريرة يحدثهم عن النبى ﷺ فلا يعرفه بعضهم، ثم يتراجعون فيه فيعرفه بعضهم، ثم يحدثهم ولا يعرفه بعضهم، ثم يعرفه بعض. حتى فعل ذلك مرارًا، فعرفت يومئذ أن أبا هريرة أحفظ الناس عن النبى ﷺ[(٥)].

(١ ، ٢) تقدم فى «التفرغ لتعلم العلم».

(٣) تقدم فى «جرأته فى طلب العلم».

(٤) ترجمته فى تهذيب التهذيب ٩/٣٥٩ رقم ٥٩٧ لكنه ليست له رواية فى الكتب التسعة، وإنما ذكره فى التهذيب للتمييز بينه وبين قريب له، له رواية فى السنن.

(٥) أخرجه البخارى فى التاريخ الكبير ١/١٨٦، ١٨٧.

لقد سمع ما لم يسمعوا، فيحدثهم، فمن سمع أقره، ومن لم يسمع لم يعرف.

وما من حديث إلا وقد حفظه بعضهم، فيوافق أبا هريرة.

* * *

إنه راوية الإسلام بشهادتهم، أعنى بشهادة الصحابة الذين عايشوه، وسمعوا من رسول الله ﷺ.

إنهم الذين زكاهم الله، وأثنى عليهم رسوله ﷺ.

هؤلاء الأكابر يشهدون هذه الشهادات لأبى هريرة الصحابى الجليل، فهل بعد كلامهم كلام؟

وهل نقبل لحفنة من الأمة تجريحًا فى هذا الصحابى الجليل، الذى أثنى عليه ربنا ضمن ثنائه سبحانه وتعالى على أصحاب رسوله ﷺ، وأثنى عليه نبينا ﷺ بالاسم، وأثنى عليه الصحابة الكرام، أَبَعْد هذه الشهادات نقبل من منتقد نقدًا، وهو لم يعاصره، ولم يره، ولم يعرفه؟!

* * *

جـ ـ شهادة الأئمة له:

- ومن باب التجميل أسوق أقوال بعض الأئمة عن أبى هريرة:

* الإمام الشافعى: قال: وأبو هريرة أسن وأحفظ من روى الحديث فى دهره[1].

* الإمام البخارى: قال: روى عنه نحو الثمانمائة من أهل العلم، وكان أحفظ من روى الحديث فى عصره[2].

* الإمام ابن خزيمة، صاحب صحيح ابن خزيمة، وهو أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة أحد أئمة الإسلام المعدودين قال عنه الدارقطنى: كان ابن خزيمة ثبتًا معدوم النظير.

---

(١) الرسالة ص٢٨٠، ٢٨١ فقرة رقم ٧٧٢. وذكره الذهبى فى السير ٢/ ٥٩٩.

(٢) الإصابة ٧/ ٤٣٢.

ابن خزيمة هذا ذُكر أبو هريرة فى مجلسه فقال: كان من أكثر أصحابه عنه رواية فيما انتشر من رواية غيره من أصحاب رسول الله ﷺ، مع مخارج صحاح، وقد روى عنه أبو أيوب الأنصارى مع جلالة قدره، ونزول رسول الله ﷺ عنده.

ثم قال: ومن حرص أبى هريرة على العلم روايته عن من كان أقل رواية عن النبى ﷺ منه، حرصًا على العلم، فقد روى عن سهل بن سعد الساعدى[1].

* أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم، صاحب المستدرك على الصحيحين المتوفى (٤٠٥) قال: قد تحريت الابتداء من فضائل أبى هريرة رضى الله عنه لحفظه لحديث المصطفى ﷺ، وشهادة الصحابة والتابعين له بذلك، فإن كل من طلب حفظ الحديث من أول الإسلام وإلى عصرنا هذا فإنهم من أتباعه وشيعته، إن هو أولهم وأحقهم باسم الحفظ.

ثم قال الحاكم: وأنا ذاكر بمشيئة الله عز وجل فى هذا رواية أكابر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين عن أبى هريرة، ثم ذكر عددًا منهم: زيد بن ثابت، وأبو أيوب الأنصارى، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وأبى بن كعب، وجابر بن عبد الله، وأم المؤمنين عائشة، وعدد سواهم، ثم قال: فقد بلغ عدد من روى عن أبى هريرة من الصحابة ثمانية وعشرين رجلاً. فأما التابعون فليس فيهم أجلّ ولا أشهر وأشرف وأعلم من أصحاب أبى هريرة[2].

* الحافظ الذهبى، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، مؤرخ الإسلام، وشيخ المحدثين، صاحب تاريخ الإسلام، وسير أعلام النبلاء، وغيرها من المؤلفات النافعة توفى ٧٤٨هـ قال: أبو هريرة **سيد الحفاظ** الأثبات[3]. وقال: حمل عن النبى ﷺ علمًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، لم يلحق فى كثرته.

وقال: وكان حفظ أبى هريرة الخارق من **معجزات** النبوة[4].

---

(١) ذكر ذلك الحاكم فى المستدرك فى معرفة الصحابة بعد باب تحديث أبى هريرة فى المسجد قبل الجمعة ٣/ ٥١٢.

(٢) ذكره فى الموضع السابق، وبعده بقليل ٣/ ٥١٢، ٥١٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٧٨.

(٤) المصدر السابق ص٥٩٤.

وقال: وأبو هريرة إليه المنتهى فى حفظ ما سمعه من الرسول عليه السلام وأدائه بحروفه[١].

وقال: وقد كان أبو هريرة وثيق الحفظ، ما علمنا أنه أخطأ فى حديث[٢].

إن هذه الشهادات تبين مكانة أبى هريرة العلمية، وأنه الصحابى الحافظ المتقن، المتفانى فى طلب العلم، وفى نشره، المتثبت فى تحمله ونقله. شهد له بذلك نبينا ﷺ، وشهد له بذلك الصحابة الأخيار.

***

وأمر آخر له أهميته فى ذيوع حديث أبى هريرة واشتهاره وهو:

٤ ـ فقهه:

ومما زاد أبا هريرة قدرًا، وارتفع به نبلاً، فقهه فى النص، فلم يكن مجرد حافظ، ينقل من راو إلى آخر. وإنما خبيرًا بفقه ما يحفظ، بصيرًا بما يستنبط منه، وهذا أمر يعلى قدره، ويطمئن الآخرين إلى علمه.

لقد كان أبو هريرة رجلاً عربيًا، يفهم لغة النصوص الإسلامية من قرآن وسنة، وأضاف إلي ذلك الحرص على طلب العلم، فحفظ النصوص وعرف ملابساتها، وسمع الكثير من الفقه والفتوى، فأهّله كل ذلك لفقه النصوص، وأجاد فهمها، وتفوق فى الاستنباط منها.

ولقد كان رضى الله عنه يعرف قيمة الفقه، فلقد سمع من رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين»[٣] ولذا أثر عنه ـ عن أبى هريرة ـ أنه قال: لأن أفقه ساعة أحب إلىّ من أن أحيى ليلة، أصليها حتى أصبح، والفقيه أشد على الشيطان من ألف عابد. ولكل شىء دعامة، ودعامة الدين الفقه[٤].

لقد أفتى أبو هريرة فى دقاق المسائل أمام الصحابة، فأقروه، ووافقوه، وجاء

---

(١) المصدر السابق ص٦١٩.

(٢) المصدر السابق ص٦٢١.

(٣) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ١/ ٨٠ ح ٢٢٠ وهو مروى عن معاوية عند البخارى ومسلم وأحمد، وعن ابن عباس عند أحمد والترمذى.

(٤) أخرجه الخطيب فى الجامع لأخلاق الراوى ٢/ ١١٠ فقرة رقم ١٣٢٨.

سائل فأفتاه، وعلم بذلك عمر فأقره، وسئل كثيرًا فأجاب، وكبار الصحابة يحيلون عليه المسائل، بل وفقهاؤهم يعتمدون على فتوى أبى هريرة، وأذكر شيئًا مما يوضح ذلك:

فقد أخرج مالك فى موطئه بإسناده عن أبى هريرة أنه أقبل من البحرين، حتى إذا كان بالربذة[١] وجد ركبًا[٢] من أهل العراق محرمين، فسألوه عن لحم صيد وجدوه عند أهل الربذة، فأمرهم بأكله.

قال: ثم إنى شككت فيما أمرتهم به، فلما قدمت المدينة، ذكرت ذلك لعمر ابن الخطاب. فقال عمر: ماذا أمرتهم به؟ فقال: أمرتهم بأكله. فقال عمر بن الخطاب: لو أمرتهم بغير ذلك لفعلت بك، يتواعده[٣].

لم يكتف عمر بالقول بصواب ما أفتى به أبو هريرة، وإنما بيّن أنه الحق الصراح، وغيره لا يقبل مطلقًا، حتى إنه يعاقب عليه.

وأخرج مالك أيضًا بإسناده عن معاوية بن أبى عياش الأنصارى، أنه كان جالسًا مع عبد الله بن الزبير، وعاصم بن عمر بن الخطاب قال: فجاءهما محمد بن إياس بن البُكير فقال: إن رجلاً من أهل البادية طلق امرأته ثلاثًا قبل أن يدخل بها، فماذا تريان؟

فقال عبد الله بن الزبير: إن هذا الأمر ما لنا فيه قول، فاذهب إلى عبد الله بن عباس وأبى هريرة، فإنى تركتهما عند عائشة، فسلهما، ثم ائتنا فأخبرنا، فذهب فسألهما، فقال ابن عباس لأبى هريرة: أفته يا أبا هريرة، فقد جاءتك معضلة.

فقال أبو هريرة: الواحدة تبينها، والثلاثة تحرمها حتى تنكح زوجًا غيره.

وقال ابن عباس مثل ذلك[٤].

---

(١) موضع قرب المدينة المنورة.

(٢) جماعة عشرة فما فوقها يركبون الإبل أى الجمال.

(٣) أخرجه مالك فى الحج باب ما يجوز للمحرم أكله من الصيد ١/٣٥١ رقم ٨٠، ٨١. ومعنى «لفعلت بك، يتواعده» أى أن أبا هريرة قد أصاب فى فتواه، ولو أنه أفتى بغير ذلك لعاقبه عمر، إما بزجر، أو ضرب، كما جاء فى الرواية الثانية: لو أفتيتهم بغير ذلك لأوجعتك، أى ضربتك ضربًا موجعًا.

(٤) أخرجه مالك فى الموطأ كتاب الطلاق باب طلاق البكر ٢/٥٧١ رقم ٣٩ وأيضًا رقم ٣٧.

إن عمر يقر أبا هريرة على فتواه، وابن عباس حبر الأمة وفقيهها يحيل الفتوى لأبى هريرة، معترفًا بقوة المسألة، حتى إنه يقول قد جاءتك معضلة. ويفتى فيها أبو هريرة، ويوافقه ابن عباس، وتشيع فى الصحابة، ويعمل بها.

إن فقه أبى هريرة أسعده بما يحفظ، وجعله يستذكر ويفكر، مما هيج علومه، وجدد حفظه، وقوّى فكره، وجعل الأمة تقبل على ما عنده من علم.

أخرج ابن سعد بإسناده عن زياد بن ميناء قال: كان ابن عباس، وابن عمر، وأبو سعيد الخدرى، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وجابر بن عبد الله، ورافع بن خديج، وسلمة بن الأكوع، وأبو واقد الليثى، وعبد الله ابن بحينة، مع أشباه لهم من أصحاب رسول الله ﷺ يفتون بالمدينة، ويحدثون عن رسول الله ﷺ من لدن توفى عثمان إلى أن توفوا، والذين صارت إليهم الفتوى منهم: ابن عباس، وابن عمر، وأبو سعيد الخدرى، وأبو هريرة، وجابر بن عبد الله(1).

● وبعد فهذا تعريف بالجانب العلمى من حياة الصحابى الجليل أبى هريرة، اتضح منه:

* حرص الرجل على العلم.

* وتفرغه التام لطلب العلم.

* وتفانيه فى الطلب مع جرأته وإقدامه.

* وحظوته ببركة رسول الله ﷺ.

* مع الأخذ بأسباب قوة الحفظ والفهم بالاجتهاد فى العبادة.

وهذه كلها جعلته راوية الإسلام، ومحدث الصحابة والتابعين.

وجمع عدة أسباب فى التبليغ جعلت علمه يشيع، وينتشر. هذه الأسباب هى:

* حرصه على التحديث.

* سلامة منهجه العلمى، والذى يتمثل فى سلامة معلوماته ونقائها.

* مكانته العلمية، والتى شهد له بها رسول الله ﷺ، والصحابة، والأعلام.

* فقهه.

---

(١) الطبقات الكبرى ٢/ ٣٧٢ فى ترجمة عبد الله بن عباس.

وبالأمرين جمع أبو هريرة بين: سعة التحمل، فتحمل الكثير من العلم، مع سلامة الفهم. وسعة الأداء، فبلغ، وأخذ عنه الكبار.

فهل مثل هذا نقبل فيه أى انتقاص؟

هل مثل هذا نقبل فى حقه أى كلمة شين؟

لقد مدحه ربنا فى جملة الصحابة.

ومدحه نبينا بشخصه.

ومدحه الصحابة الكرام.

ومدحه الأئمة الأعلام.

ورحم الله الحافظ ابن خزيمة[١] إذ يقول: وإنما يتكلم فى أبى هريرة لدفع أخباره من أعمى الله قلوبهم، فلا يفهمون معانى الأخبار.

ثم ذكر أنواعهم، فهم إما من الفرق الضالة، الخارجة عن منهج أهل السنة والجماعة، وإما من المتعصبين لمذهب فقهى، فإذا وجدوا أبا هريرة يروى حديثًا يخالف مذهب إمامهم عابوا أبا هريرة إذ روى هذا، وإذا وجدوه يروى حديثًا يوافق مذهب إمامهم قبلوا أحاديثه.

قلت: يرحم الله ابن خزيمة، فلا يتكلم فى أبى هريرة إلا من أعمى الله قلبه فعلا، فالرجل صحابى جليل، ترك بلاده وهاجر إلى سيدنا رسول الله ﷺ، ليتعلم منه الإسلام، وتفرغ لذلك تمامًا، وتوافرت له ظروف تهيئ عالمًا فعلاً، ولقد اعترف له بذلك الكبار فلا يعترض عليه إلا من أعمى الله قلبه.

والمعترضون على أبى هريرة فى زماننا أناس يبغضون الإسلام، ويكرهون الحق، يهمهم أن ينهزم الإسلام، ويعنيهم جدًا أن تشيع الرذيلة، أناس يعملون لصالح الباطل، ويعملون لقتل الحق، لقتل الإسلام، وكما وجدوا فى فكر الطوائف المنحرفة عن الإسلام ما يبلغهم أمانيهم، أخذوا هذا الفكر وراحوا يروجونه ويذيعونه.

---

(١) أحد أئمة الإسلام، توفى ٣١١، وهو صاحب كتاب صحيح ابن خزيمة.

(٢) نص كلام ابن خزيمة فى مستدرك الحاكم ٣/ ٥١٣، وفى الفتح الربانى ٢٢/ ٤١٥.

لقد أخذوا فكر أعداء الإسلام، من أفكار الكفرة، وأفكار اليهود والنصارى، وأفكار الفرق الضالة، أخذوا كل هذه الأفكار، وراحوا يروجونها، على أنها فكرهم. يحاربون به الإسلام.

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[١].

وقال سبحانه:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[٢].

إن من فضل الله وكرمه على أهل الحق أن أعلمهم كيد أعدائهم، وأننا سنسمع منهم كثيراً من الاعتراض على ديننا.

ومن فضل الله وكرمه أن طمأننا أنه سبحانه متم نوره، وأنه مظهر دينه أي ناصره، ولو كره الكافرون والمشركون.

فليفعل المنافقون ما شاءوا فالحق أبلج[٣]، وليفعل المنافقون ما شاءوا فالباطل لجلج[٤].

والله لو أعملوا عقولهم ما تكلموا فى أبى هريرة إلا بكل مدح وزين، فرجل فعل فى أول الإسلام ما تفعله الآن أعلى الهيئات الجامعية وزاد أيعترض عليه فى حفظ ثلاثمائة صفحة تقريبًا!!

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٦.

(٢) سورة الصف آية ٧ ـ ٩.

(٣) واضح.

(٤) منهزم.

إن تفرغ أبى هريرة، وملازمته لرسول الله ﷺ هو ما تفعله الآن أعلى الجامعات بطلابها، يهيئون له مسكنًا ومطعمًا بجوار كليته.

وهذا هو الذى فعله أبو هريرة لنفسه، هاجر فسكن مع رسول الله فى المدينة، وتفرغ ولازم رسول الله ﷺ، يتعلم منه، ويأكل معه، لم يشغله شاغل.

لكنه زاد عن طلاب المدن الجامعية:

١ ـ الحرص الشديد على العلم، ومن منطلق عقدى، إذ تدفعه عقيدته لطلب العلم.

٢ ـ كثرة العبادة التى تهيئ الإنسان لطلب العلم بما توفره من سعادة واستقرار.

٣ ـ حظى ببركة رسول الله ﷺ فى طلب العلم.

• ولماذا يعترضون عليه؟

فلقد رُوى عنه (٥٤٧٣) ثلاثة وسبعون وأربعمائة وخمسة آلاف حديث، وأحاديث رسول الله ﷺ موجزة، يأتى الحديث منها فى نصف سطر، أو سطر أو سطرين. فلو حسبنا ذلك لجاء جميع محفوظاته فى ثلاثمائة صفحة تقريبًا، ومثل هذا لإنسان متفرغ لا يشق، ولا يستبعد. فلم كل هذا الكلام؟

إن حفظ أبى هريرة أمر يقبله العقل، وظروفه تهيئه لذلك، والقلب يطمئن لذلك، فلقد قَبِل حديثه رسولُ الله والصحابةُ وسلفُ الأمة، ونحن على ذلك، والحمد لله رب العالمين.

• نماذج من شبهاتهم حول أبى هريرة:

منكرو السنة يحرصون على تجريح أبى هريرة كل الحرص، يرتكبون فى ذلك كل الأخطاء والأخطار، أعيتهم الحيل أن يجدوا مآخذ حقيقية عليه، فراحوا يختلقون المآخذ عليه، كذبًا وزورًا، من ذلك:

١ ـ ادعاؤهم كذبه!!

يدعى منكرو السنة أن أبا هريرة كذب فى حديث السهو فى الصلاة، ويقولون: إنه يقول: «صليت مع رسول الله ﷺ فسلم من ركعتين فقال ذو الشمالين أنقصت الصلاة يا رسول الله؟

يقولون: إن أبا هريرة جاء المدينة سنة سبع، وذو الشمالين مات فى السنة الثانية من الهجرة، فكيف يحضر أبو هريرة القصة؟

ويقولون: هذا كذب من أبى هريرة، ودليل إدانة لصحيح البخارى، فهو الذى أخرج الحديث. انتهى كلامهم.

والرد:

أقول لهم: ها هو الحديث أمامى فى صحيح البخارى فى كتاب السهو باب إذا سلّم فى ركعتين أو فى ثلاث فسجد سجدتين مثل سجود الصلاة أو أطول[(١)]. أخرجه البخارى بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «صلّى بنا النبى ﷺ الظهر - أو العصر - فسلَّم، فقال له ذو اليدين: الصلاة يا رسول الله أنقصت؟ فقال النبى ﷺ لأصحابه: أحق ما يقول؟ قالوا: نعم. فصلى ركعتين أخريين، ثم سجد سجدتين».

هذا نص الحديث فى البخارى، ولقد غيّرتم فيه كلمة واحدة ترتب عليها ما قلتم، غيّرتم «فقال ذو اليدين» وجعلتموها «فقال ذو الشمالين» وذو اليدين مات بعد رسول الله ﷺ بفترة، فلا إشكال فى الحديث مطلقًا.

فلا أبو هريرة كذب، ولا البخارى أخطأ، وإنما أنتم الذين كذبتم، فجعلتم المتحدث ذا الشمالين، بينما هو ذو اليدين[(٢)].

وهكذا عجزوا عن العثور على شىء يشين أبا هريرة، فراحوا يكذبون فى أمورِ الكذبُ فيها لا يُقبل، فهى واضحة كالشمس فى وسط نهار الصيف.

وهكذا يسيرون فى هذا الطريق، فيأتون على أى حديث لأبى هريرة، ويثيرون شبهة عليه، هذه الشبهة مختلقة مزيفة، لكنهم لا يتورعون عن الكذب، رائين أن ذلك يروج عند العامة، ويشككهم فى دينهم، وذلك يحقق لهم بعض أغراضهم.

ومن واجب المسلم أن لا يعير هؤلاء اهتمامًا، وبخاصة بعد أن ثبت كذبهم، واستبان نفاقهم.

---

(١) جـ٣ ص٩٦ حديث رقم ١٢٢٧.

(٢) سيأتى إن شاء الله تعالى مزيد لهذا البحث عند الكلام على شبهاتهم على الإمام البخارى.

ومثال آخر:

وقديمًا ادعى أعداء السنة أن أبا هريرة كذب فى ادعائه السماع من السيدة رقية بنت رسول ﷺ، وجاء أعداء السنة المعاصرون فراحوا يرددون هذا الادعاء، وأذكر ادعاءهم، ثم أجيب عليه، وبالله التوفيق.

قالوا: رُوى عن أبى هريرة أنه قال: دخلت على رقية بنت رسول الله ﷺ امرأة عثمان، وبيدها مشط، فقالت: خرج رسول الله ﷺ من عندى آنفًا، رجّلت رأسه، فقال لى كيف تجدين أبا عبد الله؟

قلت: بخير. قال: أكرميه، فإنه من أشبه أصحابى بى خُلُقًا.

وراحوا يكيلون الاتهامات لأبى هريرة، كيف يقول دخلت على رقية، وقد ماتت رقية فى السنة الثانية للهجرة بينما جاء أبو هريرة إلى المدينة فى السنة السابعة للهجرة، هذا كذب من أبى هريرة.

وزادوا فقالوا إنه أراد أن يمدح عثمان مجاملة لمعاوية، الذى يغدق فى العطاء... إلى آخر أقوالهم.

وأقول: ما هكذا تكون الاتهامات، فمن أخرج الحديث عن أبى هريرة؟

ومن صححه من الأئمة عن أبى هريرة؟

إنه لو صح الحديث لجاز لكم أن تعترضوا هذه الاعتراضات، وتنتقدوا هذه الانتقادات. لكن الحديث لم يصح!! إن أبا هريرة لم يقل هذا!!

* **لقد أخرج الحاكم** هذا الحديث فى المستدرك[1]، لكن ماذا قال بعده؟

لقد أخرجه من طريقين قال فيهما: هذا حديث صحيح الإسناد واهى المتن.

وقال الذهبى: صحيح منكر المتن.

وهكذا فلم يورده الحاكم إيراد المصحح، ولكن إيراد من يخرجه من دائرة القبول، فمعنى «واهى المتن» أى أنه خارج دائرة القبول، وإنما هو مردود لشدة ضعفه.

(١) كتاب معرفة الصحابة باب ذكر وفاة رقية ودفنها ٤/ ٤٨.

* وهذا الحديث أخرجه أيضًا الطبرانى[(١)]، وقال الهيثمى[(٢)]: رواه الطبرانى، وفيه محمد بن عبد الله يروى عن المطلب، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

وواضح من كلام الهيثمى أن الحديث عند الطبرانى أيضًا ليس صحيحًا.

وأضيف: هذا الحديث عند الحاكم فى الإسناد الأول، وعند الطبرانى من رواية المطلب بن عبد الله بن حنطب عن أبى هريرة، والمطلب لم يلق أبا هريرة[(٣)]، فالإسناد منقطع، ومثل هذا لا يحتج به.

وأما الإسناد الثانى عند الحاكم، ففيه إدريس بن سنان اليمانى، ضعفه كثير من الأئمة. وقال الدارقطنى: متروك. وقال ابن حبان: يتقى حـديثه من رواية ابنه عبـد المنعم عنه[(٤)]. والحديث الذى معنا من رواية ابنه عبد المنعم عنه.

وعليه فهذا الحديث لم يصح عن أبى هريرة، ولم يثبت أن أبا هريرة قال: دخلت على رقية بنت رسول الله ﷺ. لم يثبت هذا، حكم بذلك الأئمة كما تقدم عن الحاكم، والذهبى، وأحكم به الآن أيضًا.

وإنى على يقين أن الذى أثار هذه الشبهة يعلم يقينًا أن هذا الحديث لم يثبت عن أبى هريرة، وأن أبا هريرة لم يقل دخلت على رقية بنت رسول الله ﷺ.

إن النص يكون أمام منكرى السنة غير ثابت، لكنه ما دام يوافق غرضهم فإنهم يحتجون به، وينسون ضعفه، أو شدة ضعفه!!

بقى أن أقول: إن الجزء المرفوع من هذا الحديث، وهو كلام رسول الله ﷺ لابنته رقية: يا بنية أحسنى إلى عبد الله ـ عثمان بن عفان زوجها ـ فإنه أشبه أصحابى بى خُلُقًا» هذا الحديث صحيح من حديث الصحابى الجليل عبد الرحمن ابن عثمان القرشى[(٥)]، قال الهيثمى: رواه الطبرانى، ورجاله ثقات[(٦)].

(١) فى المعجم ١/ ٧٦ رقم ٩٩.
(٢) مجمع الزوائد ٩/ ٨١ كتاب المناقب باب ما جاء فى خلقه ـ عثمان ـ رضى الله عنه.
(٣) يراجع المراسيل ص٢٠٩ رقم ٧٨٠.
(٤) يراجع تهذيب التهذيب ١/ ١٩٤ ترجمة رقم ٣٦٤.
(٥) أخرجه الطبرانى فى الكبير ١/ ٧٦ رقم ٩٨.
(٦) مجمع الزوائد ٩/ ٨١.

إن الحديث صحيح عن غير أبى هريرة، وهنا لم نجد لهم قولاً، لأن الراوى غير أبى هريرة. لم نجد أن قالوا فى عبد الرحمن بن عثمان راوى هذا الحديث إنه وضع الحديث مجاملة لمعاوية. لم يقولوا ذلك، أما أبو هريرة فينهالون عليه، سبّا وتجريحًا. والبحث يثبت أنهم هم المجرُوحون، وهم الكذابون. وأن أبا هريرة لم يقل هذا، والحديث لم يثبت أنه قال القدر الموقوف الذى فى أوله، هذا الذى يملئون به الدنيا تشهيرًا بأبى هريرة.

ويتضح من هذين المثالين أن منكرى السنة يتجنَّوْن على هذا الصحابى الجليل أبى هريرة تجنِّيًا واضح الزور، ففى المثال الأول ـ السهو فى الصلاة ـ يحرفون الرواية، ويتحدثون بها على خير وجهها، حرصًا على الوصول إلى هدفهم، وهو تجريح هذا الصحابى، ولو بالباطل.

وفى المثال الثانى ـ تَحدُّثُه إلى السيدة رقية ـ يعتمدون على حديث غير صحيح، وإنما هو شديد الضعف، حكم مؤلف الكتاب الذى أخذوا الحديث منه أنه شديد الضعف، إلا أنهم يتحدثون به، ويوهمون الناس صحته، هادفين من وراء ذلك تجريح الصحابى الجليل، واتهام أبى هريرة بالكذب.

وهذا شأنهم فى الكثير:

* إذا كان الحديث صحيحًا حرفوه ليفيد مذهبهم.

* وإذا كان الحديث غير صحيح ويشهد لهم أذاعوه، واحتجوا به.

* الحقيقة ليست هدفًا لهم، ولا تُحْتَرَمُ فى كلامهم، وإنما هدفهم تضييع السنة.

إن اطلاع المسلم على منهجهم هذا يجعله لا يثق بهم، ولا يلقى بالاً لفكرهم، وإنما يثق بما كان عليه السلف الصالح، من احترام الصحابة، والإيمان بعدالتهم وصدقهم، واحترام أئمة الأمة وعلمائها من المحدثين وغيرهم، يثق بالأحاديث النبوية التى حكم بصحتها المحدثون.

وهكذا نسير على هدى السلف رضوان الله عليهم أجمعين، ضاربين بأقوال منكرى السنة عرض الحائط.

٢ ـ نقدهم حديثه!!

وينتقد منكرو السنة حديثًا أخرجه البخارى عن أبى هريرة فى شفاعة رسول الله ﷺ، ظانين أن ذلك يدمِّرُ البخارى، ويدمر أبا هريرة، ويقضى على موضوع الشفاعة، وهم فى كل ذلك كاذبون، مفترون، متَجَنُّون.

فقد أخرج البخارى بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «أُتى رسول الله ﷺ بلحم، فَرُفع إليه الذراع ـ وكانت تعجبه ـ فنهس منها نهسة، ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الناس ـ الأولين والآخرين ـ فى صعيد واحد، يسمعهم الداعى، ويَنْفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغُ الناسَ من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون. فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام، فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحًا فيقولون يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربى عز وجل قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومى، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى قد كنت كذبت ثلاث كذبات ـ فذكرهن أبو حيان فى الحديث[1] ـ نفسى نفسى نفسى،

(١) أبو حيان التيمى أحد رجال الإسناد، وقد ذكر الكذبات فى روايته والتى هى قول إبراهيم لقومه: ﴿إنى سقيم﴾ وقوله حينما حطم أصنامهم ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ وقوله فى شأن سارة زوجته: إنها أختى. راجع صحيح البخارى حديث رقم ٣٣٥٨ جـ ٦ ص ٣٣٨ فتح البارى.

اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى قد قتلت نفسًا لم أومر بقتلها، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وكلمت الناس فى المهد صبيًا، اشفع لنا، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله ـ ولم يذكر ذنبًا ـ نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتون محمدًا ﷺ فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق، فآتى تحت العرش، فأقع ساجدًا لربى عز وجل، ثم يفتح الله علىّ من محامده، وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلى. ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تُشَفّع، فأرفع رأسى فأقول: أمتى يا رب، أمتى يا رب، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذى نفسى بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير، أو كما بين مكة وبُصْرى»[(١)].

هكذا نص الحديث فى البخارى، وفيه كما نرى تواضع الأنبياء فى هذا الموقف، وفيه تحقيق وعد الله سبحانه وتعالى لرسوله محمد ﷺ، وأنه سبحانه سيقبل شفاعته ﷺ، وهو ﷺ سيسجد لربه فى هذا الموقف العظيم، وسيسبحه بتسبيحات يعلمه الله إياها فى هذا الموقف، إنه ﷺ يُلِحُّ على ربنا الكريم فى الرجاء والدعاء، وهو الرسول الذى قال الله له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[(٢)] إنه الرحمة المهداة لكل خلق الله، ووعده الله بالشفاعة، فيشفع، ويقبل ربنا الكريم

(١) أخرجه البخارى فى التفسير باب ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدًا شكورًا﴾ ٨/ ٣٩٥ رقم ٤٧١٢.

(٢) من الآيات الأخيرة من سورة الأنبياء.

شفاعته، وهو سبحانه القائل فى وصف ذاته جل جلاله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[١] وهو القائل أيضًا: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٢].

إن رسولاً اصطفاه الله، ووعده بالشفاعة، يشفع للبشرية التى أرسل رحمة لها، يشفع أمام ربنا الرحمن الرحيم، فلا غرابة، ولا اعتراض، وإنما يسلم العقل بذلك ويرضى.

إلا أن هذا الكلام لا يروق منكرى السنة، فراحوا يعترضون على هذا الحديث بجملة اعتراضات:

اعتراضهم الأول:

قالوا: كيف تكون شفاعة وخروج من النار، والله يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[٣].

وأقول: اقرؤوا الآية التى قبل ذلك وهى قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٤].

إن الآية التى تستدلون بها على عدم الخروج من النار وبالتالى لا شفاعة إنما هى آية فى الكافرين، كما صرحت الآية السابقة عليها، وبالتالى فهذا فى الكافرين، والشفاعة والخروج من النار إنما هى لأهل لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ، فهم الذين يشفع لهم رسول الله ﷺ، ويخرجون من النار.

وقد جاءت آيات كثيرة تثبت الشفاعة، منها آية الكرسى، إحدى آيات سورة البقرة: ﴿اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٦.
(٣) سورة المائدة الآية ٣٧.
(٤) سورة المائدة الآية ٣٦.

الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[١].

فقوله سبحانه: ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾ تفيد إثبات الشفاعة، وأنها حق، وأنها بإذن الله سبحانه وتعالى، وهذا نص الحديث الذى سيق، فإنه ﷺ يسجد لله، ويسبحه سبحانه، فيقول الله له: «يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع» فيتفق الحديث مع الآية تمام الاتفاق، فالآية تفيد أن الشفاعة بإذن الله، والحديث يفيد أن رسول الله يسجد حتى يأذن له الله. فلا وجه للاعتراض مطلقًا[٢].

والحديث صحيح فلا وجه للاعتراض به على أبى هريرة راويه، ولا على البخارى الذى صححه وأخرجه فى صحيحه، ولا اعتراض عليه أى الحديث فى موضوعه، فالشفاعة ثابتة بالكتاب والسنة. إلا أنهم راحوا يثرثرون كثيرًا فى هذا الموضوع، فيقولون: الشفاعة نوع من المشاركة فى ملكه، ونوع نفوذ للشافع فى ملك الله!!

سبحان الله! إن الحديث صريح فى أن رسول الله ﷺ يسجد لله، ويسبحه بتسبيحات عظيمة، فأى مشاركة لله، وأى نفوذ للشافع فى ملك الله؟ إنها العبودية فى أكمل معانيها، يجود الله على صاحبها بنوع من التكريم فيقبل شفاعته.

صحابى يرد عليهم!

ومن الطريف أن هذا الاعتراض قد وجه إلى صحابى جليل فأجاب عليه!

فعن عمرو بن دينار قال سمعت جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُخْرِجِ الله قومًا من النار فيُدْخِلُهم الجنة» فقال له رجل: إن الله يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ فقال جابر بن عبد الله: إنكم تجعلون الخاصَّ عامًا، هذه للكفار، اقرؤوا ما قبلها، ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(٢) وقد وفيت هذا الأمر حقه فى الرد على منكر الشفاعة.

أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ هذه للكفار[1].

سبحان الله! هذا الاستشكال وارد من أيام الصحابة، أورده تابعى على الصحابى فأجاب الصحابى بما نجيب به نحن الآن.

إننى حرصت على ذكر هذا الحديث لأنه عن غير أبى هريرة، فهو عن جابر، ولم يخرجه البخارى وإنما أخرجه ابن حبان فى صحيحه، واعترض التابعى فأجاب الصحابى بما هو قاعدة: إنكم تجعلون الخاص عامًا. أى إن الآية فى الكفار فكيف تعممونها، وتجعلونها فى الكفار والمسلمين، إن الآية السابقة عليها نص فى أنها فى الكفار، ولا علاقة لمعنى الآية فى المسلمين.

* * *

اعتراضهم الثانى:

يقولون: كيف يكون هذا الحديث صحيحًا، وفيه إن إبراهيم عليه السلام يقول إنه كذب ثلاث كذبات، ويكثرون الكلام فى هذا، كقولهم: أيكذب نبى؟! إننا نكذب البخارى، أو من روى عنهم البخارى، أهون من أن نكذب نبيًا ويثرثرون كثيرًا فى هذا.

وأجيب بإيجاز أولاً: إن إبراهيم لم يكذب!! وإنما فعل ما يشبه الكذب، وموقف القيامة رهيب، فخاف ما يشبه الكذب، وسماه كذبًا.

وأجيب بالتفصيل فأقول:

أولاً: ما فعله إبراهيم ليس كذبًا محضًا!! فالمتحقق لا يجد هذه الكذبات كذبات فى حقيقة الأمر، وإنما هى كذبات فقط فى الظاهر، فهى من المعاريض، فاللفظ يحتمل أمرين، أراد الخليل البعيد منهما، فحينما قال لهم: إنى سقيم. ليس هذا كذبًا محضًا، وإنما اللفظ يحتمل: أنه سقيم أى مريض، مرض عضوى.

ويحتمل: أنه سقيم أى مريض، مرض نفسى من عقيدتهم وأفعالهم الضالة.

---

(١) أخرجه ابن حبان فى مناقب الصحابة ـ باب صفة النار وأهلها ١٦/ ٥٢٦ رقم ٧٤٨٣ والآيتان من سورة المائدة ٣٦، ٣٧.

ولما كان اللفظ يحتمل المعنيين لم يكن قصد أحدهما كذبًا محضًا.

وهكذا فى قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ أى إن كبيرهم هذا هو السبب، فما فعلت الذى فعلتُ إلا لتعظيمكم إياه، فهو السبب.

وأيضًا فى قوله عن سارة إنها أخته، أى أخته فى الدين.

وعليه فكلامه ليس كذبًا محضًا، وإنما هو من المعاريض، التى هى إطلاق اللفظ الذى يحتمل أكثر من معنى، وإرادة المعنى البعيد، وهذا ليس كذبًا، وإنما يشبه الكذب.

ثانيًا: ليس كل الكذب مذمومًا، وإنما منه المذموم، ومنه المحمود، بل منه ما يجب!! فلو أن إنسانًا ضعيفًا اختبأ عندى من ظالم يريد قتله، فسألنى الظالم عن هذا الضعيف، فقلت: إنه ليس عندى، فهذا كذب لأنى أخبر بغير الحقيقة، لكنه ليس كذبًا مذمومًا وإنما هو كذب محمود، بل واجب! حماية للضعيف من القتل.

وكذلك لو أَسَرت دولة جنديًا من جيش دولة أخرى، فسألوه عن أسرار جيشه، أيخبرهم بالحقيقة حتى لا يكون كاذبًا؟ لا، إنما يجب عليه أن لا يخبرهم بالحقيقة، سترًا على أسرار جيشه، أى أنه يجب عليه أن يكذب. ولو صدق وأخبر بأسرار جيشه لاعتبرته دولته قد ارتكب الخيانة العظمى.

ولو وجب الصدق فى كل الأحوال لانكشفت أسرار الدول، والجيوش، والبيوت، وهذا أمر لا يقول به شرع ولا عقل.

فإذا كان الكذب يُحمد عند المصلحة، فالمعاريض من باب أولى. لأنها ليست كذبًا محضًا. وعليه فما فعله إبراهيم ليس مذمومًا.

ثالثًا: لقد بين الحديث الثلاث كذبات، فهل انفردت السنة بهذا؟ لا، بل أثبت القرآن الكريم أمرين منهما، ومن العجيب أن الحديث ذكر الأمرين بطريق الاقتباس من القرآن الكريم. فما سر اعتراضكم؟ أهو الحرص على تضييع السنة أم ماذا؟

لقد حددت الروايات الأشياء التى سيعتذر بها إبراهيم الخليل عليه السلام، وأنه نقم على الأصنام التى يعبدها قومه، فنوى على تحطيمها، وجاءته الفرصة حينما عزم قومه على الذهاب إلى خارج المدينة احتفالاً بعيدهم يلعبون ويلهون،

وعرضوا على إبراهيم أن يخرج معهم، فاعتذر إبراهيم عن الخروج بأنه مريض، ولم يكن مريضًا فعلاً، وإنما جعلته أفعالهم وبخاصة عبادة الأصنام كالمريض، فاعتذر بهذا، وخرج قومه إلى عيدهم، وراح عليه السلام فحطم الأصنام، وترك أكبر صنم، فوضع القدوم ـ الآلة التى كسّر بها الأصنام ـ فى يده، وجاء الناس فوجدوا أصنامهم قد تكسرت فتساءلوا، وذهبوا إلى إبراهيم عليه السلام، وسألوه فأفادهم أن كبيرهم هو الذى كسرهم، ولقد سجل القرآن هذين الأمرين:

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [1].

فأفادت هذه الآيات أنه عليه السلام اعتذر عن الخروج بأنه سقيم، كى يأخذ الفرصة لتحطيم أصنامهم، ولم يكن مريضًا فعلاً.

ويقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [2].

---

(١) سورة الصافات الآية ٨٣ ـ ٩٣.

(٢) سورة الأنبياء الآية ٥١ ـ ٦٣.

تفيد هذه الآيات أن إبراهيم عليه السلام حطم الأصنام، وقال لقومه حينما سألوه: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ إن هذا فى ظاهر الأمر ليس إخباراً بالحق، وإنما إخبار بعكس الحقيقة.

وهكذا تفيد الآيات الأولى أن إبراهيم عليه السلام قد استعمل المعاريض فى قوله: ﴿إنى سقيم﴾ وتفيد الآيات التالية أيضًا أنه قد استعمل أسلوب التعريض فى قوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ وهكذا تتفق الآيات القرآنية مع الحديث فى نقطتين من نقاطه الثلاث، بل إن الحديث يذكر عذر إبراهيم، وأنه كذب فى نصرة دين الله تعالى، لقد أراد أن يصل بقومه إلى توحيد الله، فاعتذر عن الخروج معهم لأنه غير راض عن فعلهم، وحطم الأصنام، وادعى أن صنمهم الأكبر هو الذى كسّر صغار أصنامهم، ليعترفوا بأن الأصنام لا تتحرك، ولا تُكَسِّر، فيصل بذلك إلى مراده من توحيدهم الله تبارك وتعالى.

بل إن المتأمل يجد أن الحديث يدفع عن إبراهيم قضية أخرى، وهى أن البعض يتحدث فى قول الله عنه عليه السلام حينما رأى الشمس فقال: ﴿هذا ربى﴾ إن الحديث يوجه إلى أن هذه ليست من الكذبات أو المعاريض، وإنما هى تهكم بعباد الكواكب، فقال لهم تهكمًا وسخرية: هذا ربى! أى أيصلح القمر أو الشمس أن تكون ربى!!

وهكذا يتفق الحديث مع الآيات القرآنية، فيكون فى أعلى درجات الصحة والثبوت والقبول.

إن الأمور التى ذكر الحديث أن إبراهيم عليه السلام سيعتذر بها، وسماها كذبات، قد ذكر ربنا تبارك وتعالى اثنين منها فى كتابه العزيز، وهذا يقوى الحديث ويرفعه درجته.

لقد ذكر الحديث أن إبراهيم سيعتذر عن موقف الشفاعة لأنه قال: ﴿إنى سقيم﴾ وقد أثبت القرآن ذلك.

وأثبت الحديث أن إبراهيم سيعتذر عن طلب الشفاعة لأنه قال: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ وقد أثبت القرآن ذلك.

وهذان كافيان تمامًا لتقوية الحديث، ورفع درجته فى دائرة الثبوت والرسوخ.

كنت أتمنى من المعترضين على السنة بهذا الحديث أن يذكروا أن الثلاثة أمور التى ذكر الحديث أن إبراهيم سيعتذر بها، قد جاء اثنان منها فى القرآن الكريم، فإنهم لو ذكروا ذلك لما بقيت شبهتهم.

وسؤال يطرح نفسه: كيف يكذب نبىٌّ؟

والجواب: إن الخليل عليه السلام لم يكذب، وإنما عَرّض، وعرّض فى طاعة الله تعالى، وهذا ليس من المذموم، وإنما من المباح، بل من المستحب. إنه يريد أن يثبت لقومه بطلان عبادة الأصنام، فاعتذر بأنه سقيم كى يبقى مع الأصنام يُكَسِّرها، ثم يخبرهم أن صنمهم الأكبر هو الذى كسر الصغار، فإذا اعترفوا بأن صنمهم الأكبر لا يقدر على ما يقدر عليه الإنسان فقد أقروا بضلالهم فى عبادته، وأقروا بصدق إبراهيم عليه السلام ودعوته.

قد يقال: إذا لم تكن هذه كذبات، فكيف يعتذر بها الخليل عليه السلام؟

والجواب: أن موقف القيامة عصيب، وكل الخليقة فى خوف شديد، فالملائكة الذين لا يعصون الله يرددون: «يا رب سلم سلم» والأنبياء خائفون، ويذكرون ما كان منهم، والكل أمام الله عبد. إنه موقف يخاف المرء منه الهفوة، وهؤلاء رسل الله، الذين هم على الحق، وهم أهل الصدق، وهم على العبودية الكاملة، ومن هنا فإن إبراهيم يخاف، ومن هول الموقف، ومن تعظيمه الله، ومن إقراره بالعبودية خاف هذه الأشياء التى كانت منه، وسماها بأقسى ما يمكن، تهويلاً، وخوفًا. ومحمد رسول الله ﷺ يخبر بهذا، والله هو الذى أعلمه.

* * *

اعتراضهم الثالث:

يقولون: فى نص الحديث فى البخارى أن عيسى لم يذكر ذنبًا، فلماذا لا يشفع؟

وأقول: نعم لم تذكر الرواية التى معنا عذرًا، أو ذنبًا لعيسى عليه السلام، لكن جاءت الروايات الأخرى فبينت أنه سيعتذر بـ «إنى عُبدت من دون الله»[1] وفى

(١) أخرجه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى.

حديث آخر «إنى اتُّخِذُت إلهًا من دون الله»[١] وهذا الذنب يُخيف فى مواقف القيامة. وهو من حيث الثبوت ثابت، فقد ذُكر فى القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [٢].

إن هذه النصوص ـ الآية والحديثين ـ تبين أن عيسى عليه السلام شأن السابقين من الأنبياء عنده أشياء يخافها، وبذا يعتذر، نعم هى أشياء تبدو فى تقديرنا دقيقة، لكنها فى حساب الأنبياء، وفى موقف القيامة غير دقيقة، وإنما يُخْشى منها.

ولذا جاءت الروايات مبينة وجهًا من أوجه نوال رسول الله محمد ﷺ هذه الخاصية أعنى الشفاعة العظمى، ففى حديث أنس يقول عيسى عليه السلام: «لست هناكم، ولكن ائتوا محمدًا ﷺ، فقد غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[٣] وفى حديث أبى هريرة أن البشرية حينما تأتى رسول الله ﷺ يقولون له: «أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر»[٤].

إن كون عيسى عليه السلام لم يُذكر له عذر فى حديث الشفاعة من إحدى طرقه ليس معناه أنه لا عذر له، فعذره ثابت بالقرآن الكريم، وبالأحاديث الأخرى.

وليس معنى أن عيسى عليه السلام سيعتذر عن الشفاعة العظمى أنه لن يشفع، لا، وإنما سيشفع شفاعة دون ذلك. أما الشفاعة العظمى، فإنما هى خصوصية لرسول الله محمد ﷺ.

وأقول أيضًا: إن الشفاعة العظمى التى ستكون للبشرية كلها، إنما هى خصوصية، اختص الله تبارك وتعالى بها رسوله محمدًا ﷺ، وبشّره بها فى الدنيا فى وحى متلو.

---

(١) أخرجه أحمد والنسائى عن ابن عباس.

(٢) سورة المائدة الآية ١١٦.

(٣) حديث أنس فى الشفاعة أخرجه البخارى ١١/٤١٧ رقم ٦٥٦٥ ومسلم ١/ ١٨٠ رقم ٣٢٢.

(٤) حديث أبى هريرة فى الشفاعة أخرجه مسلم ١/ ١٨٥ رقم ٣٢٧.

* قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [١].

لقد سئل ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ فقال: هى الشفاعة[٢].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [٣].

والمعنى: أنت مغفور لك، وغير مؤاخذ لو وقع منك شىء، خصوصية لك، ومنَّة من الله الكريم عليك.

إن هذه النعمة من الله تعالى على رسول الله محمد ﷺ والتى هى المغفرة له على فرض وقوع شىء منه، هذه النعمة هى التى تبين الأحاديث نصيبها العظيم فى هذه الشفاعة، التى اختص بها ﷺ:

ففى حديث ابن عباس يقول عيسى عليه السلام: إن محمداً ﷺ خاتم النبيين وقد حضر اليوم، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر...»[٤].

وفى حديث أنس يقول عيسى عليه السلام: ولكن ائتوا محمداً ﷺ فإنه خاتم النبيين، فإنه قد حضر اليوم وقد غفر له ما تقدم وما تأخر»[٥].

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٨، ٧٩.

(٢) أخرجه الترمذى فى تفسير هذه الآية، وقال إنه حسن، راجع تحفة الأحوذى ٨/ ٥٧٢. وأخرجه ابن أبى عاصم فى السنة ٢/ ٣٦٤ رقم ٧٨٤.

(٣) أول سورة الفتح.

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٢٨١، ٢٩٥. وأخرجه أبو داود الطيالسى ٢/ ٢٢٦ «منحة المعبود وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ١/ ٣٧٣ رواه أبو يعلى وأحمد وفيه على بن زيد، وقد وثق على ضعفه، وبقية رجالهما رجال الصحيح. كذا خرجه صاحبه كتاب الشفاعة ص٢٧ ـ ٢٩.

(٥) أخرجه ابن خزيمة ص٢٥٣، ٣٠٠ وهو فى كتاب الشفاعة ص٥٤.

فى موقف القيامة كل الخليقة تخاف أعمالها إلا محمدًا ﷺ، ومع ذلك فهو الذى وعده الله الشفاعة للبشرية كلها.

* وقال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [(١)] كثير من الأئمة فسر هذه الآية بالشفاعة، وقال ابن عباس: لا يرضى محمد وأحد من أمته فى النار، وفسرها آل البيت عمومًا بالشفاعة، ويرونها أرجى الآيات[(٢)].

وهكذا يتضح أن عيسى عليه السلام شأنه شأن الأنبياء يخشى الله فى هذا اليوم الخطير، أما محمد ﷺ فيتقدم للشفاعة، لما مَنّ الله به عليه من نِعَمٍ تُؤَهِّلُه لذلك.

وبهذا لا تبقى لهم شبهة على هذا الحديث، شأن كل شبهاتهم لا تبقى عند أدنى درجات التأمل.

نعم، لا تبقى لهم شبهة على أبى هريرة وروايته، ولا على البخارى فى تصحيحه الأحاديث النبوية.

وأيضًا لا تبقى لهم شبهة على هذا الحديث العظيم، الذى يكتسب عظمته من عدة أوجه، منها:

١ ـ إنه حديث يتفق مع القرآن الكريم فى كل جزئياته، ومن هنا فإن القرآن الكريم يقويه ويعضده، فاعتذار الأنبياء جميعًا تضمنته آيات من القرآن الكريم، وشفاعة الرسول ﷺ قد تضمنتها آيات. ومطلق الشفاعة قد أثبتتها آيات وآيات. وهذا يجعل الحديث فى أعلى درجات القوة والصحة والثبوت.

٢ ـ إنه حديث أخرجه البخارى وكثير من أئمة الحديث، ورُوِى عن أبى هريرة وغيره من الصحابة، وكثرت طرقه وتعددت مخارجه[(٣)]، حتى وصل إلى درجة التواتر الذى يُعَوِّل عليه كثير من أعداء السنة، ومثل هذا يعلى درجة ثبوت اللفظ النبوى، وأن رسول الله ﷺ قاله.

---

(١) من سورة الضحى.

(٢) راجع الدر المنثور ٦/ ٣٦١.

(٣) راجع كتاب «الشفاعة» للشيخ/ مقبل بن هادى الوادعى. وراجع نظم المتناثر من الحديث المتواتر للحافظ الكتانى.

٣ ـ أفاد الحديث الكثير من أمور الآخرة، فالمُرْسَلون يخافون الهفوات، ودقائق المخالفات لهول الموقف وما فيه، مما يجعل المسلم يجتهد فى الاستقامة.

وفى نفس الوقت يُثبت الحديثُ الشفاعة، هذا الباب التى يفتح الأمل أمام من ارتكب سيئة، فلا يُيَئِسهُ من رحمة الله، لكنها الشفاعة التى قد تكون بعد عذاب، والنار لا تُحتْمل لحظة، فلا يمكن لعاقل أن يتكل أو يعتمد على الشفاعة، وإنما هى باب أمل لمن زل، وبريق أمل لمن جهل.

إن الشفاعة مع المغفرة باب يقوى عزائم العصاة على التوبة، فالله الكريم يؤملهم فى مغفرته، وفى إذنه بشفاعة الشافعين من صالح خلقه. والحمد لله رب العالمين.

* * *

٣ ـ نقدهم شخصيته:

كانت شخصية أبى هريرة من السمو بمكان، يتضح ذلك من النقاط الآتية:

* فهو رجل آثر العلم بدين الله على كل مغريات الحياة.
* وطلب العلم بمنهج سوى، وتقدم فيه كل التقدم.
* شهد له بالتقدم العلمى رسول الله ﷺ، وكفاه ذلك شرفًا وفخرًا.
* وشهد له أقرانه من الصحابة، واعترفوا له بالتقدم عليهم فى العلم.
* كانت مناقبه العلمية فى الحفظ والفهم، وفى العمل والتبليغ.

وهذه النقاط الخمس قد تناولتها بالتفصيل فيما سبق، فقد ركزت فى دراستى السابقة على الجانب العلمى من حياة هذا الصحابى الجليل. لكنه يتضح من هذه النقاط أنه كان حازمًا فلما كان العلم هدفه أعطاه وقته وكل ما يملك وتقدم فيه كل التقدم وكان أيضًا حكيمًا اختار العلم وفَضّله. والإسلام يُعلى قدر العلم والعلماء.

والمتتبع لحياة أبى هريرة يجد أنه كان رجلاً ماهرًا بأمور الحياة، خبيرًا بمجريات زمانه، هذا مع الدين والورع، وإنى أورد فى ذلك قصة من حياة أبى هريرة تبين ذلك:

ففى خلافة عمر بن الخطاب عيّن عمر أبا هريرة حاكمًا لمنطقة «البحرين» وسار أبو هريرة إلى البحرين أميرًا لها، وظل فترة ثم عاد إلى المدينة، واستقبله عمر، وكان عمر يحاسب حكام المناطق، فنظر كم مع أبى هريرة، فوجد معه مبلغًا كبيرًا، فقال له: من أين لك هذا؟

فقال له أبو هريرة: عندى خيل تكاثرت، وعندى عبيدى آخذ منهم مبالغ معينة كل شهر، وآخذ عطائى «مرتبى». من هذه المصادر الثلاث كان هذا المال الذى معى.

ولم يسكت عمر، وإنما فتحا الحساب معًا تفصيلاً، فأورد له أبو هريرة الحساب، فاعترف عمر بحقية أبى هريرة لهذا المال، وأنه قد حصل عليه من طرق مشروعة.

وأراد عمر أن يعود أبو هريرة حاكمًا للبحرين ثانية، إلا أن أبا هريرة رفض ذلك، مفضلاً أن يقيم فى المدينة يُعَلِّم ويفيد[1].

وواضح من هذه القصة أن أبا هريرة كان شخصية سامية، يختاره عمر ليحكم ولاية إسلامية، فيسير فيها سيرة زكية، ويقودها بكل كفاءة وحزم.

لا يعاب عليه فى خلق، ولا كفاءة.

وهو فى نفس الوقت ذو قدرة على إدارة أموره الشخصية، يستثمر أمواله، وبعد عام يعرف كل دينار من أين جاءه!

لكنه لا يغريه المال، فعلى الرغم من كثرة ماله فى هذه الفترة، إلا أن هذا لم يغره ليظل حاكمًا، وإنما آثر أن يظل فى مدينة رسول الله ﷺ معلمًا ومربيًا.

هذه إطلالة سريعة على شخصية أبى هريرة أردت بها أن أدفع زيف أعداء السنة فى ادعائهم عليه عيوبًا فى شخصيته.

وإن القارئ لانتقاداتهم هذا الصحابى الجليل يجد أنها انتقادات يعافها الذوق السليم، ويرفضها الفكر المتزن.

---

(١) راجع الإصابة ٧/ ٤٤٢، والحلية ١/ ٣٨٠ وعلم الجرح والتعديل ص١٥٧.

*** يعيب أحدهم أبا هريرة بأنه كان يصرع من الجوع زمن النبى ﷺ!**

وأتساءل: أى عيب فى هذا؟ إنسان تفرغ لطلب العلم حتى كان يصرع من الجوع فهل هذا عيب؟ بدهى إنه مزية له، تذكر فى مناقبه.

*** ويعيبه أحدهم بأنه كان فقيرًا!!**

سبحان الله، وهل الفقر عيب؟

١ ـ إنه الصحابى الذى كان يستطيع جمع المال، كما سبق أن ذكرت فى قصة توليه البحرين، لكنه آثر طلب العلم، وتفرغ لذلك.

٢ ـ الفقر ليس مذمومًا شرعًا، بل جاءت الآيات والأحاديث تنعى على الذين يحبون المال ويجمعونه، يشغلهم عن ذكر الله، ويلهيهم عن تعلم أمور دينهم.

يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[١].

٣ ـ إن مقياس الناس فى الإسلام ليس بكثرة المال، وإنما كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢].

*** ويعيب بعضهم أبا هريرة بأنه كان يصلى خلف على، ويأكل مع معاوية!!**

ويعجب العاقل من هذا الكذب، وهذا الافتراء، فأبو هريرة كان فى المدينة، وعلى كان فى العراق، ومعاوية كان فى الشام، فكيف كان أبو هريرة يصلى خلف على، ويأكل مع معاوية؟ إنه كذب واضح مع أدنى تأمل.

إن كذبهم يجعل القارئ لا يثق فى أقوالهم، ولا ينتبه لفكرهم، ولا يعيرهم أدنى قبول.

*** وينتقدون أبا هريرة بأنه كيف حفظ هذا الكم من الأحاديث فى ١٦ شهراً؟**

والجواب: القول بأن أبا هريرة حفظ هذه فى ١٦ شهراً هذا قول باطل، فأبو هريرة نعرف بالتحديد أنه حظى بصحبة رسول الله ﷺ مدة تزيد على أربع

(١) سورة المنافقون الآية ٩.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣.

سنوات، فلقد قدم إلى رسول الله ﷺ فى شهر المحرم سنة سبع من الهجرة، وصحب رسول الله ﷺ إلى أن توفى فى ربيع الأول من السنة الحادية عشرة، فكيف يقال إنه صحب رسول الله ﷺ ١٦ شهراً؟

إن هذه مغالطات يفتريها منكرو السنة، يرون أنها تروج على من لم يدرس حياة الصحابة، وعلوم السنة.

أما القول بأنه: كيف حفظ هذه الأحاديث الكثيرة؟

فالجواب: إنه لم يحفظ أحاديث تفوق قدرة الإنسان العادى، والأحاديث التى يرويها كل صحابى وكل راو معلومة معدودة، والأحاديث التى يرويها أبو هريرة عددها (٥٤٧٣) حديث، فإذا راعينا أن أحاديث رسول الله ﷺ فى معظمها قليلة الكلمات، بعضها فى كلمة، وبعضها فى سطر، وبعضها فى سطرين. وراعينا أيضًا أن أبا هريرة كان يحفظ كلمات رسول الله ﷺ فقط، وليس عنده إسناد، فلان عن فلان عن فلان. إذا راعينا هذين الأمرين فإن هذا العدد يكتب فى صفحات تعادل صفحات القرآن الكريم، ومن أهل زماننا من حفظوا القرآن فى عام، ومنهم من حفظه فى عام ونصف، وعليه فلا يستغرب من حفظ أبى هريرة هذا القدر فى أربع سنوات، ولقد سبق أن ذكرت:

* ما كان من تفرغه لطلب العلم.
* وما كان من حرصه على العلم.
* وحظوته بدعاء رسول الله ﷺ له بعلم لا ينسى.

إن حفظ هذا القدر لا يستغرب فى زماننا الملىء بالصخب والضجيج، فما بالك بزمان النبوة حيث الهدوء، وبساطة وسائل الحياة.

إن حفظ هذا القدر لا يستغرب فى زماننا الملىء بالمعاصى، فما بالك بزمان النبوة وحال الأصحاب حيث الهدى والتقى.

إن حفظ أبى هريرة لا إشكال فيه، وإنما أعداء السنة يغالطون فيقللون من فترة صحبته، ويخيلون للقارئ كثرة مروياته، وليس الأمر هكذا فى المسألتين.

* رحم الله أبا هريرة والآل والصحب والسلف والخلف، ووقى الله الأمة كل شر ومكروه.

شبهاتهم على صحابة آخرين

منكرو السنة قديمًا وحديثًا يكثرون الشبهات على أبى هريرة لكثرة مروياته، يظنون أنهم لو حطموه حُطِّمت السنة، ومن هنا أطلت الكلام فى التعريف به، ودفع الشبهات عنه، وأذكر بعض شبههم على عدد آخر من الصحابة:

شبههم على عبد الله بن عباس

يعترض منكرو السنة على عبد الله بن عباس، ويقولون مات رسول الله ﷺ وابن عباس صغير، فمن أين له هذه الأحاديث الكثيرة التى يرويها؟

وأجيب إجمالاً فأقول:

عبد الله بن عباس ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، وتوفى رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، روى عن رسول الله ﷺ (١٦٦٠) حديثًا تعادل ستين صفحة، فأى غرابة فى هذا؟

إن بعض الصبيان يحفظون القرآن الكريم وهم أبناء سبع سنين، فأى غرابة أن يحفظ عبد الله بن عباس القرآن الكريم وقرابة مائة صفحة من السنة النبوية، وهو ابن ثلاث عشرة سنة؟!!

هل هذا شىء يستغرب؟ بدهى: لا.

وهل هذه شبهة يذكرها منصف؟ بدهى: لا.

إن من يراقب مسابقات حفظ القرآن الكريم يجد فيها أبناء ست سنين، وأبناء سبع سنين، وهذا فى زماننا وقد كثرت الصوارف والملاهى فكيف يستغرب أن يحفظ ابن العباس عم رسول الله ﷺ القرآن الكريم، وعددًا من الأحاديث النبوية [١٦٦٠] والأحاديث فى مجموعها قليلة الكلمات، فلقد أعطى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ جوامع الكلم، يعبر ﷺ عن المعانى الكثيرة بالكلمات القليلة. كيف يستغرب هذا؟

إن السن الدراسى حسبما تفيده الدراسات المتخصصة أن الصبى يبدأ فى التعليم

حينما يبلغ ست سنوات، وعليه فلقد عاش ابن عباس مع رسول الله ﷺ بعد هذا السن سبع سنوات، يحفظ ويستوعب، والحفظ فى الصغر كالنقش على الحجر.

وأجيب تفصيلاً فأقول:

إن حفظ ابن عباس لألف حديث، وستمائة وستين أمر لا يستغرب، أما كثرة علمه وفتاويه، وما روى عنه من علوم متنوعة فهذا هو الذى يحتاج لمعرفة شىء عن حياة ابن عباس العلمية.

لقد توافر فى ابن عباس صفات وظروف لا تستغرب كثرة علمه معها، من هذه الصفات والظروف:

١ ـ ذكاؤه: يتحدث عن نفسه فيقول: كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ـ أى كبار الصحابة الذين حضروا غزوة بدر.

فقال بعضهم: لِمَ تُدْخِل هذا الفتى معنا، ولنا أبناء مثله؟

فقال: إنه ممن قد علمتم ـ أى له تميز علمى معروف به ـ فدعاهم ذات يوم ودعانى معهم، قال: وما رأيته دعانى يومئذ إلا ليريهم منى، فقال: ما تقولون فى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ حتى ختم السورة؟

فقال بعضهم: أُمِرْنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندرى، أو لم يقل بعضهم شيئًا. فقال لى: يا ابن عباس، أكذاك تقول؟

قلت: لا.

قال: فما تقول؟

قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾: فتح مكة، فذاك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾

قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[١].

---

(١) أخرجه البخارى جـ٨ ص٢٠ رقم ٤٢٩٤ وص٧٣٤ رقم ٤٩٦٩، ٤٩٧٠.

هذا موقف يصور شيئًا من ذكاء عبد الله بن عباس، لقد كان صاحب قدر علمى معروف لدى عمر، حتى أدخله مع كبار الصحابة من أهل بدر، ولدى كبار الصحابة حتى قال عمر لهم: إنه ممن قد علمتم ـ أى إنه صاحب اللسان السئول، والقلب العقول ـ ولقد أراد عمر أن يثبت لهم تقدم ابن عباس بأمر علمى، فطرح هذا السؤال الذى أبان عن ذكاء ابن عباس، وعميق فهمه وقوة استنباطه.

٢ ـ حظوته بدعاء رسول الله ﷺ له: فلقد دعا له رسول الله ﷺ:

* قائلاً: «اللهم علمه الكتاب»[١] والمراد بالكتاب القرآن الكريم، دعا ﷺ له بتعلم القرآن، وهذا أعم من حفظه وفهمه، والمراد أن يكون عالمًا بأسرار القرآن ومراميه، بحيث يعمل به على خير وجه، ويبينه للناس خير بيان.

* ودعا له ﷺ أيضًا قائلاً: «اللهم علمه الحكمة»[٢] والمراد: اللهم علمه الصواب فى القول، والسداد فى الرأى.

* ودعا له ﷺ أيضًا قائلاً: «اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل»[٣].

لقد دعا ﷺ له بهذه الدعوات، ورسول الله ﷺ مستجاب الدعوة، رأى فى ابن عباس النجابة العلمية، فدعا له، فتحقق لابن عباس كل ما فيها، حتى قال أبو وائل ـ قرأ ابن عباس سورة النور ثم جعل يفسرها، فقال رجل: لو سمعت هذا الديلم ـ لأسلمت[٤].

٣ ـ جِدُّه فى طلب العلم: فلقد بدأ عبد الله بن عباس حياته جادًا فى طلب العلم، مجتهدًا فى تحصيله:

روى عنه أنه قال: لما قُبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هَلُمَّ ـ تعال ـ فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم اليوم كثير.

---

(١) أخرجه البخارى ١/ ١٦٩ رقم ٧٥.

(٢) أخرجه البخارى ٧/ ١٠٠ رقم ٣٧٥٦.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢٦٦، ٣١٤. وأخرجه أبو طاهر الذهلى فى فوائده، كذا فى الإصابة ٤/ ١٤٣.

(٤) أخرجه يعقوب بن سفيان فى تاريخه بإسناد صحيح. كذا فى فتح البارى ٧/ ١٠٠ شرح حديث رقم ٣٧٥٦. وإن شاء الله تعالى سأذكر شهادات أخرى لابن عباس عند الكلام على مكانته العلمية.

فقال: واعجبًا لك، أترى الناس يفتقرون إليك؟!

قال: فتركت ذلك ـ قول الأنصارى ـ وأقبلت أسأل، فإن كان ليبلغنى الحديث عن رجل، فآتى بابه، وهو قائل ـ مستريح وقت القيلولة أى الظهيرة ـ فأتوسد ردائى على بابه ـ أجعل ردائى مخدة لى وأضطجع منتظرًا يقظته ـ تسفى الريح علىّ من التراب، فيخرج فيرانى، فيقول: يا ابن عم رسول الله، ما جاء بك، هلاّ أرسلت إلىّ فآتيك؟

فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك. فأسأله عن الحديث.

يقول ابن عباس: فعاش الرجل الأنصارى حتى رآنى وقد اجتمع الناس حولى ليسألونى، فقال: هذا الفتى كان أعقل منى[1].

هكذا كان ابن عباس فى جِدِّه منذ الصغر، إنه لما مات رسول الله ﷺ حرص كثيرًا على علم الصحابة، ولقد كان فى الثالثة عشرة من عمره، لقد جَدَّ ورافق هذا الجِدّ أدب عال، مما مكن له فى تحصيل العلم، إنه:

* يأتى الصحابى، ويذهب إليه فى بيته.

* وينتهز وقت نشاطه، ولا يقلقه، يأتى إلى بابه، وينتظر خروجه.

* يُشعر الصحابى بعظيم احترامه له، كما هو واضح فى قوله: أنا أحق أن آتيك.

* يعرف ما عند كل صحابى من حديث، ويعرف الصحابى الذى عنده ما لم يحفظ، اجتهد فى جمع حديث رسول الله ﷺ، ويجتهد فى معرفة ما عند كل صحابى من علم.

٤ ـ صلاحه: رزق الله ابن عباس صلاحًا وتقى، مع ما مَنّ سبحانه وتعالى به عليه من الذكاء، والجد، ودعاء رسول الله له، وكل ذلك جعله من أهل التفوق العلمى، الذين شرح الله صدورهم، وآتاهم الحكمة. لقد كان ابن عباس من العباد المجتهدين فى طاعة الله، وكان من الزهاد الورعين، وكان سريع البكاء،

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات ٢/ ٣٦٦. وذكره فى الإصابة ٤/ ١٤٤ وعزاه للدارمى والحارث فى مسنديهما واللفظ المذكور هنا من الإصابة.

كثير العَبْرة ـ الدموع ـ حتى كان لموضع الدمع أثر فى خديه.

٥ ـ طول ملازمته لرسول الله ﷺ: فلقد كان عبد الله بن عباس من أصحاب الحظوة بطول الملازمة لرسول الله ﷺ، وذلك:

* لأنه حريص على طلب العلم، فتفرغ لطول الملازمة.

* ولأنه ابن عم عزيز غال على رسول الله ﷺ، إنه ابن عم رسول الله العباس، والعباس عم غال عند رسول الله ﷺ، له قدره، ولأبنائه قدرهم عنده ﷺ.

* ولأن خالته إحدى زوجات رسول الله ﷺ، فمكّن له ذلك أن يعيش فى بيت رسول الله ﷺ أوقاتًا طويلة، ولربما كان يبيت عند خالته، مما أتاح له فرصة المشاهدة لأفعاله ﷺ، والسماع الكثير لأقواله ﷺ.

وتتضح نتيجة هذه الصفات وتلك الظروف من حديث الصحابة والتابعين عن ابن عباس(١):

* قال عبد الله بن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس(٢). والمعنى: نِعْم الفاهم للقرآن، الموضح لما فيه من علوم، المعبر عما فيه من أسرار.

* وقال عبد الله بن عمر: هو ـ عبد الله بن عباس ـ أعلم الناس بما أنزل الله على محمد(٣).

* ولما مات زيد بن ثابت قال أبو هريرة: مات حَبْر(٤) هذه الأمة، ولعل الله أن يجعل فى ابن عباس خلفًا(٥).

---

(١) تقدم شيء من ذلك، فعمر كان يدخله مع كبار الصحابة، وأبو وائل وضح أن ابن عباس فسر سورة النور، لو سمع تفسيره أهل الكفر أسلموا.

(٢) أخرجه يعقوب بن سفيان فى تاريخه بإسناد صحيح كذا فى الفتح ٧/ ١٠٠ شرح حديث ٣٧٥٦.

(٣) أخرجه أبو زرعة فى تاريخه، وأخرج ابن أبى خيثمة نحوه بإسناد حسن، كذا فى الفتح فى الموضع السابق.

(٤) الحَبْر: العالم الغزير العلم.

(٥) أخرجه ابن سعد بإسناد صحيح كذا فى الإصابة ٤/ ١٤٧.

* وعن طاوس قال: رأيت سبعين من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارءوا فى أمر صاروا إلى قول ابن عباس[١].

* وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: ما رأيت أحدًا أعلم من ابن عباس بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ، وبقضاء أبى بكر، وعمر، وعثمان رضى الله عنهم، ولا أفقه منه، ولا أعلم بتفسير القرآن، وبالعربية، والشعر، والحساب، والفرائض.

وكان يجلس يومًا للفقه، ويومًا للتأويل، ويومًا للمغازى، ويومًا للشعر، ويومًا لأيام العرب[٢]، وما رأيت عالمًا قط جلس إليه إلا خضع له، ولا سائلاً سأله إلا وجد عنده علمًا[٣].

* وعن عطاء قال: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس، أكثر فقهًا، وأعظم خشية، إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واسع[٤].

هذا هو ابن عباس فى صفاته: ذكاء، وجِدٌّ فى طلب العلم، مع الصلاح والتقى.

هذا هو ابن عباس فى ظروفه: حظى بدعوة رسول الله ﷺ له بالعلم، والفهم الثاقب. ونشأ قريبًا من رسول الله ﷺ، فهو ابن عم رسول الله ﷺ، وأم المؤمنين ميمونة خالته.

هذا هو ابن عباس فى شهادات أئمة الأمة من الصحابة والتابعين له، وأنه حوى علمًا كثيرًا، حتى صار أعلم أهل زمانه بدين الله تعالى.

وكَمُل كل ذلك بطول عمره: فعاش بعد رسول الله ﷺ كثيرًا، فلقد عَمَّر إلى سنة ثمان وستين، أى أنه عاش بعد رسول الله ﷺ أكثر من نصف قرن، وبالتحديد ثمانٍ وخمسين سنة، عاش طول هذه الفترة يَدْرس ويُدَرِّس، ويتفهم

(١) أخرجه ابن سعد كذا فى الإصابة ٤/ ١٤٨.
(٢) التاريخ.
(٣) تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١/ ٢٧٦.
(٤) أخرجه البغوى فى معجمه كذا فى الإصابة ٤/ ١٤٨.

ويتعلم، وينشر دعوة الله بين خلق الله.

ومثل هذا لا يستغرب أن يروى عن رسول الله ﷺ [١٦٦٠] حديثًا، يروى النص فقط، بمعنى أنه يحفظ قول رسول الله ﷺ أو فعله فقط، ولم يكن يحفظ سلسلة إسناد، والتى هى مجموعة الرجال التى بينه وبين رسول الله ﷺ، لم يكن يحفظ ذلك، فإنه قد سمع من رسول الله ﷺ مباشرة.

وأحاديث رسول الله ﷺ قليلة الكلمات، الحديث يأتى فى سطر أو سطرين فكل هذه الأحاديث [١٦٦٠] تقع فى مائة ورقة تقريبًا.

فلا غرابة فى ذلك، ولا يصح أن يثار على أنه مشكلة، أو شبهة، وإنما كان اللائق أن نسعد ونسعد بمثل هؤلاء الأئمة الأعلام.

إن كل أمة فيها أذكياؤها، الذين يَمُنُّ اللهُ بهم عليها لقيادتها فى ميادين المعرفة، واقع الحياة يثبت ذلك ويؤكده، ففى كل أمة مهرة فى كل علم، ومهرة فى كل صناعة، فلم يستكثر أعداء السنة وجود مهرة فى حفظ السنة من الصحابة، وأجيال الأمة؟!



جـ- شبهات حول الأئمة الكبار

ومن الأئمة الكبار الذين تركزت افتراءات أعداء السنة عليهم:

الإمام البخارى

صاحب «صحيح البخارى» الكتاب المشهور، الذى اعترف بفضله القاصى والدانى، وشهدت له الأمة بأنه «أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى».

إن أعداء الإسلام يركزون حملتهم على البخارى، ويحاولون تشويه كتابه، لما للبخارى من منزلة، ولما لكتابه من مكانة، فيحرصون على تحطيم كتابه، لأنه لو حُطِّم تحطمت كل كتب السنة، وتحطم الإسلام، ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ ولست بالحريص على إيراد كلامهم، وإنما سأُعرِّف بالإمام البخارى، وأعرف بكتابه بما لا يدع مجالاً لشبههم، ثم أرد أيضًا بمشيئة الله تعالى على بعض شبههم لبيان زيفها وكذبها.

* **البخارى:** محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، من بلاد بخارى من أوزبكستان. ولد الإمام محمد بن إسماعيل البخارى سنة أربع وتسعين ومائة (١٩٤) هـ ونشأ فى أسرة صالحة، فأبوه إسماعيل بن إبراهيم من العلماء، سمع من الإمام مالك إمام دار الهجرة، رأى حماد بن زيد، وصافح عبد الله بن المبارك، ومما يصور صلاح هذه الأسرة ما روى أن الإمام البخارى عَمِى فى صغره، فظلت أمه تدعو وتتضرع إلى الله أن يرد عليه بصره، حتى رأت فى منامها إبراهيم الخليل صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم يقول لها: قد رد الله على ابنك بصره، بكثرة دعائك، فأصبحت وقد رد الله عليه بصره[1].

وأيضًا ما روى أن والد البخارى وهو على فراش الموت قال: لا أعلم من مالى درهمًا من حرام، ولا درهمًا من شبهة.

هكذا يقول الرجل وهو على فراش الموت، حيث لا يكذب الإنسان، مما يدل

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٩٢، ٣٩٣ وفيه مصادره.

على طيب المطعم، والذى هو أساس قبول الأعمال.

نشأ الإمام البخارى فى هذه الأسرة الصالحة، وبدأ من صغره يطلب العلم، فحفظ القرآن الكريم، وبدأ فى حفظ الأحاديث ولم يصل سِنُّه العاشرة ولقد توافرت له عدة عوامل تقدمت به علميًا، أوضحها فيما يلى:

أسباب تقدمه العلمى

١ ـ بيئته العلمية:

فأبوه من العلماء، وأمه على قدر من العلم، لكنها فى العبادة أشهر، والبيئة المحيطة به كلها حرص على العلوم الشرعية، فإنه ولد فى القرن الثانى الهجرى الذى هو أحد القرون الثلاثة الفاضلة، التى قال فيها رسول الله ﷺ: «خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[(١)].

لقد طلب البخارى العلم، والناس يروون عن التابعين، فسمع من شيوخ يروون عن التابعين.

فمثلاً يروى عن شيخه محمد بن عبد الله الأنصارى الذى يروى عن حميد (التابعى) عن أنس بن مالك (الصحابى) عن رسول الله ﷺ[(٢)].

ويروى البخارى أيضًا عن مكى بن إبراهيم، عن زيد بن أبى عبيد (التابعى) عن سلمة بن الأكوع (الصحابى) عن رسول الله ﷺ.

إنه يعيش فى بيئة علمية رائعة، بينه وبين الصحابة شيخه، وشيخ شيخه، أما شيخه فقد جالسه وخبره، وأما شيخ شيخه فيعلم أخباره من شيخه، أما الصحابة فأخبارهم منشورة شائعة، وهم الذين عدَّلهم الله فى كتابه.

لقد نشأ البخارى والأمة مقبلة على دراسة دينها كل الإقبال، والعلم عندها فى أعلى درجات الاهتمام، والعلم الشرعى فوق كل شىء، ومن هنا حظى البخارى ببيئة علمية رائعة، الكثير مجتهد فى طلب العلم، والكل يعرف قدر العلم.

---

(١) أخرجه البخارى.

(٢) هذا النوع من الأحاديث يسمى «الثلاثيات» أى الأحاديث التى بين المؤلف والرسول ﷺ ثلاثة رواة، ولقد أُلِّف فى ثلاثيات البخارى.

٢ ـ بيئته الصالحة:

نشأ البخارى فى بيئة صلاح وعبادة، فأسرته أسرة متعبدة، والجو المحيط هو عبادة وصلاح، ولقد أثر هذا فيه كثيرًا، فتقدم فى العبادة، وكان رحمه الله صادقًا صافيًا، يتحرى الحلال فى مطعمه وكسبه، ويجتهد فى العبادة ويتفانى فى طلب العلم.

لقد نشأ فى القرن الثانى والثالث، والناس على دراية كبيرة بدينهم، وعلى امتثال تام لكل ما شرعه ربهم، فاستفاد البخارى بذلك كثيرًا ويكفى أن أذكر لك شيئًا من عبادته:

فلقد كان يصلى، فلسعه الزنبور سبع عشرة لسعة، فما تألم ولا تحرك، ولا خرج من الصلاة[1].

وعاش أربعين سنة لا يتناول إدامًا فى طعامه، وإنما يعيش على الخبز وحده[2]. وكان متقللاً فى الطعام جدًا، مع سخائه فى الإنفاق.

وجاءته تجارة له فجاءه التجار فطلبوها بربح خمسة آلاف درهم. فقال: انصرفوا الليلة. فجاءه من الغد تجار آخرون، فطلبوا منه البضاعة بربح عشرة آلاف. فقال: إنى نويت بيعها للذين أتوا البارحة، فدفعها إليهم وقال: لا أحب أن أنقض نيتى[3].

لقد كان البخارى على قدر عال من الورع، لا يحب أن ينقض نيته.

وكان مستجاب الدعوة، مرعيًا بكرم الله: وقال مرة أمام أناس: ما ينبغى للمسلم أن يكون بحالة إذا دعا لم يستجب له. فقالت له امرأة أخيه بحضرتى: فهل تبينت ذلك أيها الشيخ من نفسك، أو جربت؟ قال: نعم، دعوت ربى عز وجل مرتين، فاستجاب لى، فلم أحب أن أدعو بعد ذلك، فلعله ينقص من حسناتى، أو يعجل لى فى الدنيا.

---

(١) هدى السارى ص٤٨٠، ٤٨١ وسير النبلاء ٢١/٤٤١، ٤٤٢.

(٢) هدى السارى ص٤٨١.

(٣) هدى السارى ص٤٧٩، ٤٨٠ وسير النبلاء ٢١/٤٤٧.

وقال مرة أخرى: خرجت إلى آدم بن أبى إياس فتخلفت عنى نفقتى حتى جعلت أتناول الحشيش[١]، ولا أخبر بذلك أحدًا، فلما كان اليوم الثالث أتانى آت لم أعرفه، فناولنى صرة دنانير وقال: أنفق على نفسك[٢].

قال سليم بن مجاهد: ما رأيت بعينى منذ ستين سنة أفقه، ولا أورع، ولا أزهد فى الدنيا من محمد بن إسماعيل[٣].

ولهذه الحياة المليئة بالعبادة والصلاح أثرها العظيم فى صفاء طالب العلم، وفى تيسير أموره، وصلاح أحواله، ولقد أثرت هذه الحياة الإيمانية المغمورة بالصلاة على التوجه العلمى عند البخارى، فكان ورعًا فى حياته العلمية ورعًا سما به وفاز، متعبدًا متوجهًا إلى الله، راجيًا التوفيق.

* يقول الحافظ ابن حجر: وللبخارى فى كلامه على الرجال توقٍّ زائد، وتحر بليغ، ويظهر لمن تأمل كلامه فى الجرح والتعديل، فإن أكثر ما يقول «سكتوا عنه» «فيه نظر» «تركوه» ونحو هذا، وقلّ أن يقول «كذاب» أو «وضاع» وإنما يقول «كذبه فلان» «رماه فلان» يعنى بالكذب[٤].

إن حياة العبادة والصلاح جعلت البخارى متحريًا فى أحكامه على الرواة، حتى فى الألفاظ، فيحرص على أن يغلف ألفاظه ثوبًا من الأدب، فبدل أن يقول «كذاب» يقول «سكتوا عنه».

وعلى نهج العُبّاد يؤلف كتابه «صحيح البخارى» فقيل كل حديث يغتسل ويصلى ركعتين، قال رحمه الله تعالى: ما وضعت فى كتابى «الصحيح» حديثًا إلا اغتسلت مثل ذلك، وصليت ركعتين[٥]، وقال: صنفت كتابى «الجامع» فى المسجد الحرام، وما أدخلت فيه حديثًا حتى استخرت الله تعالى، وصليت ركعتين، وتيقنت صحته[١].

---

(١) النباتات التى تنبت بلا جهد من الفلاحين.

(٢) هدى السارى ص٤٨٠.

(٣) سير النبلاء ١٢/ ٤٤٩.

(٤) هدى السارى ص٤٨٠.

(٥) سير النبلاء ١٢/ ٤٠٢.

(٦) هدى السارى ص٤٨٩.

أما تراجم الصحيح، والتى هى العناوين، والتى وضعها بكل دقة، فإنه كتبها فى مسجد الرسول ﷺ، فى الروضة الشريفة، بين قبره ﷺ ومنبره، وقبل كتابة الترجمة كان يصلى ركعتين.

يقول ابن عدى: سمعت عبد القدوس بن همام يقول: سمعت عدة من المشايخ يقولون: حول محمد بن إسماعيل تراجم جامعه بين قبر رسول الله ﷺ ومنبره، وكان يصلى لكل ترجمة ركعتين.

لقد جمع البخارى كتابه فى ستة عشر عامًا، لكنه بيضه فى وضعه النهائى فى الحرمين، ما بين المسجد الحرام، والمسجد النبوى، بعد درس وتحرٍ، وتحقيق وتدقيق، جمع بذلك بين الصفاء والوفاء.

* * *

٣ ـ ملكاته وقدراته:

أنعم الله على الإمام البخارى بقوة الحفظ، وسلامة الفكر، فكان فى الحفظ آية من الآيات، لا يجارى ولا يبارى، وسبحان من أعطاه هذه القدرة فى هذه الملكة، ومما زاد ثمرة ملكة الحفظ عنده نعمة سداد الرأى، وسلامة الفكر، فاختار أسلم المناهج فى حياته العلمية، ووفق فى معرفة الطريق السليم، ورزق الرشاد، لقد حفظ الكثير والكثير، واستطاع أن ينتفع بهذا الكثير، فأخرج منه الفرائض والفوائد على خير وجه، وأكمل ما يكون.

وها أنذا أذكر ما يصور ملكة الحفظ عنده:

● حفظه:

عن حاشد بن إسماعيل وآخر قالا: كان أبو عبد الله البخارى يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام، فلا يكتب، حتى أتى على ذلك أيام، فكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب، فما تصنع؟ فقال لنا يومًا بعد ستة عشر يومًا: إنكما قد أكثرتما علىّ وألححتما، فاعرضا علىّ ما كتبتما، فأخرجنا إليه ما كان عندنا، فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر قلب، حتى جعلنا

نُحْكِم كُتُبنا من حفظه. ثم قال: أَتَرَوْن أنى أختلف هدرًا[١]، وأُضَيِّعُ أيامى؟! فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد[٢].

ستة عشر يومًا يسمع ويحفظ، وحينما يُطلب منه التحدث بما سمع يتحدث، هذه صورة من صور حفظ الإمام البخارى.

وقدم الإمام البخارى مدينة بغداد، وكانت مدينة العلم والعلماء، فسمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث، فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا لإسناد هذا، وإسناد هذا لمتن هذا، ودفعوا إلى كل واحد عشرة أحاديث ليلقوها على البخارى فى المجلس، فاجتمع الناس، وانتدب أحدهم، فسأل البخارى عن حديث من عشرته، فقال: لا أعرفه. وسأله عن أخر، فقال: لا أعرفه. وكذلك حتى فرغ من عشرته.

فكان الفقهاء يلتفت بعضهم إلى بعض، ويقولون: الرجل فهم.

ومن كان لا يدرى قضى على البخارى بالعجز.

ثم انتدب آخر، فقعل كما فعل الأول. والبخارى يقول: لا أعرفه.

ثم الثاليث، وإلى تمام العشرة أنفس. وهو لا يزيد على: لا أعرفه.

فلما علم أنهم قد فرغوا، التفت إلى الأول منهم، فقال: أما حديثك الأول فكذا، والثانى كذا، والثالث كذا، إلى العشرة. فرد كل متن إلى إسناده.

وفعل بالآخرين مثل ذلك، فأقرّ له الناس بالحفظ[٣].

ولقد ذكر هذه القصة الحافظ ابن حجر ثم قال: فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب، فإنه كان حافظًا، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة[٤].

نعم، هذا أعجب، فلقد حفظ الأحاديث مقلوبة مخلّطة كما ألقوها عليه،

---

(١) «أختلف» يعنى أذهب إلى المشايخ. و «هدرًا» أى لعبًا أو هزلاً.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/٤٠٨.

(٣) سير النبلاء ١٢/٤٠٨.

(٤) هدى السارى ص٤٨٦.

فذكر لكل إنسان عشرة أحاديثه، يذكر الحديث مقلوبًا ثم يذكره صوابًا.

وهكذا فى المائة حديث. رحم الله البخارى، فلو أنه أخبر بالأحاديث على وجهها لكان عجبًا ولقلنا إنه حافظ، أما أن يحفظ الخطأ ثم يعيده إلى الصواب، فهذا أمر فى غاية العجب.

ويقول أبو الأزهر: كان بسمرقند أربعمائة ممن يطلبون الحديث، فاجتمعوا سبعة أيام، وأحبوا مغالطة محمد بن إسماعيل، فأدخلوا إسناد الشام فى إسناد العراق، وإسناد اليمن فى إسناد الحرمين، فما تعلقوا منه بسقطة لا فى الإسناد، ولا فى المتن[1].

اختبار يقوم به أهل الخبرة، ويمكثون سبعة أيام، والبخارى صامد، يعيد كل حديث إلى الوجه الصحيح فيه. وهنا يظهر قوة حفظ البخارى، ويظهر مدى جلادة البخارى. فإذا كانت الأنظمة الحديثة لا يزيد وقت الامتحان فيها على ثلاث ساعات، فإن البخارى ظل سبعة أيام، مع الضبط التام، ما كلّ ذهنه، وما ملّ فؤاده. وإنما القوة فى الحفظ، والقوة فى تحمل المشاق.

وموقف آخر يبين حفظ البخارى، إذ يقول يوسف بن موسى المَرْوَزى: كنت بالبصرة فى جامعها، إذ سمعت مناديًا ينادى: يا أهل العلم، لقد قدم محمد بن إسماعيل البخارى، فقاموا إليه، وكنت معهم، فرأينا رجلاً شابًا، ليس فى لحيته بياض، فصلى خلف الأسطوانة، فلما فرغ أحدقوا به، وسألوه أن يعقد لهم مجلسًا للإملاء، فأجابهم إلى ذلك، فقام المنادى ثانيًا فى جامع البصرة، فقال: يا أهل العلم، لقد قدم محمد بن إسماعيل البخارى، فسألناه أن يعقد مجلس الإملاء، فأجاب بأن يجلس غدًا فى موضع كذا. فلما كان الغد حضر المحدثون، والحفاظ، والفقهاء، والنظارة[2]، حتى اجتمع قريب من كذا وكذا ألف نفس، فجلس أبو عبد الله للإملاء، فقال: قبل أن يأخذ فى الإملاء: يا أهل البصرة، أنا شاب، وقد سألتمونى أن أحدثكم، وسأحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم، تستفيدونها، يعنى ليست عندكم.

---

(١) سير النبلاء ١٢/ ٤١١.

(٢) القائمون على إدارة الدولة، وأيضًا رجال الجيش، وكانوا من العلماء.

قال: فتعجب الناس من قوله، فأخذ فى الإملاء، فقال: حدثنا عبد الله بن عثمان بن جبلة بن أبى روّاد العتكى ببلدكم، قال حدثنى أبى، عن شعبة عن منصور وغيره، عن سالم بن أبى الجعد، عن أنس بن مالك، أن أعرابيًا جاء إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله الرجل يحب القوم. . . . الحديث(١).

ثم قال ـ البخارى ـ هذا ليس عندكم عن منصور، إنما هو عندكم عن غير منصور قال يوسف بن موسى ـ المروزى ـ فأملى عليهم مجلسًا من هذا النسق، يقول فى كل حديث روى فلان هذا الحديث عندكم كذا، فأما من رواية فلان يعنى التى يسوقها فليست عندكم(٢).

عجيب أمر البخارى فى حفظه، فإنه يعلم ما يحفظه أهل البصرة، وما لم يحفظوه!! لقد سألوه أن يحدثهم، فحدثهم بأحاديث يحفظونها بأسانيد لبلدهم، لكنه سيحدثهم بها بأسانيد غير أسانيدهم، حتى تكون الفائدة عامة، وهنا للبخارى عدة مزايا، فهو يحفظ أحاديث كثيرة، ويعرف ما يحفظه أهل البصرة، ويعرف الطرق الزائدة على أهل البصرة، ويحدثهم بذلك حرصًا على أن تكون الفائدة عامة، وكل ذلك يفيد أن البخارى أعجوبة فى حفظه، أعجوبة فى معرفة أسانيد أهلِ البلاد، أعجوبة فى فهمه، بحيث وصل بهم إلى ما يفيد جميعهم.

● ذكاؤه:

وإن الدارس لكتب البخارى ليتضح له قوة ذكاء الرجل، وجودة ذهنه، فهو متمكن من علوم شتى، دقيق فى المسائل التى يتعرض لها، ذو منهج رتيب فى خطه العلمى، له هدف فى تصرفاته، وله غاية فى منهجه، وهذا إجمال يحتاج إلى توضيح، فأوضحه فى النقاط الآتية:

أ ـ منهج البخارى فى الطلب: البخارى له منهج فى تعلم العلم منذ بداية حياته العلمية، وصَفَه فقال: كنتُ إذا كتبت عن رجل سألته عن اسمه، وكنيته، ونسبته،

---

(١) هذا الحديث أخرجه البخارى ومسلم. وهو عند مسلم فى البر والصلة باب المرء مع من أحب عن منصور عن سالم عن أنس ٤/ ٢٠٣٣ رقم ١٦٤.

(٢) هدى السارى ص٤٨٦، ٤٨٧.

وحَمْله الحديث، إن كان الرجل فهمًا[1]. فإن لم يكن سأله أن يخرج إلىّ أصله ونسخته[2].

وسأله رجل فقال له: عرفنى حدود ما قصدت له، ومقاديره، فقال له كلامًا، أورده بشىء من التقريب والتوضيح، قال له: اعلم أن الرجل لا يصير محدثًا كاملاً فى حديث إلا أن يتقن هذه الرباعيات:

الأربعة الأولى:

١ ـ معرفة الكتابة.

٢ ـ معرفة اللغة.

٣ ـ معرفة النحو.

٤ ـ معرفة الصرف.

الأربعة الثانية:

١ ـ حفظ المسانيد.

٢ ـ حفظ المراسيل.

٣ ـ حفظ الموقوفات.

٤ ـ حفظ المقطوعات.

الأربعة الثالثة:

١ ـ معرفة أخبار الرسول ﷺ وشرائعه.

٢ ـ معرفة الصحابة ومقاديرهم.

٣ ـ معرفة التابعين وأحوالهم.

٤ ـ معرفة سائر العلماء وتواريخهم.

الأربعة الرابعة:

١ ـ معرفة أسماء الرجال.

---

(١) أى يحدث من حفظه.

(٢) سير ١٢/٤٠٦.

٢ ـ معرفة الكنى.

٣ ـ معرفة الأمكنة.

٤ ـ معرفة الأزمنة.

يحفظ هذه الرباعيات مثل الفاتحة.

يطلبها فى:

الأربعة الخامسة:

١ ـ صغره.

٢ ـ إدراكه.

٣ ـ شبابه.

٤ ـ كهولته.

الأربعة السادسة:

١ ـ عند شغله.

٢ ـ وعند فراغه.

٣ ـ وعند فقره.

٤ ـ وعند غناه.

يطلبها عمَّن:

الأربعة السابعة:

١ ـ عمن فوقه.

٢ ـ وعمن هو مثله.

٣ ـ وعمن هو دونه.

٤ ـ وعن كتاب أبيه.

ويطلبها بغرض:

الأربعة الثامنة:

١ ـ لوجه الله طلبًا لمرضاته.

٢ ـ والعمل بما وافق الكتاب.

٣ ـ ونشرها بين الناس.

٤ ـ وإحيائها بالتأليف فيها[١].

إن هذه الأصول فى التعليم والدراسة دليل ذكاء حاد، وبرهان على توفيق الله للرجل: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[٢].

إنه يركز على حفظ الأحاديث المسندة وغيرها، لكنه يؤكد على العلوم الضرورية لهذه الدراسة من علوم اللغة وقواعدها.

ويؤكد أيضًا على علوم السنة من معرفة الهدى النبوى، وسير الصحابة، والتابعين، وتواريخ العلماء الأئمة.

ويؤكد على علم الرجال بكل ما يتصل به، ثم على الأزمنة والأمكنة، وكل ذلك يجعل الدارس متمكنًا من تخصصه، جهبذًا فى علمه.

وبهذه الدقة، وبهذا الاستيعاب كان البخارى فى طلبه، وبهذا النضج الفكرى، وبهذه البراعة الذهنية كان البخارى فى سيرته العلمية، منذ البداية، وباستمرار. حتى إن هذه المنهجية تؤتى ثمارها مبكرة.

فيحضر درسًا لأحد شيوخه، فيتحدث الشيخ والتلاميذ يسمعون، ويخطئ الشيخ فى اسم أحد الرواة، فيرد عليه البخارى، والبخارى فى الحادية عشرة من عمره، ويدور نقاش ينتهى بأن يسلِّمَ الشيخُ للبخارى، بأنه على صواب[٣]!!

ب ـ منهجه فى كتبه: وظهرت هذه الدقة وهذا الذكاء بكامل صورها فى مؤلفات البخارى، منذ تأليفها، وإلى الآن، فها هو شيخه إسحاق بن راهويه يأخذ كتاب التاريخ للبخارى، ويدخل به على الأمير عبد الله بن طاهر، أشهر ولاة العصر العباسى[٤]، وكان من العلماء، فيقول له: أيها الأمير، ألا أريك سحرًا؟

---

(١) تهذيب الكمال ٢٤/ ٤٦٢.

(٢) سورة الكهف آية ١٠

(٣) تاريخ بغداد ٢/ ٧ وسقته بالمعنى.

(٤) راجع الأعلام ٤/ ٩٣.

ويعطيه الكتاب، فينظر فيه الأمير ويتعجب[١].

ويقول قتيبة بن سعيد شيخه: نظرت فى الحديث، ونظرت فى الرأى، وجالست الفقهاء والزهاد، والعباد، فما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل البخارى.

ويقول إبراهيم بن محمد بن سلام: كان الرتوت ـ الرؤساء ـ من أصحاب الحديث، مثل: سعيد بن أبى مريم، وحجاج بن المنهال، وإسماعيل بن أبى أويس، والحميدى، ونعيم بن حماد، والعدنى يعنى محمد بن يحيى بن أبى عمر، والخلال يعنى الحسين بن على الحلوانى، ومحمد بن ميمون هو الخياط، وإبراهيم بن المنذر، وأبى كريب محمد بن العلاء، وأبى سعيد عبد الله بن سعيد الأشج، وإبراهيم بن موسى هو الفراء، وأمثالهم يقضون لمحمد بن إسماعيل على أنفسهم فى النظر والمعرفة[٢].

هؤلاء الأئمة الأعلام، يقدمون البخارى على أنفسهم، فى المعرفة والرأى، فى النظر والفكر، وما ذلك إلا لقوة الرجل الفكرية، وسعة دائرته الذهنية، وهم أناس أعلام، وجمعوا مع ذلك الإنصاف والاعتراف بالحق.

وسئل الإمام النسائى عن العلاء وسهيل، فقال: هما خير من فليح، ومع هذا فما فى هذه الكتب كلها أجود من كتاب محمد بن إسماعيل[٣].

وقال أبو جعفر العقيلى: لما صنف البخارى كتاب الصحيح عرضه على ابن المدينى، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وغيرهم، فاستحسنوه، وشهدوا له بالصحة إلا أربعة أحاديث.

قال العقيلى: والقول فيها قول البخارى، وهى صحيحة[٤].

وقال الإمام أبو أحمد الحاكم: رحم الله محمد بن إسماعيل الإمام، فإنه الذى ألّف الأصول وبيّن للناس، وكل من عمل بعده فإنما أخذه من كتابه[٥].

(١) سير النبلاء ١٢/٤٠٣.

(٢) هدى السارى ص٤٨٢.

(٣) هدى السارى ص٤٨٩.

(٤) هدى السارى ص٤٨٩.

(٥) هدى السارى ص٤٨٩.

ومن تأمل «صحيح البخارى» تأملاً دقيقًا، ودرسه دراسة مستفيضة تبين له أن البخارى قد سار على منهج فى غاية الدقة، وألزم نفسه بشروط غاية التمام[١]، حتى اعترف له بذلك الأئمة الكبار.

* * *

٤ ـ تفرغه لطلب العلم:

ولقد كان البخارى رحمه الله تعالى متفرغًا لطلب العلم تمامًا، كما تقدم فى بيان منهجه، فكان لا يشغل نفسه إلا بطلب العلم، نشأ على هذا، وإلى آخر حياته.

يقول هانئ بن النضر: كنا عند محمد بن يوسف الفريابى بالشام، وكنا نتنزه فعل الشباب فى أكل الفرصاد[٢] ونحوه، وكان محمد بن إسماعيل معنا، وكان لا يزاحمنا فى شىء مما نحن فيه، ويُكِبُّ على العلم[٣].

وسأل رجلٌ الإمام البخاريَّ عن دواء يشربه ينتفع به للحفظ، فقال له البخارى: لا أعلم شيئًا أنفع للحفظ من نَهْمَة الرجل، ومداومة النظر[٤].

يظن البعض أن الأدوية قد تفيد فى موضوع الحفظ، إلا أن البخارى يلفت النظر إلى أن الحفظ إنما هو بالحرص والطلب طويلاً. ولقد كان هو كذلك. فلقد تفرغ لطلب العلم، ولم يشغل نفسه بأى شىء سوى العلم، وورث عن أبيه مالاً، فلم ينشغل به، وإنما كان يعطيه للناس مضاربة.

قال كاتبه محمد بن أبى حاتم: سمعت أبا عبد الله ـ البخارى ـ يقول: ما توليت شراء شىء ولا بيعه قط. فقلت له: كيف وقد أحل الله البيع؟ قال: لما فيه من الزيادة والنقصان والتخليط، فخشيت إن توليت أن أستوى بغيرى. قلت: فمن كان يتولى أمرك فى أسفارك ومبايعتك؟ قال: كنت أُكْفَى ذلك[٥].

(١) سيأتى الكلام بأوسع عند الحديث على «صحيح البخارى» إن شاء الله تعالى.

(٢) التوت الأحمر.

(٣) سير النبلاء ١٢/ ٤٠٥.

(٤) سير النبلاء ١٢/ ٤٠٦.

(٥) سير النبلاء ١٢/ ٤٤٦.

هذه مواقف وقواعد تبين مدى تفرغ البخارى لطلب العلم، وأنه ما مال لغيره، فى صباه ولا فى غيره، وكان حريصًا دؤوبًا على طلب العلم.

***

٥ ـ حرصه على طلب العلم:

كان البخارى رحمه الله تعالى حريصًا على طلب العلم حرصًا منقطع النظير، حرصًا دعاه إلى الارتحال إلى كثير من البلدان، وسمع من شيوخ كثيرين، وحرر ودقق فى مؤلفاته.

* تحدث عن نفسه فقال: دخلت إلى الشام، ومصر، والجزيزة[١] مرتين، وإلى البصرة أربع مرات، وأقمت بالحجاز ستة أعوام، ولا أحصى كم دخلت إلى الكوفة وبغداد مع المحدثين[٢].

* وتحدث عمن سمع منهم من الشيوخ فقال: كتبت عن ألف وثمانين شيخًا، ليس فيهم إلا صاحب حديث[٣].

إنه ينتقى الشيوخ، فلا يأخذ إلا عن الثقات الأثبات، ومع ذلك روى عن ألف وثمانين شيخًا.

* ومما يصور حرص الرجل فى باب الطلب ما ورد أنه لم يكن يؤلف الكتاب مرة واحدة، وإنما كان يكتب، ويبيض، وينقح، وعلى الرغم من صعوبة آلات الحياة فى زمنه إلا أنه بحرصه وعزمه فاق ذلك، وحرر كتبه ونقحها على خير وجه يقول كاتبه محمد بن أبى حاتم: سمعت البخارى يقول: صنفت جميع كتبى ثلاث مرات. وسمعته أيضًا يقول: لو نُشِر[٤] بعض أستاذتى هؤلاء لم يفهموا كيف صنفت «التاريخ» ولا عرفوه، ثم قال: صنفته ثلاث مرات[٥].

* وأمر آخر يصور حرص البخارى على طلب العلم، وهو استيقاظه مرات فى

(١) ما بين دجلة والفرات.

(٢) هدى السارى ص٤٧٨.

(٣) هدى السارى ص٤٧٩.

(٤) النشر: الإحياء بعد الموت.

(٥) سير النبلاء ١٢/٤٠٣.

الليلة الواحدة، ليحرر فى كتبه، إنه لم يأخذه النوم عن العلم، وإنما استولى العلم عليه، فإذا نام اضطجع وظل يفكر فيما كتب، وكلما راجع فكره فى شىء فاتضح له تصويب، قام فأنار فتيلته، وفتح كتبه وكتب. ثم يعود إلى فراشه، ويفكر، ويعود فينير فتيلته، ويصوب، كان هذا يحدث عدة مرات، مما يدل على حرص الرجل الشديد، وانشغاله بالعلم عن كل شىء.

يقول محمد بن يوسف البخارى: كنت مع محمد بن إسماعيل بمنزله ذات ليلة، فأحصيت عليه أنه قام، وأسرج يستذكر أشياء يعلقها فى ليلة ثمان عشرة مرة[١].

وقال وراقه محمد بن أبى حاتم: كان أبو عبد الله ـ البخارى ـ إذا كنت معه فى سفر، يجمعنا بيت واحد إلا فى القيظ أحيانًا، فكنت أراه يقوم فى ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، فى كل ذلك يأخذ القداحة فيورى نارًا، ويسرج، ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها[٢].

والبخارى مع حرصه على طلب العلم كان عالى الهمة، يحرص على أدق الأعمال العلمية، مهما كلفه ذلك من جهد ومشقة، كيف لا، وهو الذى ارتحل وكابد الأسفار، وترك وطنه وأهله، وتحمل الكثير والكثير.

يصور ذلك ما روى عنه قال: كنت عند إسحاق بن راهويه فقال لنا بعض أصحابنا: لو جمعتم كتابًا مختصرًا لسنن النبى ﷺ، فوقع ذلك فى قلبى، فأخذت فى جمع هذا الكتاب، يعنى: كتاب «الجامع»[٣].

قلت: «الجامع» هو اسم «صحيح البخارى» فاسمه «الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه»[٤].

❊ ❊ ❊

(١) سير النبلاء ١٢/ ٤٠٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تهذيب الكمال ٢٤/ ٤٤١. وسير النبلاء ١٢/ ٤٠١.
(٤) هدى السارى أول الفصل الثانى ص٨.

٦ ـ مكانة البخارى العلمية:

الدارس لتاريخ الإمام البخارى يظهر له أن هذا الإمام قد مَنّ الله عليه بأرقى مكانة علمية، اعترف له بذلك كبار أئمة عصره، من شيوخه، وأقرانه، وتلامذته، وعارفيه.

لقد فضلوه على أنفسهم، وفضلوه على علماء عصره، واعترفوا له بالتقدم على الجميع.

* يقول الإمام أحمد بن حنبل: انتهى الحفظ إلى أربعة من أهل خراسان: أبو زرعة الرازى، ومحمد بن إسماعيل البخارى، وعبد الله بن عبد الرحمن بسمرقند، والحسن بن شجاع البلخى(١).

* وإذا كان الإمام أحمد يقرن هؤلاء فى الحفظ بالبخارى، فإنى أذكر أقوالهم فى البخارى:

* فيقول عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى: محمد بن إسماعيل ـ البخارى ـ أعلمنا، وأفقهنا، وأغوصنا، وأكثرنا طلبًا(٢).

هذه شهادة قرين من أقران البخارى.

* وسئل الدارمى هذا عن حديث سالم بن أبى حفصة، فقال: كتبناه مع محمد ـ يعنى البخارى ـ ومحمد يقول: سالم ضعيف. فقيل له: ما تقول أنت؟ قال: محمد أبصر منى(٣).

* ويقول الدارمى **هذا أيضًا**: قد رأيت العلماء بالحجاز والعراقين، فما رأيت فيهم أجمع من محمد بن **إسماعيل**(٤).

* وسئل العباس بن **الفضل** الرازى: أيهما أفضل، أبو زرعة، أو محمد بن إسماعيل؟ فقال: التقيت مع **محمد** بن إسماعيل بين حلوان(٥) وبغداد، فرجعت

(١) سير النبلاء ١٢/ ٤٢٣.
(٢) سير ١٢/ ٤٢٦، ٤٢٧.
(٣) سير ١٢/ ٤٢٦.
(٤) سير ١٢/ ٤٣٢.
(٥) حلوان اسم مدينة بالعراق قرب بغداد، واسم مدينة بمصر قرب القاهرة، والمراد هنا التى بالعراق.

معه مرحلة، وجهدت أن أجيء بحديث لا يعرفه، فما أمكننى، وأنا أغرب على أبى زرعة عدد شعره[١].

* وكم سئل أبو زرعة هذا عن أحوال الرجال، فقال: قال فيه البخارى كذا، وكان أبو زرعة هذا إذا جلس أمام البخارى يستمع إلى كل كلمة يقولها[٢].

* ومجموعة أخرى من الأكابر يشهدون له، إذ يقول إبراهيم بن محمد بن سلام: إن الرتوت[٣] من أصحاب الحديث مثل: سعيد بن أبى مريم، ونعيم بن حماد، والحميدى، وحجاج بن منهال، وإسماعيل بن أبى أويس، والعدنى، والحسن الخلال بمكة، ومحمد بن ميمون صاحب ابن عيينة، ومحمد بن العلاء، والأشج، وإبراهيم بن المنذر الخزامى، وإبراهيم بن موسى الفراء، كانوا يهابون محمد بن إسماعيل، ويقضون له على أنفسهم فى المعرفة والنظر[٤].

* وها هو الإمام مسلم بن الحجاج صاحب صحيح مسلم قرين البخارى، تحدث بينه وبين البخارى مناقشات، على إثرها يعترف الإمام مسلم بقدر البخارى العلمى وتمكنه فى علم الحديث دراية ورواية، ويقول له: دعنى أُقَبِّلُ رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث فى علله[٥].

وقال له مرة أخرى: لا يُبْغضك إلا حاسد، وأشهد أنه ليس فى الدنيا مثلك[٦].

وها هو الحافظ الإمام الترمذى، صاحب السنن ـ المشهور بسنن الترمذى أحد الكتب الستة التى عليها مدار السنة النبوية ـ وهو قرين البخارى ها هو يقول: لم أر بالعراق، ولا بخراسان فى معنى العلل، والتاريخ، ومعرفة الأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل[٧].

---

(١) سير ١٢/ ٤٣٤.
(٢) سير ١٢/ ٤٣٤، ٤٣٦.
(٣) الرتوت: الرؤساء.
(٤) سير النبلاء ١٢/ ٤٢٥.
(٥) سير ١٢/ ٤٣٢.
(٦) سير ١٢/ ٤٣٧.
(٧) سير ١٢/ ٤٣٢.

* وها هو إسحاق بن راهويه شيخ البخارى يعترف بقدر البخارى، ومن العجيب أن هذا التقدير من ابن راهويه للبخارى، كان والبخارى شاب، فحدّث ابن راهويه بأحاديث راجعه البخارى فى حديث منها، فرجع إلى رأى البخارى وسلّم له.

وقال حاشد بن عبد الله: كنا عند إسحاق ـ وعمرو بن زرارة ثَمَّ [1] ـ وهو يستملى على البخارى، وأصحاب الحديث يكتبون عنه، وإسحاق يقول: هو أبصر منى. وكان محمد يومئذ شابًا[2].

هذه نماذج من أقوال الأئمة الذين عاصروا البخارى، وجالسوه، أختمها بقول الحافظ موسى بن هارون الحمال، الحافظ المتقن[3]، يقول: لو أن أهل الإسلام اجتمعوا على أن يُنَصِّبوا آخر مثل محمد بن إسماعيل ما قدروا عليه[4].

ويتضح من أقوال هؤلاء الأئمة أن البخارى كان فى الحديث قد فاق الأقران، واحترم رأيه شيوخُه، وأثنى الجميعُ عليه بأنه قد بلغ فى هذا العلم الذروة.

إن أقرانه الأفذاذ الأثبات يعترفون له بالتفوق والتقدم، وأنه لا يبارى فى معرفة أحاديث رسول الله ﷺ، أسانيدها ومتونها، عللها وأحوالها، رجالها وألفاظها.

إنه يعرف كل حديث، ويعرف من يرويه، ويعرف كل طرقه، وحاله من كل طريق، ويعرف علته إن كانت فيه علة، ويعرف رواته راويًا راويًا، ويعرف أخبار كل راو، وقصة حياة كل راو، وماذا روى كل تلميذ عن شيخه.

وفى الوقت نفسه يحفظ ألفاظ كل حديث، وراوى كل لفظ، والأرجح من الألفاظ. ولقد تقدم فى فقه الحديث، واستنبط منه الدقائق، ورتب كتابه على خير وجه، وكتبه فى هذا العلم ـ الحديث وعلومه ـ خير ما يقتنى، وأفضل ما يقتفى.

وإنى وقد ذكرت بعض أقوال الأئمة فى التعريف بمكانة البخارى العلمية، فإنه يبقى أن أذكر بعض المواقف التى توضح مكانته العلمية هذه:

---

(١) أى موجود.
(٢) سير ١٢/ ٤٢٩.
(٣) له ترجمة فى تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٦٩.
(٤) سير النبلاء ١٢/ ٤٣٤.

كان البخارى فى مجلس من مجالس محمد بن يوسف الفريابى أحد شيوخه، فقال الفريابى: حدثنا سفيان الثورى، عن أبى عروة، عن أبى الخطاب، عن أنس: «أن النبى ﷺ كان يطوف على نسائه فى غسل واحد» فلم يعرف أحد فى المجلس أبا عروة، ولا أبا الخطاب. فقلت: أما أبو عروة فمعمر، وأبو الخطاب قتادة. قال: وكان الثورى فعولا لهذه، يُكَنِّى المشهورين[(١)].

لقد كنَّى الثورى بعض رجال الإسناد، فذكرهم الفريابى كما حدثه الثورى، فبيّن البخارى أمرهم، ووضح أسماءهم، وذلك لدقة معرفته بالرجال، أسمائهم وكناهم.

ويقول محمد بن أبى حاتم ـ ورّاق البخارى أى كاتبه ـ سمعت أبا بكر المدينى بالشام زمن عبد الله بن أبى عرابة يقول: كنا بنيسابور عند إسحاق بن راهويه، وأبو عبد الله ـ البخارى ـ فى المجلس، فمر إسحاق بحديث دون الصحابى عطاء الكيخارانى[(٢)]، فقال إسحاق: يا أبا عبد الله، إيش كيخاران؟ فقال: قرية باليمن، كان معاوية بن أبى سفيان بعث هذا الرجل إلى اليمن، فمر بكيخاران، فسمع منه عطاء حديثين، فقال له إسحاق: يا أبا عبد الله، كأنك شهدت القوم[(٣)].

وقال الحافظ أحمد بن حمدون: رأيت البخارى فى جنازة ومحمد بن يحيى الذهلى يسأله عن الأسماء والعلل، والبخارى يمر فيه مثل السهم، كأنه يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [(٤)].

وتظهر قيمة شهادة أحمد بن حمدون إذا علمنا أن محمد بن يحيى الذهلى إنما هو شيخ البخارى، ومع ذلك يسأل البخارى، عن رجال الأسانيد، وعن العلل، والبخارى يحدثه بكل سهولة وثبات، مما يدل على تقدم البخارى تقدمًا عظيمًا.

(١) سير النبلاء ١٢/ ٤١٣ وهدى السارى ٤٧٨.

(٢) من أمثلة ذلك حديث أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال: «ما من شىء أثقل فى الميزان من خلق حسن» وهو فى السنة لابن أبى عاصم ٢/ ٣٦٣ رقم ٧٨٣. وهو عند أحمد وأبى داود والآجرى وغيرهم من طريق الكيخارانى هذا.

(٣) سير النبلاء ١٢/ ٤١٥ وهذا الحديث عند أبى داود فى الأدب باب فى حسن الخلق ١٣/ ١٥٥ عون.

(٤) هدى السارى ص٤٨٨.

وتناقش الإمام مسلم بن الحجاج صاحب «صحيح مسلم» مع الإمام البخارى فى حديث كفارة المجلس، فذكره الإمام مسلم بإسناده، فذكر البخارى له إسنادًا أقوى من الذى ذكره الإمام مسلم، فقام الإمام مسلم وقبّل البخارى بين عينيه، وقال: دعنى حتى أقبِّل رجليك، يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث فى علله، وقال الإمام مسلم له مرة: لا يُبْغضُك إلا حاسد، وأشهد أنه ليس فى الدنيا مثلك(١).

إنها شهادة الإمام مسلم، صاحب «صحيح مسلم» الذى يلى «صحيح البخارى» فى الرتبة، إنه يشهد هذه الشهادة للإمام البخارى، ويعترف بقدره إلى هذا الحد «سيد المحدثين» و «ليس فى الدنيا مثلك».... إلخ ما سبق.

بل أغرب من ذلك:

ما روى عن محمد بن أبى حاتم ـ وراق البخارى ـ قال: قلت لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى: كيف كان بدء أمرك فى طلب الحديث؟

قال: أُلهمتُ حفظ الحديث وأنا فى الكُتّاب.

قال: وكم أتى عليك إذ ذاك؟

قال: عشر سنين، أو أقلّ، ثم خرجت من الكُتّاب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلى وغيره، وقال يومًا فيما كان يقرأ للناس: سفيان، عن أبى الزبير عن إبراهيم. فقلت له: يا أبا فلان، إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم، فانتهرنى، فقلت له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك، فدخل ونظر فيه، ثم خرج، فقال لى: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدى، عن إبراهيم. فأخذ القلم منى وأحكم كتابه، فقال: صدقت.

فقال له بعض أصحابه: ابن كم أنت إذ رددت عليه؟

فقال: ابن إحدى عشرة، فلما طعنت فى ست عشرة سنة، حفظت كتب ابن المبارك، ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء، ثم خرجت مع أمى وأخى أحمد إلى مكة، فلما حججت رجع أخى بها، وتخلفت فى طلب الحديث، فلما طعنت فى ثمان

---

(١) المصدر السابق.

عشرة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم، وذلك أيام عبيد الله بن موسى، وصنفت كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر الرسول ﷺ فى الليالى المقمرة. وقل اسم فى التاريخ إلا وله عندى قصة، إلا أنى كرهت تطويل الكتاب[١].

هكذا كان البخارى، وهو فى الحادية عشرة من عمره يناقش فى قضايا الإسناد، ويعرف الطبقات، وهكذا كانت مدرسة الحديث، يحدث الرجل بما عنده، ويناقشه فيه غيره، حتى تلامذته، مما يوضح قدر هذه المدرسة، وقدر الإمام البخارى كواحد من عمد هذه المدرسة.

لقد بلغ من علم البخارى أنه قال: لا أعلم شيئًا يُحْتاج إليه إلا وهو فى الكتاب والسنة.

فقيل له: يمكن معرفة ذلك كله؟

قال: نعم[٢].

هذا هو البخارى فى بيئته وصلاحه، فى ملكاته وحفظه، فى تفرغه وحرصه على العلم، فى علو همته، ومعرفة غايته.

هذا هو البخارى اعترف كبار المحدثين له بالتقدم والرسوخ، وأنه فاق وفاق.

هذا هو البخارى الذى تشهد مواقفه وأعماله بأنه أمير المؤمنين فى الحديث.

فهل بعد هذا يُعترض على البخارى؟

هل بعد هذا يُنتقد البخارى؟

لقد اعترف بقدره كبار أئمة المحدثين والفقهاء وأئمة الأمة، الذين عاصروه، وجالسوه، وناقشوه.

حِفْظُه فاق التصور، ودرايته آية فى الدقة، وهو فى كل فنون الحديث متقدم، فمن ينتقد مثل هذا؟

لقد وجدنا أناسًا فى زماننا ينتقدون البخارىّ، وهم لا علم لهم، ولا دراية، لا علاقة لهم بالحديث النبوى ولا بعلومه، بل لا علاقة لهم بالدراسات الإسلامية.

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ٦، ٧.

(٢) سير النبلاء ١٢/ ٤١٢.

يظهر أحدهم فيلقى كتابًا يعيب فيه البخارى ثم يختفى هذا الشخص، دون أن نعرفه بعلم. فنقرأ كتابه فلا نجد فيه إلا كل كذب وافتراء.

إن هذه الدراسة التى قدمتها عن البخارى وعلمه تشهد بتقدم الرجل، وأنه لا يُقبل فيه قول بعد أن اعترف الكبار بقدره، وسأُعَرِّف أيضًا بمشيئة الله تعالى بكتابه «الصحيح» ليتضح قدر كتابه.

* * *

دفع شبهاتهم على شخص البخارى

واضح مما سبق أن الإمام البخارى له مكانته العلمية السامية فى مدرسة الإسلام، وأنه إمام بلغ فى مدرسة الحديث أعلى الدرجات، واعترف له بذلك شيوخه، وأقرانه ـ زملاؤه ـ وتلامذته، وعرف قدره وقدر كتابه أئمة الإسلام فى كل العصور.

إلا أن أعداء السنة يحرصون على إثارة الشبهات على هذا الإمام، ظانين أنهم يمكنهم تحطيمه، وبالتالى يكونون قد حطموا كل أئمة السنة. وجهل هؤلاء أن الله تبارك وتعالى يمكن للصالحين، ويحفظ الحق وينصره.

وأذكر هنا بعض شبههم على البخارى، ليرى القارئ رأيه فيها وفى قائليها، فى ضوء ما تقدم من التعريف بالبخارى.

الشبهة الأولى: البخارى فارسى، ومعظم المحدثين من بلاد فارس فلماذا؟

والجواب: البخارى ليس فارسيًا، وإنما هو من بلاد بخارى على نهر جيحون من بلاد ما وراء النهر، وبخارى الآن من بلاد جمهورية أوزبكستان فى آسيا الوسطى.

دخل أهل بخارى الإسلام فى أول خلافة يزيد بن معاوية (٦١) هـ فتحها سَلْم ابن زياد مع مدن أخرى حولها، وأحب أهلها الإسلام، وبذلوا الكثير فى نصرته. وشاع العلم وذاع فى هذه البلاد، وكان منها كثير من أئمة الإسلام، تعلموا وعلموا، فما وجه اعتراض أعداء السنة؟!

أما القول بأن معظم المحدثين من بلاد فارس فهذا قول ليس صحيحًا، فالمحدثون من كل بلاد الإسلام، من الجزيزة العربية، ومن الشام، ومن مصر، والمغرب الإسلامى، ومن الأندلس السليب، وأيضًا من فارس، وجمهوريات آسيا الوسطى، ودول شرق آسيا.

المحدثون من كل بلاد الإسلام، فلقد حث الإسلام على طلب العلم، وأعلى قدر العلم وأهله، فنشط الأذكياء وتقدموا فى العلم جدًا، ومن العلوم التى تقدموا فيها علم الحديث النبوى الشريف.

ومن راجع كتب رجال الحديث[١] اتضح له أن حفاظ الحديث من كل بلاد الإسلام.

إن الأمة الإسلامية تعتز بدينها كل الاعتزاز، وهى أمة تعرف دينها الحق، وتعرف الرجال بالحق، يعلو نجمه بصرف النظر عن بلده، أو لونه، فلا فرق بين عالم من فارس، وعالم من الجزيزة.

إنها أمة وحّدها الإسلام، ووحّدها القرآن، فلا اعتبار فيها لعرق أو قومية.

والعربية لغة وليست عروقًا، فكل من نطق بالعربية فهو عربى.

إن اعتراض منكرى السنة على البخارى بأنه ليس من الجزيرة العربية إنما هو اعتراض القوميين، وهو اعتراض مرفوض تمامًا، والبشرية الآن لا تتقيد فى النفع العلمى بالدولة أو اللون، فأى اكتشاف علمى تحرص البشرية على النفع به، دون تقيد بأن المكتشف جنسيته كذا أو كذا، وهذا مبدأ إسلامى.

إن البخارى من مجتمع يتكلم العربية، ويعتنق الإسلام، فما وجه الاعتراض عليه؟

بعد طولى محاولة مع بعض أعداء السنة صرح بعضهم بأن البخارى فارسى، ووضع الأحاديث لهدم الإسلام، انتقامًا لقضاء الإسلام على الإمبراطورية الفارسية!!

---

(١) من ذلك مثلاً كتاب «تذكرة الحفاظ» للحافظ الذهبى، من راجعه اتضح له أن الحفاظ من كل بلاد الإسلام.

وأقول: هذا خطأ مركب:

١ ـ فالبخارى كما تقدم ليس فارسيًا.

٢ ـ لا يمكن لأحد أن يضع حديثًا واحدًا إلا وعلماء الإسلام يجرحونه، ولا يقبلون منه شيئًا.

٣ ـ أحاديث رسول الله ﷺ يعلمها علماء الحديث، ويعرفون مخارجها، ولا يمكن وضع حديث واحد إلا ويعرفونه، ويبينون حاله.

٤ ـ الإسلام لم يقض على إمبراطوريات، وإنما أسلم أهلها مختارين، ولهم أموالهم وديارهم، ولا زالت بلاد فارس لأهلها، بثرائها وخيراتها، ولا زالت مصر لأصحابها، خيراتها لأصحابها، وحكامها منها.

وهكذا يتضح أن شبهتهم هذه لا أصل لها، وإنما هى محض مغالطات.

* * *

الشبهة الثانية: البخارى ليس اسمه «البخارى» وإنما اسمه «بردزبة»!!

وأقول: هذه شبهة فى غاية الضحالة، وكلام فى غاية العجب، إمام تعرفه الأمة بنسبته إلى بلده، وتردد ذكره بهذه النسبة أكثر من ألف عام، وكل الأمة تعرفه بذلك، شرقًا وغربًا، الكل يعرف البخارى بهذه النسبة، إذ بحفنة تظهر علينا فى هذه الأيام تتنكر لهذا الإمام العلم، الذى هو فى الأمة أشهر من نار على رأس جبل.

إن كل إنسان له رأيه فيما يُعرف به ويُشتهر، فهذا يحب أن يشتهر باسمه، وآخر يحب أن يشتهر بلقب كذا، وثالث يحب أن يعرف بكنية كذا، ورابع يحب أن يشتهر بنسبة كذا، والبخارى رضى الله عنه قد عُرف واشتهر بنسبته إلى بلده «بخارى» فأى شبهة فى هذا؟!

وأعتقد أنه لو نُسب إلى جده «بردزبة» لاستشكلوا أيضًا، وقالوا: هذه كلمة غير عربية، وقالوا... وقالوا...، وهم فى ذلك كما قال القائل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... وعين السخط تبدى المساويا

إنهم غاضبون من البخارى، فيريدون شينة، يرتكبون فى سبيل ذلك كل مغالطة!!

«البخارى» اسمه: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفى مولاهم، وهو من بلاد «بخارى» ينسب إلى بلده كما ينسب كثير من الناس.

و «البخارى» اسمه وأسماء آبائه لها دلالتها الطيبة، كانت أسماؤهم بلغتهم، فلما أسلموا أصبحت أسماؤهم عربية إسلامية، فجده «بردزبة» آخر الأسماء التى بلغة بخارى، ثم «المغيرة» اسم عربى، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل، ثم محمد. هكذا تحولت التسمية من لغة بلدهم بخارى إلى اللغة العربية، وأسماء إسلامية مما يدل على حبهم الإسلام واعتزازهم به.

إن اسم جد البخارى «بردزبة» كلمة معناها باللغة العربية: المزارع، أو الذى يعمل بالزراعة، وهو اسم يعادل فى اللغة العربية «حارث» أى الذى يحرث الأرض.

فأى شبهة فى نسبة البخارى إلى بلده؟

وما سر حرصهم على تسميته بـ «بردزبة»؟

لا أرى إلا أنهم يريدون إهمال نسبته التى اشتهر بها، والتى صارت فخراً لبلده، وعلَما على أصح الكتب بعد كتاب الله تبارك وتعالى «صحيح البخارى» إنهم يريدون طمس الحقائق بتغيير اسم البخارى الذى اشتهر به وذاع، حتى صارت كلمة «البخارى» أشهر من اسمه «محمد بن إسماعيل» وفرق كبير بين ما لو قلنا: هذا الحديث أخرجه محمد بن إسماعيل وقلنا: أخرجه البخارى. فالثانى له كل الثقة فى نفسية كل المسلمين. أما الأول فلا يعرفه إلا القلة من المسلمين.

* * *

الشبهة الثالثة: البخارى أول من وضع السنة!!

يقول منكرو السنة: إن الأمة عاشت بدون السُّنَّة النبوية مائتى عام، فلما جاء البخارى جمع السنة من حيث لا نعلم!!

وأقول: إن السنة موجودة، تعمل بها الأمة منذ بدء الوحى، وعاشت الأمة مع

رسول الله ﷺ يُعلمها السنة، وتقتدى به ﷺ.

لقد كتب رسول الله ﷺ الكثير من السنة، وكتب كثير من الصحابة أحاديث رسول الله ﷺ. وتناقلت الأمة أحاديثه ﷺ جيلاً بعد جيل.

وجاء البخارى رضى الله عنه وكتب السنة كثيرة وفيرة.

منها ما كتبه رسول الله ﷺ وبعض كتب رسول الله ما زالت موجودة فى العالم، وكل كتبه ﷺ موجودة فى كتب السنة لقد جاء البخارى وكثير من الكتب المؤلفة فى السنة متداولة منشورة، بل إن كتب الفقه ـ التى هى خلاصة التفسير والحديث ـ كانت قد ظهرت، مشتملة على الكثير من نصوص السنة، وكتب الحديث دراية كانت قد ظهرت.

ومنها ما كتبه الصحابة أمامه ﷺ كالصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو، وكتاب الفرائض لزيد بن ثابت، ومنها ما كتبه الصحابة لأنفسهم.

ومنها ما كتبه التابعون كالصحيفة الصحيحة لهمام بن منبه، والتى نُسختُها الخطية موجودة بالمكتبات، وقد طُبعت وشاعت، وهى موجودة فى ثنايا كتب السنة.

فكتب أبى حنيفة فى الحديث ـ له عشرون كتابًا فى الحديث ـ والفقه كانت قد شاعت، فأبو حنيفة توفى قبل أن يولد البخارى بنصف قرن تقريبًا [توفى أبو حنيفة سنة ١٥٠هـ، وولد البخارى سنة ١٩٤هـ]، وعليه فعشرون كتابًا فى السنة لأبى حنيفة كانت شائعة قبل أن يولد البخارى، ومذهبه الفقهى كان قد نضج واشتد عوده، وشاع وذاع.

* والإمام مالك ألف كتابه الشهير «الموطأ» قبل أن يولد البخارى بزمان، توفى الإمام مالك سنة ١٧٩هـ، وكان قد ألف الموطأ قبل موته بأربعين عامًا، أى أنه ألفه سنة ١٤٠هـ قبل مولد البخارى بأربعة وخمسين عامًا. وكتاب الموطأ لم يهدف الإمام مالك فيه جمع السنة، وإنما هدف توطئتها، أى تقريبها للناس، كما هو واضح من اسم الكتاب. وأيضًا كان الإمام مالك قد ألف مذهبه الفقهى، المعتمد على الكتاب والسنة، والذى شاع فى البلاد الإسلامية.

* وكذلك الإمام الشافعى له مؤلفات كثيرة، كلها معتمدة على الكتاب والسنة، فله:

ـ مسند الشافعى.

ـ وسنن الشافعى.

ـ والأم فى الفقه، وأحاديث يسوقها بالإسناد.

ـ والرسالة فى أصول الفقه، ومصطلح الحديث.

ـ وجماع العلم فى أصول الفقه ومصطلح الحديث.

ـ واختلاف الحديث فى مصطلح الحديث.

وكتبه تدل على أن السنة تعدت طور الجمع والكتابة، إلى طور التدوين والتبويب، مع الاستنباط، والتحقيق.

لقد ولد الشافعى سنة ١٥٠هـ وتوفى ٢٠٤هـ والبخارى يوم مات الشافعى كان عنده عشر سنوات، وكانت كتب الشافعى هذه قد شاعت فى الآفاق، مليئة بأحاديث رسول الله ﷺ، وبأصول الحديث وهو ما يسمى بـ «مصطلح الحديث».

* وكذلك الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١هـ له كتابه «المسند» الذى قال فيه «عملت هذا الكتاب إمامًا، إذا اختلف الناس فى سنة رسول الله ﷺ رُجع إليه».

لقد بدأ الإمام أحمد فى تأليف المسند سنة ١٨٠هـ وذلك قبل أن يولد البخارى بأربع عشرة سنة.

هؤلاء هم الأئمة الأربعة الفقهاء: أبو حنيفة، ومالك، والشافعى، وأحمد كانوا قبل البخارى تأليفًا، وتصنيفًا، بل إن البخارى لم يرو عن الثلاثة المتقدمين منهم، فإنهم ماتوا قبله، فروى عن تلامذتهم، وروى فقط عن الإمام أحمد، ولقد اقتدى بهم، واستفاد بعلمهم.

وغير الأئمة الأربعة الفقهاء كثير من أئمة الأمة ألفوا وصنفوا، قبل البخارى رضى الله عنه:

ـ فمعمر بن راشد المتوفى ١٥٣هـ له كتابه «الجامع» وقد حُقق لكنه حبيس فى

مطبعته. ومعمر هذا من شيوخ شيوخ البخارى.

ـ وعبد الله بن المبارك المتوفى ١٨١هـ له العديد من المؤلفات فى السنة النبوية، وكثير منها مطبوع شائع، وهو ليس من شيوخ البخارى، وإنما من شيوخ شيوخه، ولقد حفظ البخارى كتب ابن المبارك وهو صغير[١].

ـ ومحمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة له «الآثار» وغيره وقد توفى ١٨٩هـ.

ـ وأبو يوسف صاحب أبى حنيفة أيضًا له كثير من المؤلفات، وقد توفى ١٨٢هـ.

ـ وأبو داود الطيالسى له «المسند» وهو مطبوع شائع، وقد توفى ٢٠٤هـ.

ـ وعبد الرزاق الصنعانى، صاحب المؤلفات، والتى من أشهرها «المصنف» وهو مطبوع شائع، وكذلك «التفسير» وهو تفسير بالمأثور، وهو مطبوع شائع، وقد توفى عبد الرزاق سنة ٢١١هـ.

ـ وعبد الله بن محمد بن أبى شيبة، صاحب المؤلفات، والتى من أشهرها «المصنف» وهو مطبوع، شائع توفى ابن أبى شيبة ٢٣٥ هـ.

ـ والحميدى عبد الله بن الزبير القرشى المتوفى ٢١٩ هـ أحد شيوخ البخارى وله «المسند» وهو مطبوع وله «التفسير» وله غير ذلك من المؤلفات.

ـ وعلى ابن الجعد بن عُبيد الجوهرى المتوفى ٢٣٠هـ عن ست وتسعين سنة، أحد شيوخ البخارى وله «المسند» ويسمى «الأجزاء الجعديات» وقد قمت بتحقيقه لنيل درجة العالمية «الدكتوراه» وقامت بطبعه مكتبة الفلاح بالكويت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

هذه مجموعة من كتب السنة التى كانت قبل البخارى، كتب الأئمة الأربعة الفقهاء، وكتب غيرهم من المحدثين، يتضح منها أن السنة قد خُدمت خدمة جيدة قبل البخارى، وجاء البخارى والمؤلفات فى السنة تعدت مرحلة الكتابة، وتعدت مرحلة التدوين، وأصبحت فى مرحلة التجميل، فصنفت السنة على كل وجه،

(١) تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٥٥.

وخدمت بكل سبيل، وفُحِصَت ومُحِّصَت.

ومن هنا فإن القول بأن السنة لم تكن موجودة إلى مائتى عام من بدء الأمة، حتى جاء البخارى فاختلقها، هذا قول كذب تمامًا، وقائلوه يشوهون صورة الفكر والثقافة، وإنى أعجب من أقلام تكتب الكذب وتشيعه، كيف قبلت لنفسها هذا؟

والمنظمات الثقافية تتيح لهؤلاء فرصة شيوع أفكارهم!!

وبعض دور النشر تذيع كتبهم!! والكاذب فاجر، ومن ساعد على شيوع الكذب أيضًا فاجر.

وليس أمامى إلا أن أقول للمسلم: لا يعنينا الشر أن يوجد، ولا يهمنا الباطل أن يولد، وإنما المهم أن يكون المسلم عالمًا بالحق، متمسكًا بالصدق.

المهم أن يكون المسلم دارسًا فاهمًا الإسلام، واثقًا بدينه.

* * *

كتاب «صحيح البخارى»

بلغ البخارى أعلى الدرجات فى معرفة حديث رسول الله ﷺ، اعترف له بذلك شيوخه وأقرانه، وتلامذته، كما سبق أن بينت، ولقد ألف كتابه المشهور بـ «صحيح البخارى» على درجته العلمية هذه، أعمل فيه فكره، وبذل فيه جهده، ابتعد كل البعد عما فيه ضعف، وإنما انتقى من الروايات أعلاها وأعلاها، واشترط فى الرواة أكمل الشروط، وأعلى المراتب، نظر إلى أحاديث رسول الله ﷺ نظرة إمام حافظ متمكن فكانت أمام عينيه مُرَتَّبَةً من أعلا إلى أدنى، فأخذ من الأعلى، وأودعه كتابه، أخذ من الأعلى ما غطّى به كل أبواب الإسلام، من عقيدة، وشريعة، وأخلاق، وغير ذلك. مشترطًا على نفسه أدق الشروط، ملزمًا نفسه أن لا يضع فى كتابه إلا أصح الأحاديث.

لقد أودع البخارى علمه فى هذا الكتاب، وهو إمام المحدثين، وحائز قصب السبق فى علوم الإسلام جميعها، لقد أثمرت فى هذا الكتاب علوم كثيرة جمع بينها البخارى، فمن علوم الإسناد، وعلوم الرجال، وعلوم العلل، وعلوم الجرح

والتعديل، وعلم الفقه وأصوله، وعلوم اللغة وأدبها، هذا كله مع تفسير القرآن الكريم، وعلوم القرآن والقراءات، ومع أخبار الصحابة وفقههم، وأخبار التابعين وعلومهم، وأخبار الأئمة واجتهاداتهم، لقد اجتهد البخارى فى هذه العلوم وغيرها فتقدم وزاد، فاجتهد بها كلها فى تأليف هذا الكتاب كل الاجتهاد، فجاء كتابًا اعترف بفضله وعُلُو مكانته الأئمة الأعلام، أهل الدراية بالحديث وعلومه، وأهل الخبرة بالفقه وأصوله، وأهل اللغة والتفسير، وعلماء العقيدة، وأهل الدراية بالبحث العلمى ومناهجه.

* يقول الإمام النسائى، صاحب كتاب «سنن النسائى» الذى هو أحد الكتب الستة: ما فى هذه الكتب كلها أجود من كتاب محمد بن إسماعيل.

يقول الحافظ ابن حجر ـ بعد أن أورد كلام النسائى هذا ـ والنسائى لا يعنى بالجودة إلا جودة الأسانيد، كما هو المتبادر إلى الفهم من اصطلاح أهل الحديث، ومثل هذا من مثل النسائى غاية فى الوصف، مع شدة تحريه وتوقيه، وتَثَبُّته فى نقد الرجال، وتقدمه فى ذلك على أهل عصره، حتى قَدَّمَهُ قومٌ من الحذاق فى معرفة ذلك على مسلم بن الحجاج، وقدمه الدارقطنى وغيره فى ذلك على إمام الأئمة أبىَ بكر بن خزيمة صاحب الصحيح[1].

* ويقول المحدث الفقيه الحافظ أبو بكر الإسماعيلى صاحب المستخرج على البخارى أحد أئمة القرن الرابع الهجرى (توفى ٣٧١): إنى نظرت فى كتاب الجامع الذى ألفه أبو عبد الله البخارى فرأيته جامعًا ـ كما سُمِّىَ ـ لكثير من السنن الصحيحة، ودالاً على جمل من المعانى الحسنة المستنبطة، التى لا يكمل لمثلها إلا من جمع إلى معرفة الحديث ونقلته، والعلم بالروايات وعللها، علمًا بالفقه واللغة، وتمكُّنًا منها كلها، وتبحُّرًا فيها، وكان يرحمه الله الرجل الذى قَصَرَ زَمَانَه على ذلك فبرع، وبلغ الغاية فحاز السبق، وجمع إلى ذلك حسن النية، والقصد للخير، فنفعه الله، ونفع به. قال: وقد نحا نحوه فى التصنيف جماعة منهم الحسن بن على الحلوانى، لكنه اقتصر على السنن[2]. ومنهم أبو داود السجستانى،

(١) هدى السارى ص١٠، ١١، ٤٨٩ وتهذيب الكمال ص٤٤٢.

(٢) أى أحاديث الأحكام.

وكان فى عصر أبى عبد الله البخارى، فسلك فيما سماه «سننًا»[١] ذكر ما روى فى الشىء[٢]، وإن كان فى السند ضعف، إذا لم يجد فى الباب غيره. ومنهم مسلم ابن الحجاج، وكان يقاربه فى العصر، فرام مرامه، وكان يأخذ عنه، أو عن كتبه إلا أنه لم يضايق نفسه مضايقة أبى عبد الله، وروى عن جماعة كثيرة لم يتعرض أبو عبد الله للرواية عنهم، وكلٌّ قصد الخير، غير أن أحدًا منهم لم يبلغ من التشدد مبلغ أبى عبد الله، ولا تسبب إلى استنباط المعانى، واستخراج لطائف فقه الحديث، وتراجم الأبواب الدالة على ما له وَصْلَةٌ بالحديث المروى فيه لسببه، ولله الفضل يختص به من يشاء[٣].

* ويقول أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى العقيلى أحد أئمة القرن الرابع الهجرى، المتوفى (٣٢٢هـ) صاحب المصنفات النافعة، يقول: لما صنّف البخارى كتاب الصحيح عرضه على: ابن المدينى، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وغيرهم، فاستحسنوه، وشهدوا له بالصحة إلا أربعة أحاديث. قال العقيلى: والقول فيها قول البخارى، وهى صحيحة[٤].

* ها هو النسائى يشهد بأن صحيح البخارى أجود كتاب أُلِّف فى السنة.

* وها هو الإسماعيلى يشهد بأن البخارى تشدد فى التصحيح، وضمّن كتابه الكثير من الفوائد.

* وها هو العقيلى يشهد بأن كبار الأئمة قد شهدوا بصحة كل أحاديث صحيح البخارى.

وكل هذا يفيد أن صحيح البخارى أصح كتب **السنة**، وأكثرها فائدة.

وأزيد الأمر تأكيدًا:

* يقول أبو أحمد محمد بن أحمد الحاكم **الكبير** محدث خراسان فى عصره،

---

(١) أى سنن أبى داود، وهو أحد الكتب الستة التى عليها **مدار** السنة النبوية.

(٢) أى ما روى فى المسألة من أحاديث وآثار.

(٣) يريد أن البخارى وضع عناوين للأبواب تدل على معنى الحديث. وكلام الإسماعيلى هذا فى هدى السارى ص١١.

(٤) هدى السارى ص٤٨٩.

له مؤلفات تدل على دقة وقوة فى العلم، توفى ٣٨٨هـ يقول أبو أحمد الحاكم هذا: رحم الله محمد بن إسماعيل الإمام، فإنه الذى ألّف الأصول، وبيّن للناس، وكل من عمل بعده فإنما أخذه من كتابه، كمسلم فرّق أكثر كتابه فى كتابه، وتجلّد فيه حق الجلادة حيث لم ينسبه إليه[١].

* وواضح من كلام أبى أحمد الحاكم أن البخارى مَهّد الطريق، وسبق، ومع سبقه بالمنهج سبق أيضًا بالأفضلية، أى أنه سَبْق زَمَنِىٌّ ورُتْبِىٌّ.

* ويقول الإمام صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدى، وهو أديب، مؤرخ، وله اعتناء بالحديث، كما أنه ممن اعتنى بالفقه، وله مؤلفات نافعة منها: «الوافى بالوفيات» و «نكت الهميان». توفى سنة ٧٦٤هـ يقول الصفدى هذا: وجامعه ـ أى البخارى ـ أجلُّ كتب الإسلام فى الحديث، وأفضلها بعد كتاب الله تعالى[٢].

والصفدى إلفى به أنه الإمام الدقيق فى عبارته المتحرى فى دراساته يشهد لصحيح البخارى بهذه الشهادة أجل كتب الإسلام فى الحديث وأفضلها بعد كتاب الله تعالى.

وأسوقَ أيضًا:

* يقول الإمام أبو سليمان حَمْد بن محمد الخطابى المتوفى ٣٨٨: أصبح هذا الكتاب ـ صحيح البخارى ـ كنزًا للدين، وركازًا للعلوم[٣]، وصار بجودة نقده، وشدة سبكه حكَمًا بين الأمة فيما يراد أن يُعْلَم من صحيح الحديث وسقيمه، وفيما يجب أن يعتمد ويُعَوَّل عليه منه[٤].

* ها هو الخطابى أحد أئمة القرن الرابع الهجرى، أحد شراح صحيح البخارى يشهد بمكانة البخارى، وأنه جمع الفوائد ما جعله كنزًا للإسلام، وصار حكمًا فى دائرة الحديث النبوى، فإذا قيل: رواه البخارى اطمأن الجميع وأخذ به، لقد رسم

(١) هدى السارى ص٤٨٩.

(٢) الوافى بالوافيات.

(٣) أى مصدرًا للعلوم، و «الركّاز» ما يوجد فى بطن الأرض من المعادن.

(٤) أعلام الحديث ١/ ١٠٢.

البخارى منهج التصحيح، وطبقه خير تطبيق.

* ويقول الإمام الكرمانى محمد بن يوسف بن على، أحد أئمة القرن الثامن الهجرى (توفى ٧٨٦)، وأحد شراح صحيح البخارى، يقول: وكتاب الجامع الصحيح للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ـ جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا ـ أجلُّ الكتب الصحيحة نقلاً ورواية، وفهمًا ودراية، وأكثرها تعديلاً وتصحيحًا، وضبطًا وتنقيحًا، واستنباطًا واحتياطًا. وفى الجملة هو أصح الكتب المؤلفة فيه على الإطلاق، والمُقْبَلُ عليه بالقول من أئمة الآفاق، وقد فاق أمثاله فى جميع الفنون والأقسام، وخص بالمزايا من بين دواوين الإسلام، تشهد له بالبراعة والتقدم الصناديد العظام، والأفاضل الكرام.

وفوائد هذا الكتاب العظيم الشأن، الرفيع المقدار، الذى يستسقى ببركاته، ويستشفى بختماته، أكثر من أن تحصى، وأغزر من أن تستقصى(١).

فهل بعد هذه الشهادات لصحيح البخارى يأتى أحد المعاصرين فينتقد صحيح البخارى؟!

إن هذه الشهادات للبخارى ولكتابه الصحيح صدرت من كبار أئمة الحديث، مما لا يدع مجالاً لقبول أى شبهة فى صحيح البخارى.

إن الأئمة قرؤوا صحيح البخارى، واعترفوا بفضله ومنزلته، وهم الأئمة الأعلام، أهل الدراية بالسنة وعلومها، وأهل الخبرة بالرواية ورجالها، فقولهم المعتمد، ورأيهم المستند، إنهم أجمعوا على عظم مكانة صحيح البخارى، ودرسوا ومحصوا، وبالإجماع اعترفوا بمكانة صحيح البخارى. وعليه فلا يقبل قول قائل فيه.

يقول محمد بن يوسف الفربرى: سمع كتاب «الصحيح» لمحمد بن إسماعيل تسعون ألف رجل(٢).

إن هذا الإقبال من الأمة على رواية الصحيح لهو خير دليل على علو همة

---

(١) الكواكب الدرارى شرح صحيح البخارى ١/ ٣.

(٢) سير النبلاء ١٢/ ٣٩٨، ٤٦٩.

الأمة، وعلو المكانة العلمية لعلمائها، وهو أيضًا خير دليل على علو مكانة صحيح البخارى.

وأذكر هنا بعض الأبيات التى قيلت فى مدح صحيح البخارى:

صحيح البخارى لو أنصفوه لما خُطّ إلا بماء الذهب
هو الفَرْق بين الهُدَى والعمى هو السدُّ بين الفَتَى والعَطَب
أسانيدُ مثلُ نجوم السماء أمام مُتُون كَمِثْلِ الشُّهُب
به قام ميزانُ دين الرسولِ ودَانَ به العُجْم بعد العرب
حجاب من النار لا شك فيه يُميِّز بين الرِّضى والغضب
وسِتْرٌ رقيق إلى المصطفى ونَصٌّ مبين لكَشْف الرِّيَبْ
فَيَا عالما أجمع العالِمُون على فضل رتبته فى الرتب
سبقت الأئمة فيما جمعت وفزت على رغمهم بالقصب
نفيت الضعيف من الناقلين ومن كان متهما بالكذب
وأبرزت فى حسن ترتيبه وتبويبه عجبًا للعجب
فأعطاك مولاك ما تشتهيه وأجزل حظك فيما وهب[1]

* * *

دفع الشبهات عن صحيح البخارى

إن كتاب البخارى «الصحيح» والذى أثنى عليه جهابذة العلماء، وكبار الأئمة، ممن شهدت لهم الأمة بالتقدم فى علوم السنة، وأنهم بلغوا فى علم الحديث الغاية، إنه كتاب ألفه إمام فاق أقرانه فى هذا التخصص، واعترف له أهل عصره فمن بعدهم بالتقدم والسبق فى هذا العلم، وقُرِئ الكتاب عليهم، وشاع فى الأمة، وقرأه كبار علماء الحديث، فأثنوا عليه خيرًا، وشهدوا له بكل تقدم.

إن أهل التخصص فى علم الحديث النبوى الشريف، والذين هم أهل الدراية

(١) سير النبلاء ١٢/ ٤٧١ والبداية لابن كثير ١١/ ٣٢.

والعمق فى كل فروع المعرفة الحديثية، هؤلاء جميعًا قد اعترفوا للإمام البخارى بأنه تبوأ أعلى مكانة فى هذا التخصص، وأن كتابه «الصحيح» قد حاز أسمى المنازل.

وإن كتابًا مثل هذا ما كنا نتصور أن ينتقده أحد، لا من المتخصصين ولا من غيرهم، إلا أنه للأسف ظهر فى زماننا أناس ليسو بالمتخصصين فى الحديث، ولا دراية لهم بهذا العلم، لا بقسم الدراية، ولا بقسم الرواية، لا خبرة لهم بهذا الأمر نهائيًا، لكنهم وبكل جرأة، بل وبكل مغالطة، راحوا ينتقدون صحيح البخارى!!

ومن خلال قراءتى ما كتبوا، وأحاديثى معهم، ظهرت الحقائق الآتية:

١ ـ عدم موضوعية النقد:

لم يستطع أحد من منتقدى البخارى أن يقدموا لنا نقدًا موضوعيًا، يقوم على أسس البحث العلمى، كأن يأخذوا عليه أنه روى حديثًا فى إسناده راو كذاب، أو يذكروا لنا حديثًا عنده يتعارض مع آية قرآنية، أو مع العقل.

والسبب فى ذلك واضح، فإنهم لا قدرة لهم على نقد البخارى نقدًا صحيحًا، كيف لا، ولم يستطع أحد على مدى التاريخ نقد البخارى!؟

ولقد تتبعت اعتراضاتهم على البخارى، فلم أجد اعتراضًا لهم يصح ولقد قدمت شيئًا من ذلك، عند كلامى على اعتراضاتهم على بعض الأحاديث، كاعتراضهم على حديث «لولا حواء لم تخن أنثى زوجها».

واعتراضهم على حديث: «إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم...».

٢ ـ التَّجنِّى على البخارى!!

إنهم لما لم يستطيعوا أخذ أى خطأ على البخارى، راحوا يفترون عليه، ويتجنَّوْن على كتابه «الصحيح» فراحوا يفسرون الأحاديث على حسب أهوائهم، ويصطنعون تعارضًا بينها، وبين القرآن الكريم. ويتكلفون المآخذ على الأحاديث، فمثلا يتكلفون تعارضًا بين أحاديث الشفاعة وبين آيات من القرآن الكريم، فيأخذون أحاديث الشفاعة من صحيح البخارى، ويقيمون بينها وبين بعض آيات القرآن الكريم تعارضًا، ثم يخلصون إلى أنه ما دامت هذه الأحاديث تتعارض مع

القرآن، فإنها ليست صحيحة، وبالتالى فصحيح البخارى فيه أحاديث مكذوبة هكذا يدّعون، ويفترون.

ومن تأمل الأحاديث والآيات القرآنية، لا يجد بينها تعارضًا، وإنما يجد بينها اتفاقًا تامًا، وبالتالى فالأحاديث صحيحة، ولا يعترض على ذكر البخارى لها فى صحيحه.

إن أحاديث الشفاعة لم ينفرد بها البخارى، وإنما أخرج البخارى بعضها، وأخرج غيره من الأئمة الكثير منها، وهم يفردون البخارى بالنقد،، حرصًا على تحطيمه، فهو أقوى الأئمة، وكتابهُ أصح كتب السنة، فتحطيمه تحطيم لكل كتب السنة، هكذا يفكرون ويدبرون، والله من ورائهم محيط.

خذ مثلاً:

* حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطَهُورًا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلِّ. وأُحِلّت لى المغانم، ولم تحل لأحد قبلى. وأُعطيت الشفاعة. وكان النبى يُبْعَث إلى قومه خاصة، وبُعِثْتُ إلى الناس عامة».

هذا الحديث أخرجه البخارى[1] وغيره، ومنكرو السنة يجعلونه متعارضًا مع القرآن الكريم، مع الآيات التى تفيد أن أهل النار لا يخرجون منها، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿يريدُون أن يخرُجوا من النّارِ وما هُم بخارِجين منها ولهُم عذاب مُّقيم﴾[2].

والمتأمل فى الحديث والآية يجد أن قائل ذلك متجنٍّ على الحقيقة، بعيد عن الصواب، بل إنه متعصب للباطل، ذلك أن الآية الكريمة فى شأن الكافرين، والحديث فى شأن المسلمين ، فقبل هذه الآية يقول الله تعالى: ﴿إنَّ الّذين كفرُوا لوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى الأَرْضِ جَميعًا ومثلهُ معهُ ليفتدُوا به من عذاب يوْم الْقيامة ما تُقبِّل منهُمْ

(١) رقم ٣٣٥.

(٢) سورة المائدة الآية ٣٧.

إن الله العظيم الخبير يعلم ماذا سيحدث، يعلم سبحانه هذه المراجعة من موسى وملك الموت، ويعلم سبحانه أن موسى سيطلب أن يُقَرَّب من الأرض المقدسة أقل مسافة، مسافة رمية بحجر، يعلم الله ذلك، فأرسل له ملك الموت قبل ميعاد قبض روحه بفترة تتسع لكل ذلك، فأى تعارض بين الحديث وآيات الأجل؟

ليس فى الحديث ما يفيد تأخر موسى عن ميعاده، وإنما فيه أن مراجعة حدثت بين رسول من رسل الله، وبين مَلَك من ملائكة الله، فأى غرابة فى هذا؟ إنه لا غرابة ولا تعارض عند أى منصف.

ويقيمون اعتراضًا ثانيًا على الحديث فيقولون: كيف يفقأ موسى وهو رسول من رسل الله عين مَلَك من ملائكة الله؟.

يقول الحافظ ابن خزيمة: وإنما لطم موسى ملك الموت لأنه رأى آدميًا دخل داره بغير إذنه، ولم يعلم أنه ملك الموت، وقد أباح الشارع فقوء عين الناظر فى دار المسلم بغير إذنه. وقد جاء الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط فى صورة آدميين فلم يعرفاهم ابتداء، ولو عرفهم إبراهيم لما قدم لهم المأكول، ولو عرفهم لوط لما خاف من قومه. انتهى كلام ابن خزيمة.

قلت نعم جاء الملائكة إبراهيم فلم يعرفهم، وقدم لهم الطعام، ولو كان يعرفهم لما قدم لهم الطعام، فالملائكة لا يأكلون، يقول الله سبحانه:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾[1].

وجاء الملائكة لوطًا فلم يعرفهم، خاف عليهم أذى قومه لهم، والملائكة فوق ذلك، لكنهم لما جاءوا فى صورة رجال لم يعرف أنهم ملائكة، يقول الله تعالى:

---

(١) سورة الذاريات الآيات ٢٤ ـ ٣٠.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١).

هكذا جاء الملائكة لوطًا فلم يعرفهم، ومن هنا فلا غرابة أن يثبت الحديث أن موسى لم يعرف ملك الموت، إذ جاءه فى صورة رجل، فظنه إنسانًا دخل عليه بيته، فضربه على عينه ففقأها، إنه لا غرابة فى الأمر.

واعترض أعداء السنة اعتراضًا ثالثًا على هذا الحديث، فقالوا: كيف تفقأ عين ملك الموت؟

والجواب: إن موسى فقأ عين ملك الموت التى هى تخييل، وليست عينًا حقيقة، فإن ملك الموت جاء فى صورة رجل، وهذا نوع من التشكل، وليست هذه حقيقته، ولو جاء على حقيقته لكان الموقف غير ذلك.

وحينما يتشكل الملك على صورة من الصور، فإنه يأخذ حكم صاحب هذه الصورة، فلما تشكل على صورة رجل، والرجل يمكن أن تفقأ عينه، فُقِئت عينه، ولا غرابة فى الأمر نهائيًا(٢).

مثالاً ثالثًا:

يثير منكرو السنة شبهة على البخارى، وعلى أبى هريرة معًا، مفادها أنه أخرج البخارى عن أبى هريرة أنه قال: صليت خلف النبى ﷺ الظهر فصلى ركعتين فقال ذو الشمالين أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟

---

(١) سورة الحجر الآيات ٦١ ـ ٧١.

(٢) لقد نقلت هذه الأجوبة من فتح البارى بشرح صحيح البخارى، عند شرح هذا الحديث ورقمه ٣٤٠٧، وواضح أن هذه الاعتراضات قديمة، فعمرها أكثر من ألف سنة، فلقد أجاب عليها الحافظ ابن خزيمة المتوفى ٣١١. راجع فتح البارى ٦/ ٤٤٢.

يقولون: إن أبا هريرة قدم المدينة سنة سبع.

وإن ذا الشمالين مات سنة اثنتين.

فلا يمكن أن يجتمعا، فإما أن أبا هريرة كذب، وأخرج البخارى كذبه.

وإما أن البخارى أخطأ، وكتب فى الصحيح خطأ.

والجواب: لا كذب أبو هريرة، ولا أخطأ البخارى، وإنما كذبتم أنتم فى كلمة واحدة من الحديث، غيرتم بها المعنى، وأعطيتم أنفسكم فرصة التطاول على الأعلام.

إن نص الحديث عند البخارى هكذا:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «صلى بنا النبى ﷺ الظهر - أو العصر - فسلم، فقال له ذو اليدين: الصلاة يا رسول الله أنقصت؟ فقال النبى ﷺ لأصحابه: أحق ما يقول؟ قالوا: نعم. فصلى ركعتين أخريين، ثم سجد سجدتين»[1].

وواضح من نص الحديث أن الذى سأل النبى ﷺ هو ذو اليدين، فغيرتم ذلك، وجعلتموه ذا الشمالين، وذو الشمالين مات فى السنة الثانية، قتل يوم بدر شهيدًا[2]. أما ذو اليدين فهذا صحابى عمّر طويلاً، وعاش بعد رسول الله ﷺ زمنًا حتى روى عنه المتأخرون من التابعين[3]، فلما غيرتم الكلمة استشكلتم فى حين لا إشكال فى الحديث. وإنما أنتم الذين غيرتم كلمة واستشكلتم بها.

فإذا كان ذو الشمالين هو الذى سأل رسول الله ﷺ، وذو الشمالين هذا مات سنة اثنتين، فكيف يحضر أبو هريرة القصة وقد وصل المدينة سنة سبع بعد موت ذى الشمالين بأكثر من أربع سنين؟ هذا استشكال بناء على ما غيرتم فى الحديث، أما الحديث بدون تغييركم فلا إشكال فيه، فإن الذى سأل رسول الله ﷺ هو ذو اليدين، وقد عاش مع أبى هريرة فى حياة رسول الله أربع سنوات، وعاش معه

(١) أخرجه البخارى فى كتاب السهو باب إذا سلم فى ركعتين. . . ٣/ ٩٦ رقم ١٢٢٧.
(٢) راجع ترجمته فى الاستيعاب ٢/ ٤٦٩ رقم ٧١٦.
(٣) ترجمته فى الاستيعاب ٢/ ٤٧٥ رقم ٧٢٤.

عمرًا بعد موت رسول الله ﷺ فلا إشكال مطلقًا.

وللعلماء كلام بلغ الغاية فى الجودة والدقة فى شرح هذا الحديث، ومناقشة رواياته، والتمييز بين ذى الشمالين، وذى اليدين(١)، وما كلفتم أنفسكم إلا السير فى طريق الضلال والإضلال، فبينما يبحث علماء الإسلام بحثًا مستقيمًا رحتم أنتم فأخذتم من بحثهم ما تشككون به.

ومثالاً رابعًا:

وها هم يدندنون هذه الأيام بالاعتراض على أحاديث من صحيح البخارى، فيقولون هل يعقل أن يكون شفاء الأمراض فى الحبة السوداء؟

هل يعقل أن يقول رسول الله ﷺ «الحبة السوداء شفاء من كل داء». ؟

ثم يزيدون قائلين: فلنغلق المستشفيات، ولنهدم الصيدليات. انتهى كلامهم.

وأقول: الحديث الذى يقصدونه هو حديث: «الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام».

وهو حديث أخرجه البخارى(٢)، وأخرجه أيضًا مسلم، وأخرجه أيضًا الترمذى، وأخرجه أحمد فى كثير من المواضع، وهو حديث صحيح، بل فى أعلا درجات الصحة.

وإنى أتساءل مع منكرى السنة: ما وجه اعتراضكم على هذا الحديث؟

أجرّبتم الحبة السوداء فلم تجدوا فيها شفاء؟ إننا بحمد الله نستفيد بها، ونسعد بفائدتها.

أقمتم دراسات عليها، فأثبتت البحوث أنه لا شفاء فيها؟

بدهى كل ذلك لم يحدث، فإنه لو حدث لملأتم الدنيا ضجيجًا، وصراخًا.

إنه رسول الله ﷺ قال ذلك منذ مئات السنين، والأمة هنا وهناك تستفيد بهذا الحديث العظيم الفائدة.

---

(١) راجع فتح البارى شرح حديث رقم ١٢٢٧ جـ٣ ص٩٦ وراجع الاستيعاب فى الموطنين السابقين، وراجع الإصابة جـ٢ ص٤١٤، ٤٢٠.

(٢) فى كتاب الطب باب الحبة السوداء ١٠/١٤٣ رقم ٥٦٨٧ و ٥٦٨٨.

وأهل الطب والتجارب قديمًا وحديثًا يعرفون عظيم فائدة الحبة السوداء، ورواد البحث العلمى حديثًا يعترفون بعناصرها المفيدة، وبخاصة فى تقوية جهاز المناعة، هذا الجهاز الذى إذا سلم فى جسم الإنسان حصنه ضد الأمراض. فهو الجهاز المخلوق لدرء المخاطر عن جسم الإنسان.

لقد أثبتت البحوث أن الحبة السوداء تحتوى على العناصر الآتية:

الفوسفات، والحديد، والفوسفور، والكربوهيدرات، والزيوت الطيارة.

كما أنها تحتوى على مضادات حيوية، تقضى على الميكروبات، والفيروسات، والجراثيم، وبها الكاروتين، وهو مادة مضادة لمسببات السرطان.

وبها هرمونات تقوى التناسل فى الرجال والنساء.

وبها عناصر تفتح السدد، فتدر البول، والحيض. وتدر لبن الأم، والصفراء.

وبها أنزيمات هضمية، ومضادة للحموضة.

وبها مواد منبهة ومهدئة فى نفس الوقت.

لقد أثبتت البحوث أن الحبة السوداء تحتوى على مادة «النيجللون» وأمكن فصلها، واستخدامها كعلاج سريع فى حالات الربو الشعبى، والنزلات المزمنة من شدة البرد، وعلاج السعال الديكى عند الصغار خاصة، والكبار عامة.

كما أنها تحتوى على مادة «الثيموهيدروكنيون» وأمكن فصلها واستعمالها ضد بكتريا التعفن المعوى.

إن نباتًا يذكره رسول الله ﷺ دواء، فتستعمله الأمة مئات السنين، تتداوى به، ثم يأتى زمن البحث العلمى، فيجد فى هذا النبات كثيراً من المواد النافعة، ويستخلص منه الكثير من الأدوية، إن ذلك من أدلة نبوته ﷺ، وأنه لا ينطق عن الهوى، وإنما ينطق بوحى من الله تبارك وتعالى إليه، صلوات الله وسلامه عليه.

ولقد سعدت كثيراً وأنا أتحدث مع أساتذة الصيدلة و «صناع الدواء» وهم يُعْلُون من شأن «الحبة السوداء» ويذكرون مزاياها، وأن المواد التى تشتمل عليها حينما تُحَضّر لا تكون مثل الحبة السوداء، فالحبة مزيج من المادة المحضرة ومواد أخرى تجعلها أكثر فائدة.

والحبة السوداء يتناولها الإنسان اختياريًا، فإذا أخذ الجسم حاجته رفضها، أما الأدوية فإنها تدخل الجسم قهرًا، فإذا زادت عن حاجته لا يستطيع رفضها، حتى لربما قتلته.

ومن هنا أقول لمنكرى السنة إن جهلكم هنا مركب:

فجهلتم ما عرفه العامة والخاصة من فائدة: «الحبة السوداء» والمشهورة باسم «حبة البركة»!

* وجهلتم ما قاله الأطباء قديمًا عن الحبة السوداء، وما لها من فائدة!

* وجهلتم ما توصل إليه البحث العلمى من فوائد عجيبة للحبة السوداء!

ومن العجيب أن هذا الكلام يصدر من أحد الأطباء «أستاذ فى إحدى كليات الطب» وقد اتخذ من عيادته مركزًا لدعوة الناس للبُعد عن سنة رسول الله ﷺ.

يشوش هذا الطبيب وأمثاله على هذا الحديث العظيم، وبلغة غوغائية يقولون: أنغلق المستشفيات، أنهدم الصيدليات؟

سبحان الله!! إن الحديث ليس فيه شىء من ذلك، فلم يقل رسول الله أغلقوا المستشفيات، ولا اهدموا الصيدليات.

لكنى أتساءل: لو قارنا بين الأدوية النبوية، والأدوية المعاصرة لوجدنا الفارق كبيرًا للغاية، وأولى الناس دراية بذلك الأطباء، ومنذ عشرين عامًا تقريبًا أَلَّفَ أحد أساتذة الطب كتابًا بعنوان «لعنة الطب» بيّن فيه الكثير والكثير من أضرار الأدوية وعلى إثر هذا الكتاب انتحر كثير من الأطباء فلم التجنى على هَدْى الرسول المصطفى المعصوم ﷺ؟ لم التنكر للحق؟ لم إيذاء الناس فى دينهم؟

خلاصة القول: إن الحديث يدرك صحته الخاصة والعامة، أثبتت البحوث العلمية عظمته، وانتفعت به الأمة منذ فجر الإسلام، فلا اعتبار بما يغالط به أعداء السنة.

* * *

٣ ـ استحلال الكذب!!

إن أبشع الجرائم فى الساحة العلمية، أن يكذب الباحث!!

فإن الباحث إذا استعمل لباقته الفكرية لتضليل من يقرءون له، فهذه مأساة إنسانية خطيرة، ذلك أن القارئ إنما يقرأ لزيادة المعلومات الصحيحة، ووفرة الحقائق الأكيدة، فالقياس أن يبذل الباحث أقصى ما عنده لتقديم المعلومة الحقة، التى تَثَبّت منها وتأكد من صدقها.

هذا قاسم مشترك بين البشرية كلها، إلا أن الإسلام زاد ذلك وأكّد عليه.

* فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [(١)].

* وقال سبحانه: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [(٢)] أى لا تتبع ما لم تثق به. ولا تتكلم إلا بما تأكدت صدقه.

* وقال سبحانه: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [(٣)].

إلى غير ذلك من الآيات التى تحث على الصدق، وتحذر من الكذب والزور.

* وفى السنة النبوية أحاديث كثيرة فى هذا الخلق، أعنى خلق الصدق، والتحذير من الكذب والزور.

* يقول ﷺ: «إن الصدق يهدى إلى البرّ [(٤)]، وإن البرّ يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقًا. وإن الكذب يهدى إلى الفجور[(٥)]، وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»[(٦)].

* ويقول ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال ثلاثًا: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس فقال: ألا وقول الزور،

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٩.
(٢) سورة الإسراء الآية ٣٦.
(٣) سورة الحج الآية ٣٠.
(٤) اسم جامع للطاعات كلها مع الدوام والإخلاص.
(٥) اسم جامع للشر.
(٦) أخرجه البخارى فى الأدب باب قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ ١٠/٥٠٧ رقم ٦٠٩٤.

وشهادة الزور ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يقولها حتى قلت لا يسكت»[١].

* ويقول ﷺ: «آية المنافق ثلاثًا: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[٢].

ويقول ﷺ: «كَبُرَتْ خيانةً أن تحدث أخاك حديثًا هو لك به مصدق، وأنت له به كاذب»[٣].

وهكذا يستلزم خلق البحث العلمى الصدق فى كل شىء، ودين الإسلام يُرسى هذا المبدأ بنصوص القرآن والسنة، فإذا كان الباحثون غير المسلمين يلتزمون بالصدق كأمر مستحسن، ويفرون من الكذب فى البحث كأمر مستهجن، فإن الباحث المسلم يلتزم بخلق الصدق من منطلق عقيدته ودينه، من أمر الله له فى الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية. وهو ينفر من الكذب من منطلق عقيدته ودينه أيضًا، فلا يقبل أن يكذب، وإنما يحرص كل الحرص على الصدق كل الصدق.

إلا أن أعداء السنة قد ضربوا بهذا وذاك عرض الحائط، فلا هم بأخلاق الإسلام التزموا ـ وقد جاء الأمر بالصدق فى القرآن الكريم والسنة النبوية، وجاء النهى عن الكذب فى القرآن الكريم والسنة النبوية ـ ولا هم بأخلاق البحث العلمى تحلَّوْا. وإنما يكذبون فى دراساتهم على السنة النبوية، ويستحلون الكذب فى إثارة، شبههم ضد السنة، ولقد اتضح من بعض الأمثلة التى تقدمت أنهم يكذبون، ويستحلون الكذب، وفى مناظرة بينى وبين عديد منهم، قرأ أحدهم حديثين من صحيح البخارى، كأنه قد صور صفحتى الحديثين، فقرأهما من صورة صفحتيهما، إلا أنه قرأ أحد الحديثين على غير حقيقته ثم أقام بينهما التعارض، وطلبت ورقة الحديث الأول، فرفض أن يعطيها لى، فتمسكت بأنه لا بد من اطلاعى عليها، فلما أخذتها وجدت ما توقعته، لقد حَرّف، وحذف وأضاف

(١) أخرجه البخارى رقم ٥٩٧٦ ومسلم رقم ١٤٣.

(٢) أخرجه البخارى رقم ٦٠٩٥.

(٣) أخرجه أبو داود فى الأدب باب فى المعاريض ١٣/٣١٣ رقم ٤٩٥٠ عن سفيان بن أسِيد الحضرمى، وأخرجه أحمد والطبرانى عن نواس بن سمعان.

بحيث جعل الحديث يتعارض مع الحديث الآخر، ولم يكن استغرابى من تزويره هذا، وإنما كان استغرابى أننى حينما كشفت تزويره لم يبال الآخرون، وكأنه ما زوّر، ولا خان أمانة البحث العلمى.

أخرج البخارى بإسناده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: «كنا نغزو مع النبى ﷺ ليس لنا نساء، فقلنا: يا رسول الله ألا نستخصى؟ فنهانا عن ذلك»[١].

وأخرج البخارى بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله إنى رجل شاب، وأنا أخاف على نفسى العنت[٢]، ولا أجد ما أتزوج به النساء، فسكت عنى. ثم قلت مثل ذلك، فسكت عنى. ثم قلت مثل ذلك، فسكت عنى. ثم قلت مثل ذلك، فقال النبى ﷺ: يا أبا هريرة جفّ القلم بما أنت لاق، فاختص على ذلك أو ذر»[٣].

هكذا أخرج البخارى الحديثين، وواضح أنه لا تعارض بينهما، ففى الحديث الأول النهى عن الاختصاء.

وفى الحديث الثانى أيضًا النهى عن الاختصاء، جاء النهى بأسلوب التهديد، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٤] فليس فى الآية إباحة الكفر، وإنما فيها التحذير من الكفر بأسلوب التهديد، وكذلك الحديث الذى معنا، فهو ﷺ يفيد أبا هريرة بأن البعد عن الزنا ليس بالاختصاء، وإنما بتقوى الله، فإن الأتقياء مبتعدون عن الزنا، وقد جف القلم بذلك، وكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خلق له.

إلا أن منكر السنة لم يقرأ الحديث الثانى بهذا اللفظ الذى عند البخارى، وإنما قرأه بحذف بعض الكلمات، فوقف عند قوله ﷺ: «فاختص» ولم يقرأ ما

(١) أخرجه البخارى فى النكاح باب تزويج المعسر الذى معه القرآن والإسلام ٩/١١٦ رقم ٥٠٧١.
والخصاء: الشق على الخصيتين واستخراجهما، حتى يصبح الرجل لا حاجة له بالنساء.

(٢) أصل العنت المشقة، والمراد به هنا: الزنا.

(٣) أخرجه البخارى فى الموطن السابق رقم ٥٠٧٦.

(٤) سورة الكهف الآية ٢٩.

بعدها، مما جعل ظاهر الحديث إباحة الاختصاء، وبالتالى أقام معارضة بينه وبين الحديث الأول، فراح يُشَهِّر بالبخارى، وكيف أنه أخرج حديثين أحدهما ينهى عن الاختصاء، والثانى يبيح الاختصاء.

سمح له خلقه أن يحذف، وأن يكذب!!

ووافقه أشياعه، ولم ينكروا عليه هذا الكذب!!

وهكذا هم، يستبيحون الكذب فى سبيل الوصول إلى غايتهم، إنهم ليسوا طلاب حق مطلقًا، وليسوا بالباحثين صدقًا، وإنما هم أعداءٌ لدين الله، يريدون تشويهه، وصرف الناس عنه، جاءوا من ناحية السنة النبوية يريدون القضاء عليها، ظانِّين أن ذلك يُمَكِّنُهم، وبالتالى يقضون على الإسلام كله. وجهل هؤلاء أن الله حافظٌ دينه، كما قال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (١).

إن الإسلام الدين الحق قد وعد الله بحفظه، وجهلوا أيضًا أن الله سبحانه مُمَكِّنٌ لأوليائه، قال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٥٥ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢).

وهكذا استشكالاتهم على صحيح البخارى، لا شىء يصح منها، وإنما هى افتراءات وكذب على صحيح البخارى، عرت عن التحقيق والصدق، وخلت عن أصول البحث العلمى والحق، وإنما هى أكاذيب، هم أدرى الناس بكذبها، والمتخصصون يعرفون زيفها، وعامّة الأمة لا يقبلونها، فهل هذه الفئة أدرى بالحديث من أئمة الحديث؟

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٨. ومعنى «زاهق» أى مَقْضِيٌّ عليه.

(٢) سورة النور الآية ٥٥، ٥٦.

ولا يمكن أن تخفى هذه الأمور التى يذكرونها على الأمة فى القرون الماضية، هذه القرون التى كانت الأمة فيها فى قمة القوة العلمية، وبخاصة فى علوم الإسلام.

إن أى إنسان عادى يتساءل: أى استشكالات هذه، وكيف تصح هذه الاستشكالات على السنة النبوية، وعلماء الأمة يُدَقِّقُون جيلاً بعد جيل؟

إن هذا الذى يتحدثون به لا يُصَدَّق، ولا يُقبل. وحسبنا ما كان عليه سلف الأمة الصالح.

❊ ❊ ❊

وختامًا:

أسأل الله الكريم أن تكون الحقيقة قد وضحت أمام القارئ، وظهر له:

* أن السنة النبوية علم هيأ الله تبارك وتعالى له كل أسباب الحفظ والسلامة، فقام علماؤه بخدمته من كل ناحية، واعتنوا به خير اعتناء، وعلماء الأمة سلفًا وخلفًا مجمعون على ذلك، ومجمعون على أن المحدثين قاموا بما يجب على الأمة نحو السنة، مع المنهج السليم، والهَدْى المستقيم.

إن الدارس للسنة النبوية يجد من جهود المحدثين وسلامة منهجهم ما يجعله يُكِنُّ لهذا العلم وأهله كل تقدير واحترام. ولا يقبل شبهة عليه.

* * *

* أن الله تبارك وتعالى أمرنا بالعمل بالسنة النبوية فى كثير من آيات القرآن الكريم، وعليه فالعمل بالسنة عمل بالقرآن الكريم، والذين ينادون بالعمل بالقرآن نقول لهم: نعم نحن نعمل بالقرآن، والقرآن يأمرنا بالعمل بالسنة، فنعمل بهما معًا، وهما وحى الله إلى رسوله ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

* * *

* أن الشبهات التى يثيرها أعداء السنة ليست فى حقيقة الأمر شبهات، وإنما هى افتراءات وأكاذيب:

- يختلقون الأحاديث ويكْذِبُونها.

- وإذا كان الحديث يؤيدهم فى إنكار السنة حسب تأويلهم فإنهم يقولون بصحته ولو كان ضعيفًا أو موضوعًا، أما إذا كان يقف ضد فريتهم فإنهم ينكرونه ويحاربونه.

- ويفسرون الأحاديث على غير أصول الشرح، وإنما يلوون عنق النص كى يؤيدهم فى دعواهم.

- ويضربون الوحى الإلهى بعضه ببعض، فيصطنعون تعارضات بين القرآن والسنة، ولا تعارض فى حقيقة الأمر، فالوحى من مشكاة واحدة، ولا يتصور أن

يتعارض حديث مع آية، وإنما هو الافتراء والتجنِّى منهم.

***

* إنهم أناس لم يدرسوا الإسلام ولم يتخصصوا فى علومه، وإنما هم أصحاب أهواء مضلة، وقلوب مريضة، تُقدَّم لهم هذه من مراكز معادية للإسلام فيتلقفونها، ويعملون على نشرها.

ووسائل الإعلام فى معظمها فى أيدى أناس لم يدرسوا الإسلام، بل فى فكرهم تشويش على الإسلام، فيقدم أعداء السنة لهم هذه الافتراءات فتجد عندهم قبولاً. ويرونها فكرًا ورأيًا وفى الأمة طبقة تكتب دون عمق ودون تخصص، لا يعرفون أصول القراءة، ولا أصول التفكير، وهؤلاء جميعًا يظنون هذه الافتراءات سبقًا علميًا، وتقدمًا فكريًا!! والله يقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [1] لعلمه الذين يستنبطونه منهم: أى إن كل علم يؤخذ من المتخصصين فيه، وأعداء السنة ليس فيهم واحد متخصص فى السنة، فلا ينبغى مطلقًا أن يؤخذ العلم عنهم.

* أن كتب دفع الشبهات كثيرة، وهى بحمد الله مطبوعة وشائعة[2]، ولو أراد

---

(١) سورة النساء الآية ٨٣.

(٢) من هذه الكتب:

١ ـ السنة. لمحمد بن نصر المروزى.

٢ ـ السنة النبوية: مكانتها، وعوامل بقائها، وتدوينها. أ.د/ عبد المهدى عبد القادر.

٣ ـ الحديث والمحدثون أ.د/ محمد أبو زهو.

٤ ـ حجية السنة أ.د/ عبد الغنى عبد الخالق.

٥ ـ المدخل إلى السنن الكبرى. للحافظ البيهقى.

٦ ـ السنة المفترى عليها. مستشار البهنساوى.

٧ ـ السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى. أ.د/ مصطفى السباعى.

٨ ـ المدخل إلى السنة النبوية. أ.د/ عبد المهدى عبد القادر.

٩ ـ مختصر الصواعق المرسلة. للإمام ابن القيم.

١٠ ـ دراسات فى الحديث النبوى وتاريخ تدوينه. أ.د/ الأعظمى.

١١ ـ دلائل التوثيق المبكر للسنة النبوية. أ.د/ امتياز أحمد.

١٢ ـ الموافقات. للإمام الشاطبى.

هؤلاء الحق لوجدوه، لكنهم لا يريدون الحق، إنما يريدون تشويه الإسلام، وتشكيك المسلم المعاصر. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

* ومن فضل الله تعالى أن الله حذرنا هذه الأصناف فى كتابه، وحذرنا رسول الله ﷺ هؤلاء فى أحاديثه، والحمد لله على نِعَمِه.

* أن شبهاتهم تزول بأدنى دراسة لموضوعها، ولذلك فخير تحصين للمسلم ضدها أن يدرس الإسلام، وأن يكون على قدر من العلم بالكتاب والسنة.

وهذا القدر من العلم الذى ينبغى أن يكون عليه المسلم ليس منشؤه ما يثيرونه من شبه نريد التحصن ضدها، لا، وإنما منشؤه القرآن والسنة، فلقد حثنا ربنا على طلب العلم فقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [(١)]؟ وقال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[(٢)].

إن المسلم إذا علم بهذه النصوص وما فى موضوعها يكون قد فهم دينه، وتحصن ضد أى افتراء أو شبهة.

* أرجو أن يكون ردى على شبهاتهم هذه مُقْنِعًا للمسلم بأن لا يقبل أى استشكالٍ على دينه، وأن يقيس الأمور على بعضها فكما اتضح زيف كلامهم فى هذه الشبهات فهو زيف فى غيرها مما سيثيرونه.

إن الإسلام دين الله، وهو الحق الذى لا شك فيه، فإذا حاول مفتر أن يشكك فيه، فنحن نزدرى هذا المفترى، ولا يزيدنا ذلك إلا إعظامًا لدين الله تبارك وتعالى.

* إن أسلوب أعداء السنة مخادع مراوغ، يوهم من يقرؤه أنهم طلاب حق، لكن البحث يثبت أنهم ضلال، فلا ينخدع المسلم بأساليبهم، فإنهم يشوشون ويغالطون.

* لقد حاول كثير من المخلصين الأخذ بأيديهم إلى الحق لكنهم أبوا إلا الاستمرار فى هذا الخط، وبكل إلحاح وتفان، يعادون دين الله متسترين بأسماء

(١) سورة الزمر الآية ٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه رقم ٢٢٤ وهو حديث حسن لغيره.

إسلامية، وبألقاب اصطناعية مثل «كاتب إسلامى» و «مفكر إسلامى» وأسأل الله الهداية للجميع، وأسأله سبحانه أن يثبتنا على الحق، وأن يعيذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على عبدك ورسولك سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين.

والحمد لله رب العالمين

* * *

أهم المراجع
مرتبة على حروف المعجم دون مراعاة (أل) و (كتاب)

* القرآن الكريم
* الآداب الشرعية. لابن مفلح الحنبلى. الناشر مكتبة ابن تيمية بالقاهرة.
* الإبانة عن أصول الديانة. لأبى الحسن الأشعرى. طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٩٧٥.
* الإتقان فى علوم القرآن. للسيوطى. طبع الهيئة المصرية. ١٩٧٤.
* اجتماع الجيوش الإسلامية. لابن القيم. تحقيق بشير عيون. مكتبة دار البيان ١٤١٦/١٩٩٦.
* الإحسان فى تقريب صحيح ابن حبان. تحقيق شعيب الأرناؤوط. طبع مؤسسة الرسالة.
* الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم. تحقيق الشيخ أحمد شاكر. طبع دار الآفاق الجديدة بيروت ١٤٠٠/ ١٩٨٠.
* أحكام القرآن لابن العربى. تحقيق البجاوى. طبع عيسى الحلبى. ١٣٨٧/ ١٩٦٧.
* أدب الإملاء والاستملاء. للسمعانى. دار الكتب العلمية. بيروت.
* إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكانى. دار الفكر.
* الأسماء والصفات للبيهقى. دار الكتب العلمية. بيروت.
* الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى للقرطبى. تحقيق محمد حسن جبل وآخرون. دار الصحابة بطنطا ١٤١٦/ ١٩٩٥.
* الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر. تحقيق البجاوى. طبع دار نهضة مصر.
* أصول الفقه الإسلامى. د/ وهبة الزحيلى، دار الفكر ١٤٠٦/١٩٨٦.
* أصول مذهب الإمام أحمد. د/ عبد الله التركى. طبع مؤسسة الرسالة ١٤١٠/ ١٩٩٠.
* أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن. لمحمد أمين الشنقيطى. طبع الرئاسة العامة للإفتاء بالسعودية ١٤٠٣/ ١٩٨٣.
* الاعتصام. للشاطبى. طبع المكتبة التجارية الكبرى. بالقاهرة.
* الأعلام لخير الدين الزركلى. طبع دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة السادسة نوفمبر ١٩٨٤.

* أعلام الموقعين. لابن القيم. تحقيق طه عبد الرءوف. طبع شقرون ١٣٨٨/ ١٩٦٨.
* الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع. للقاضى عياض، ت/ سيد صقر. طبع دار التراث ١٣٨٩/ ١٩٧٠.
* الأم للشافعى. مكتبة الكليات الأزهرية. ١٣٨١/ ١٩٦١.
* الأنساب للسمعانى. دائرة المعارف بالهند ١٣٨٣/ ١٩٦٣.
* البداية والنهاية لابن كثير. تحقيق محمد عبد العزيز النجار. مطبعة الفجالة الجديدة.
* البدعة. د/ عزت على عطية. دار الكتاب العربى بيروت ١٤٠٠/ ١٩٨٠.
* البدع والنهى عنها لابن وضاح. تحقيق محمد أحمد دهمان. طبع الرئاسة العامة للإفتاء بالسعودية.
* البرهان فى علوم القرآن. للزركشى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. نشر الرئاسة العامة للإفتاء بالسعودية ١٤٠٠/ ١٩٨٠.
* البرهان فى أصول الفقه للجوينى تحقيق د/ عبد العظيم الديب. الناشر دار الأنصار بالقاهرة ١٤٠٠/ ١٩٨٠.
* بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، للفيروزابادى. طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر.
* الترتيب والبيان عن تفصيل آى القرآن. لمحمد زكى صالح. المكتبة العلمية ببغداد ١٣٩٩/ ١٩٧٩.
* الترغيب والترهيب للأصبهانى. تحقيق محمد السعيد زغلول وآخران.
* تاج العروس شرح القاموس للزبيدى. المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦.
* تحفة المودود بأحكام المولود لابن القيم. تحقيق د/ كمال الجمل. مكتبة الإيمان بالمنصورة.
* تدريب الراوى للسيوطى. طبع دار الكتب الحديثة.
* تذكرة الحفاظ للذهبى. طبع دائرة المعارف بالهند ١٣٨٨/ ١٩٦٨.
* تعظيم قدر الصلاة. لمحمد بن نصر المروزى. تحقيق عبد الرحمن الفريوائى. مكتبة الدار بالمدينة ١٤٠٦.
* تفسير الآلوسى راجع «روح المعانى».
* تفسير ابن كثير دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت ١٣٨٨/ ١٩٦٩.
* تفسير الجمل «حاشية الجمل على الجلالين» طبع عيسى الحلبى.
* تفسير الطبرى. طبع مصطفى الحلبى. الطبعة الثالثة ١٣٨٨/ ١٩٦٨.

* تفسير عبد الرزاق. تحقيق عبد المعطى قلعجى دار المعرفة بيروت.
* تفسير الشوكانى «فتح القدير» طبعة دار الفكر.
* تفسير القرطبى. طبع دار الكتب المصرية.
* تفسير القرآن العزيز = تفسير عبد الرزاق.
* تفسير القرآن الكريم لابن أبى حاتم. طبع نزار الباز تحقيق أسعد محمد الطيب ١٤١٧/ ١٩٩٧.
* تفسير الكشاف للزمخشرى. طبع مصطفى الحلبى.
* تفسير مجاهد. تحقيق عبد الرحمن السورتى. طبع مجمع البحوث الإسلامية بباكستان.
* التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد. لابن عبد البر. ط أوقاف المغرب ١٤٠٢/ ١٩٨٢.
* تهذيب التهذيب لابن حجر. تصوير دار صادر عن طبعة دائرة المعارف بالهند ١٣٢٥.
* تهذيب الكمال فى أسماء الرجال للمزى تحقيق د/ بشار عواد طبع مؤسسة الرسالة.
* التوحيد لابن خزيمة. مراجعة محمد خليل هراس. دار الدعوة السلفية.
* جامع الأصول فى أحاديث الرسول ﷺ. لابن الأثير. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ١٣٨٩/ ١٩٦٩.
* جامع العلوم والحكم. لابن رجب. تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس. طبع مؤسسة الرسالة ١٤١٣/ ١٩٩٣.
* جامع بيان العلم وفضله. لابن عبد البر. الناشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٨/ ١٩٩٨.
* الحاوى الكبير فى فقه الشافعى. تحقيق الشيخ على معوض وآخرون. ط دار الكتب العلمية. بيروت ١٤١٤/ ١٩٩٤.
* حجية السنة الدكتور/ عبد الغنى عبد الخالق. طبع دار القرآن الكريم بيروت ١٤٠٧/ ١٩٨٦.
* الحديث والمحدثون للشيخ محمد أبو زهو. طبع الرئاسة العامة للإفتاء بالسعودية ١٤٠٤/ ١٩٨٢.
* حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى مطبعة السعادة ١٣٩٩/ ١٩٧٩.
* حياة الصحابة للشيخ الكاندهلوى ١٣٨٩/ ١٩٦٩.
* درء تعارض العقل والنقل. لابن تيمية تحقيق د/ محمد رشاد سالم ط جامعة الإمام محمد بن سعود بالسعودية ١٣٩٩/ ١٩٧٩.

* دلائل النبوة للبيهقى تحقيق د/عبد المعطى القلعجى. دار الكتب العلمية ١٤٠٥/ ١٩٨٥.
* الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة. للكتانى. دار البشائر الإسلامية ١٤٠٦/١٩٨٦.
* روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم. للألوسى. دار الفكر ١٤١٤/ ١٩٩٣.
* سنن الأوزاعى. تصنيف الشيخ مروان محمد الشعار. دار النفائس ١٤١٣/ ١٩٩٣.
* سنن أبى داود مع شرحه عون المعبود للآبادى. ط السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٨/ ١٩٦٨.
* سنن الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى للمباركفورى. ط السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٣/ ١٩٦٣.
* سنن النسائى (المجتبى) ط مصطفى الحلبى ١٣٨٣/ ١٩٦٤.
* السنن الكبرى للنسائى تحقيق عبد الغفار البندارى وسيد كسروى. دار الكتب العلمية. ١٤١١/ ١٩٩١.
* سنن ابن ماجه تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى. طبع عيسى الحلبى بمصر.
* سنن الدارقطنى. طبعة عبد الله هاشم يمانى ١٣٨٦/ ١٩٦٦.
* سنن سعيد بن منصور. تحقيق الأعظمى ط الدار السلفية بالهند.
* سنن سعيد بن منصور. تحقيق د/سعد الحميد. دار الصومعى بالسعودية ١٤١٤/ ١٩٩٣.
* السنن الكبرى للبيهقى ط دائرة المعارف بالهند ١٣٤٤.
* السنة لابن أبى عاصم. تحقيق الألبانى. المكتب الإسلامى ١٤١٣/ ١٩٩٣.
* السنة للخلال. تحقيق الزهرانى. طبع دار الراية.
* السنة لعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق محمد السعيد زغلول. دار الكتب العلمية ١٤٠٥/ ١٩٨٥.
* السنة لمحمد بن نصر المروزى. تخريج وتعليق أبو محمد سالم السلفى. مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٨/ ١٩٨٨.
* السنة النبوية، مكانتها، وعوامل بقائها، وتدوينها. لعبد المهدى «المؤلف» طبع دار الاعتصام.
* السيرة النبوية فى ضوء الكتاب والسنة. لعبد المهدى «المؤلف» طبع المؤسسة العربية الحديثة بمصر.

* سير أعلام النبلاء. للذهبى. تحقيق شعيب الأرناؤوط. طبع مؤسسة الرسالة ١٤٠١/ ١٩٨١.
* شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائى.
* شرح السنة للبغوى تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط. المكتب الإسلامى ١٣٩٠/ ١٩٧١.
* الشريعة. للآجرى. مؤسسة قرطبة. القاهرة ١٤١٧/١٩٩٦.
* شعب الإيمان للبيهقى تحقيق محمد السعيد زغلول. دار الكتب العلمية ١٤١٠/ ١٩٩٠.
* صحيح ابن حبان. تحقيق شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة.
* صحيح ابن خزيمة تحقيق الأعظمى. المكتب الإسلامى.
* صحيح البخارى مع شرحه فتح البارى لابن حجر. طبع السلفية بمصر ١٣٨٠.
* صحيح مسلم بشرح النووى طبعة الشعب بمصر.
* صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى. ط عيسى الحلبى.
* الصواعق المرسلة لابن القيم.
* الطبقات الكبرى لابن سعد دار صادر. بيروت.
* طرق تخريج حديث رسول الله ﷺ لعبد المهدى «المؤلف» طبع دار الاعتصام.
* طرق تخريج أقوال الصحابة والتابعين لعبد المهدى «المؤلف» طبع المؤلف. توزيع مكتبة الإيمان بجامعة الأزهر بالدراسة.
* طريق الهجرتين لابن القيم. مكتبة أسامة بالقاهرة.
* العظمة لأبى الشيخ. تحقيق محمد فارس. طبع دار الكتب العلمية ١٤١٤/ ١٩٩٤.
* الغيلانيات. تحقيق د/ فاروق عبد العليم مرسى. مكتبة أضواء السلف ١٤١٦/١٩٩٦.
* فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر. ط السلفية بمصر ١٣٨٠.
* الفتح الربانى بترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيبانى للشيخ الساعاتى. تصوير دار الشهاب بالقاهرة.
* فتح المغيث شرح ألفية الحديث كلاهما للعراقى. الناشر مكتبة السنة.
* الفتوحات الإلهية. حاشية على تفسير الجلالين للشيخ الجمل. طبع عيسى الحلبى.
* الفَرْق بين الفِرَق لعبد القاهر البغدادى. ط دار الآفاق الجديدة بيروت.
* الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم ط دار الفكر.
* الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادى تصحيح الشيخ إسماعيل الأنصارى. مطابع القصيم ١٣٨٩.

* الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادى تحقيق عادل العزازى طبع دار ابن الجوزى بالسعودية، والتوعية الإسلامية بمصر ١٤١٧/ ١٩٩٧ فإذا أخذت من هذه ذكرت رقم الفقرة.
* الفهرس الموضوعى لآيات القرآن الكريم لمحمد مصطفى محمد. دار عمان الأردن.
* فيض القدير بشرح الجامع الصغير للمناوى. المكتبة التجارية.
* قطر الولى على حديث الولى للشوكانى. تحقيق د/ إبراهيم هلال. دار الكتب الحديثة.
* الكامل فى ضعفاء الرجال لابن عدى. طبع دار الفكر.
* كشف الأستار عن زوائد البزار. للهيثمى. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى. طبع مؤسسة الرسالة ١٣٩٩/ ١٩٧٩.
* الكفاية فى علم الرواية للخطيب البغدادى. طبع دار الكتب الحديثة بمصر.
* كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للهندى، مؤسسة الرسالة ١٣٩٩/ ١٩٧٩.
* لسان العرب لابن منظور. تحقيق عبد الله الكبير وآخران. طبع دار المعارف.
* مجمع الزوائد للهيثمى. الناشر دار الكتاب بلبنان مصورة.
* المحصول فى علم الأصول للفخر الرازى. تحقيق د/ طه جابر طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٩٩/ ١٩٧٩.
* مختصر سنن أبى داود للمنذرى تحقيق أحمد شاكر ومحمد حامد الفقى الناشر دار المعرفة ببيروت.
* المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقى تحقيق د/ محمد ضياء الرحمن الأعظمى. الناشر دار الخلفاء للكتاب الإسلامى.
* المستدرك للحاكم ومعه تلخيص المستدرك للذهبى الناشر مكتبة ومطابع النصر الحديثة بالرياض.
* المستصفى من علم الأصول للغزالى مكتبة الجندى.
* مسند أحمد بن حنبل طبعة الميمنية بمصر. تصوير المكتب الإسلامى ودار صادر بلبنان.
* مسند ابن الجعد تحقيق عبد المهدى «المؤلف» الناشر مكتبة الفلاح بالكويت.
* مسند أبى داود الطيالسى طبع دائرة المعارف بالهند ١٣٢١.
* مسند الرويانى تحقيق أيمن أبو يمانى. مؤسسة قرطبة ١٤١٦/ ١٩٩٥.
* مسند أبى يعلى تحقيق حسين أسد. دار المأمون للتراث ١٣٩٣/ ١٩٧٣.
* كتاب المصاحف لابن أبى داود السجستانى. دار الكتب العلمية ١٤٠٥/ ١٩٨٥.
* المصنف لابن أبى شيبة الدار السلفية بالهند.
* المصنف لعبد الرزاق تحقيق الأعظمى المكتب الإسلامى ١٣٩٠/ ١٩٧٠.

* معالم أصول الفقه لمحمد حسين الجيزانى. دار ابن الجوزى ١٤١٦/١٩٩٦.
* معانى القرآن الكريم لأبى جعفر النحاس. طبع معهد البحوث العلمية جامعة أم القرى.
* معجم البلدان لياقوت الحموى دار صادر ١٤٠٤/١٩٨٤.
* المعجم الأوسط للطبرانى تحقيق أبو معاذ وأبو الفضل. الناشر دار الحرمين بالقاهرة ١٤١٦/١٩٩٥.
* المعجم المفهرس للقرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقى طبعة الشعب بمصر.
* المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى تأليف لفيف من المستشرقين ط بريل ليدن ١٩٣٦.
* المعجم لأبى يعلى تحقيق إرشاد الحق طبع إدارة العلوم بباكستان ١٤٧٠.
* معرفة السنن والآثار للبيهقى تحقيق عبد المعطى قلعجى طبع دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٢/١٩٩١.
* المغنى لابن قدامة. تحقيق د/عبد الله التركى و د/عبد الفتاح الحلو طبع دار هجر ١٤٠٨/١٩٨٧.
* مفتاح كنوز السنة د/أ.ى. فنسنك ط باكستان.
* الموافقات للشاطبى. تعليق الشيخ دراز طبع دار المعرفة وطبع دار الفكر العربى.
* موسوعة أطراف الحديث النبوى الشريف لمحمد السعيد زغلول ط عالم التراث ١٤١٠/١٩٨٩.
* موسوعة الحديث النبوى للدكتور/عبد الملك بكر قاضى طبع دار العاصمة بالرياض.
* موطأ مالك تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ط عيسى الحلبى ١٣٧٠/١٩٥١.
* المنتخب من مسند عبد بن حميد تحقيق صبحى السامرائى ومحمد الصعيدى مكتبة السنة بالقاهرة ١٤٠٨/١٩٨٨.
* منحة المعبود فى ترتيب مسند الطيالسى أبى داود للشيخ البنا الساعاتى المطبعة المنيرية ١٣٧٢.
* منهاج السنة النبوية فى نقض الشيعة والقدرية لابن تيمية الناشر مكتبة الرياض الحديثة.
* نصب الراية لأحاديث الهداية للزيلعى طبع المجلس العلمى بالهند وباكستان.
* النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير تحقيق الطناحى والزاوى طبع عيسى الحلبى ١٣٨٣/١٩٦٣.

* * *

فهرس الموضوعات

(١) جمعت الأحاديث دون مراعاة لتسلسل الفهرس.

* * *

كتب للمؤلف

١ ـ طرق تخريج حديث رسول الله ﷺ، طبع دار الاعتصام.

٢ ـ طرق تخريج أقوال الصحابة والتابعين، طبع المؤلف، ويطلب من مكتبة الإيمان.

٣ ـ المدخل إلى السنة النبوية «بحوث فى القضايا الأساسية عن السنة النبوية» طبع دار الاعتصام.

٤ ـ السنة النبوية: مكانتها، وعوامل بقائها، وتدوينها. طبع دار الاعتصام.

٥ ـ مسند على بن الجعد. تحقيق ودراسة. طبع مكتبة الفلاح بالكويت.

٦ ـ علم الجرح والتعديل قواعده وأئمته. طبع المؤلف، ويطلب من مكتبة الإيمان.

٧ ـ السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، طبع نهضة مصر، وطبع المؤلف ويطلب من مكتبة الإيمان.

٨ ـ كيف نصوم رمضان «رسالة صغيرة» طبع دار الاعتصام.

٩ ـ رسالة إلى كل مريض «رسالة صغيرة» طبع دار الاعتصام.

١٠ ـ الرد على د / مصطفى محمود فى إنكار الشفاعة، والرد على اللواء محمد شبل فى إنكار يوم عرفة، طبع دار الاعتصام.

١١ ـ دفع أباطيل د/ مصطفى محمود فى إنكار السنة النبوية، طبع دار الاعتصام.

١٢ ـ دفع الشبهات عن السنة النبوية. وهو هذا الكتاب.

١٣ ـ معجزات الرسول ﷺ التى ظهرت فى زماننا «تحت الطبع».

* * *

هذا الكتاب

القرآن الكريم وسنة النبى ﷺ هما أصل الإسلام ومصدره. هما وحى الله الذى يسعد الإنسانية، ويأخذ بأيديها إلى الحق والصدق. إلا أن بعض أصحاب الأقلام ممن لم يدرسوا علوم الإسلام دَسَّت لهم المراكز المعادية للإسلام مذكرات مليئة بالتجنِّى على الإسلام، وعلى السنة النبوية بوجه خاص، فظنها هؤلاء سبقًا علميًا، وتقدمًا فكريًا، وراحوا يثيرون بها شُبهًا على الإسلام، وعلى السُّنَّة، ويعترضون على أحاديث من السُّنَّة، ويُجَرِّحُون بعض رجالها!! إنهم يرددون كلامًا دون تحقيق، فهم ليسوا من أهل التحقيق، فما بين كاتب صحفى، ومشتغل بالتجارة، ومشتغل بالصناعة، والمثقف منهم ثقافته غير إسلامية، وربما موجهة، ووسائل الإعلام تفتح لهم أبوابها، وبعض دور النشر تطبع كتبهم!!

والمسلمون يسيؤهم هذا الزور، والإسلام يأمر ببيان الحق، ومن هنا أَلَّفت هذا الكتاب، جمعت فيه أحدث الشبهات المثارة ضد السنة النبوية، والتى منها: ما كان على علم السنة عمومًا، كقولهم: إن السنة لم تدوَّن إلا بعد مائة عام، وقولهم: إنها منها الصحيح والموضوع... إلخ. ومنها: ما كان على أحاديث من السنة: كحديث الذباب، وحديث الشفاعة، وحديث ضرب موسى ملك الموت. ومنها: ما كان على رجال السنة: كتجريحهم أبا هريرة، والبخارى وغيرهم. أجبت على شبههم بما يكشف بطلانها، وأنها تتنافى مع ما ينبغى أن تتصف به المعرفة الإنسانية من الصدق، وأمانة الكلمة.

والله الموفق والهادى إلى الصراط المستقيم

* * *